

قصة إرهاب شيقة،

خيانة، ومكيدة سياسية،

مع خيارات لا تخطر على بال

مصعب حسن يوسف

مع رون براكِن



قصة إرهاب شيقة،
خيانة، ومكيدة سياسية،
مع خيارات لا تخطر على بال



مصعب حسن يوسف

مع

رون براكِن



«ابن حماس ـ مصعب حسن يوسف»
Arabic version printed by Oasis Life Publishing®.

English Version Originally Published in USA under the title:
Son of Hamas:
A Gripping Account of Terror, Betrayal, Political Intrigue, and Unthinkable Choices

ISBN 978-1-935577-02-7 (International Trade Paper Edition)

Printed in the United States of America

الى والدي الحبيب وعائلتي الجريحة
الى ضحايا الصراع الفلسطيني الاسرائيلي
الى كل حياة بشرية خلصها ربي

عائلتي

أنا فخور جداً بكم. الله وحده يعلم الظروف التي اجتزتم فيها. أنا أدرك أن ما فعلته سبب لكم جرحاً اضافياً عميقاً، ربما لن يشفى في هذه الحياة، وستكونون ملزمين على التعايش مع العار الذي جلبه عليكم الى الأبد.

كان يمكن أن أكون بطلاً وأحمل شعبي على الافتخار بي. لقد عرفت أي نوع من الأبطال كانوا يصبون الى رؤيته: مقاتل كرّس حياته وعائلته من أجل قضية وطنه. حتى لو تم قتلي، كانوا سيتداولون قصتي للأجيال المقبلة، وسيفتخرون بي الى الأبد. ولكن في الحقيقة، لم يكن هذا ليجعل مني بطلاً.

بدلاً من هذا، أصبحت خائناً في نظر شعبي. ومع أنني جلبت لكم الفخر مرة، لكنني الآن لا أجلب سوى العار. ومع أنني كنت مرة الأمير الملكي، فأنا الآن غريب في بلد أجنبي، أصارع عدواً هو الوحدة والظلمة.

أعلم أنكم تنظرون اليّ كخائن. ولكن أرجو أن تفهموا أنه ليس أنتم من اخترت أنا لأخون، انما مفهومكم لمعنى أن يكون المرء بطلاً. عندما تبدأ دول الشرق الأوسط، يهود وعرب على حد سواء، بفهم القليل مما أفهمه أنا، عندها فقط سيكون هناك

سلام. واذا كان قد تم رفض ربي لانه خلص العالم من قصاص جهنم، لا أبالي اذا كنت أنا أيضاً مرفوضاً.

لا أعلم ماذا يحمل المستقبل بين طياته، ولكنني أعلم أنني لست خائفاً. والآن أريد أن أعطيكم شيئاً أعانني للبقاء على قيد الحياة الى الآن: كل الشعور بالذنب والعار الذي حملته طوال هذه السنين، هو ثمن زهيد يدفع اذا كان من أجل تخليص حياة بشرية بريئة واحدة.

كم هو عدد الأشخاص الذين يقدّرون قيمة ما فعلت؟ ليس كثيراً. ولكن لا بأس. فأنا آمنت بما فعلت، ولا زلت مؤمناً. وهذا هو مصدر الطاقة الوحيد لهذه المسيرة الطويلة.

كل نقطة دم بريئة تم صونها، تعطيني الأمل للاستمرار حتى اليوم الأخير.

أنا دفعت، وأنتم دفعتم، ولا تزال فواتير الحرب والسلام تصدر بشكل متواصل. ليكن الله معنا جميعاً، ويزوّدنا بما نحتاج لحمل هذا العبء الثقيل.

بمحبة،

ابنكم

الفهرست

كلمة الكاتب

الوقت متعاقب. انه خيط يمتد على طول المسافة بين الولادة والموت. الأحداث، بطريقة ما، أشبه بسجادة عجمية. آلاف الخيوط الزاهية الألوان تتداخل معاً بطريقة معقدة لتنسج رسوماً وصوراً. أي محاولة لوضع الأحداث في ترتيب زمني محض، سيكون مثل سحب خيوط السجادة من طرفيها. ربما يبدو الأمر أسهل، ولكنك سوف تخسر التصميم.

الأحداث في هذا الكتاب هي أفضل ما تختزنه ذاكرتي. وهي نابعة من دوامة حياتي التي عشتها في الأراضي المحتلة باسرائيل، ومنسوجة معاً كونها وقعت بشكل متوال ومتزامن.

لتزويدكم بالمراجع اللازمة، أضفت عدداً من الصفحات في الملاحق، للاشارة أيضاً الى تاريخ الأحداث، ولائحة بأسماء الأشخاص الذي جئت على ذكرهم في هذا الكتاب.

لأسباب أمنية، أغفلت ذكر الكثير من تفاصيل العمليات التي قامت بها وكالة الاستخارات الاسرائيلية شين بيت. والمعلومات التي ذكرتها في هذا الكتاب لا تهدد بأي شكل من الأشكال الحرب الدولية المتواصلة ضد الارهاب، والتي تلعب فيها اسرائيل دوراً ريادياً.

أخيراً، "ابن حماس"، مثل الشرق الأوسط، هو قصة متواصلة. أدعوكم للبقاء على تواصل معي من خلال زيارة موقع: http://www.sonofhamas.com

حيث اشارككم رؤيتي حول التطورات المتلاحقة في المنطقة. كما سأنشر آخر المعلومات عما يفعله الرب من خلال الكتاب، وفي عائلتي، والى أين يقودني اليوم.

م ح ي

مقدمة

احلال السلام في الشرق الأوسط كان الكأس المقدسة لديبلوماسيين ورؤساء حكومات ورؤساء دول لأكثر من خمسة عقود. كل وجه جديد على المسرح الدولي يظن أنه سيكون الشخص القادر على حل مشكلة الصراع العربي الاسرائيلي. وكل واحد منهم يفشل فشلاً ذريعاً وتاماً كالذين سبقوه.

الحقيقة هي ان القليل من الشخصيات الغربية يمكنهم فهم تعقيدات الشرق الأوسط وشعبه، ولو بشكل يسير. الا أنني أفهم الوضع تماماً، من منظور فريد جداً. أنت ترى، أنني ابن تلك المنطقة وذلك الصراع. أنا ربيب الاسلام، وأبن شخص متهم بالارهاب. أنا أيضاً من أتباع يسوع.

قبل بلوغي العشرين من العمر، عايشت أموراً لا يجب على أحد ان يختبرها: فقر مدقع، سوء استخدام للسلطة، تعذيب وموت. كنت شاهداً على الأمور التي كانت يقوم بها وراء الكواليس قادة الشرق الأوسط الكبار، الذين كانت أخبارهم تتصدر صحف العالم. كنت محط ثقة القيادات العليا لحماس، وشاركت في ما يسمى بالانتفاضة، وتم احتجازي في أعماق أرهب مراكز الاعتقال الاسرائيلية. وكما سترى، اتخذت قرارات جعلت مني خائناً في نظر الذين أحبهم.

مسيرة حياتي غير العادية قادتني للدخول الى أماكن مظلمة، وأفسحت لي المجال للحصول على معلومات فائقة السرية. على صفحات هذا الكتاب، كشفت أخيراً بعضاً من هذه الأسرار التي كانت مستورة لزمن طويل، وأبرزت أحداثاً وأساليب عمل لم تكن معروفة حتى الساعة الا من قبل حفنة من الأشخاص الغامضين.

كشف الستار عن هذه الحقائق سيرسل على الأرجح موجات ارتجاجية في بعض

أجزاء الشرق الأوسط. ولكنني آمل أيضاً أن يحمل تعزية لعائلات ضحايا كثيرة لهذا الصراع غير المتناهي.

من خلال وجودي بين الاميركيين، اكتشفت أن لدى العديد منهم تساؤلات كثيرة تدور حول الصراع العربي الاسرائيلي، الا أنهم لا يملكون عليها سوى اجابات قليلة، كما ان معلوماتهم حولها غير وافية. ومن هذه الأسئلة:

- «لماذا لا تتعايش شعوب الشرق الأوسط فيما بينها؟».
- «من هو على حق. الاسرائيليون ام الفلسطينيون؟».
- «لمن تعود ملكية الأرض حقاً؟ ولماذا لا يرحل الفلسطينيون الى أرض عربية أخرى؟».
- «لماذا لا تعيد اسرائيل الأراضي والممتلكات التي استولت عليها في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧؟».
- «لماذا لا يزال الكثير من الفلسطينيين يعيشون في مخيمات اللاجئين؟ وما السبب في عدم حصولهم على دولة خاصة بهم؟».
- «لماذا يكره الفلسطينيون اسرائيل الى هذا الحد؟».
- «كيف يمكن لاسرائيل أن تحمي نفسها من العمليات الانتحارية وقصف الصواريخ المتكرر باتجاهها؟».

هذه كلها أسئلة جيدة. ولكن واحداً منها لا يلامس حقيقة الوضع، وجذور المشكلة. الصراع الحالي يرجع في تاريخه الى زمن العداء الذي كان بين سارة وهاجر، المذكورتين في السفر الأول من الكتاب المقدس. لفهم الحقائق السياسية والثقافية، نوعاً ما، ليس عليك النظر حقاً لأبعد من نتائج الحرب العالمية الاولى.

عندما وضعت الحرب أوزارها، خضعت الأراضي الفلسطينية، التي كانت موطن الفلسطينيين لقرون طويلة، تحت سلطة الانتداب البريطاني. وكانت لدى الحكومة البريطانية فكرة استثنائية للمنطقة، تم الاعلان عنها في وثيقة بلفور في العام ١٩١٧: "رؤية حكومة جلالته تؤيد انشاء وطن قومي يهودي على أرض فلسطين".

وبتشجيع من الحكومة البريطانية، تدفق مئات آلاف المهاجرين اليهود، وأكثرهم من دول أوروبا الشرقية، الى الأراضي الفلسطينية. ونتيجة لهذا، كان لا مفر من حصول الاشتباكات بين العرب واليهود.

أصبحت اسرائيل دولة في العام ١٩٤٨ . ومع ذلك، بقيت الأراضي الفلطسينية كما هي، أراض غير ذات سيادة. فبدون دستور يعكس شكل النظام، كان القانون الديني هو السلطة العليا التي تسوس الناس. واذ كان كل واحد يفسر القانون ويفرضه بحسب ما يراه مناسباً، عمت الفوضى في كل مكان. بالنسبة للعالم الخارجي، كان الصراع في الشرق الأوسط بكل بساطة عبارة عن لعبة شد حبال فوق قطعة أرض صغيرة. ولكن المشكلة الحقيقية هي أن أحداً لم يفهم بعد حقيقة المشكلة. ونتيجة لذلك، واصل المفاوضون بثقة، من كامب دايفد حتى أوسلو، تجبير أذرع وأرجل شخص يعاني من مرض في القلب.

أرجو أن يكون مفهوماً أنني لم أسطر هذا الكتاب لقناعة لديّ بأنني أكثر ذكاءً أو حكمةً من المفكرين العظام في عصرنا. لأنني لست كذلك. ولكنني أؤمن بأن الله أعطاني وجهة نظر فريدة، من خلال وضعي في مختلف نواحي صراع غير قابل للحل.

حياتي كانت مقسمة كقطعة الأرض الصغيرة المجنونة على البحر الأبيض المتوسط، المعروفة باسم اسرائيل من قبل البعض، وفلسطين من بعض آخر، والأراضي المحتلة من قسم ثالث.

هدفي من الصفحات التالية هو وضع الأمور في نصابها الصحيح، حول بعض الأحداث الأساسية، وكشف بعض الأسرار. واذا جرت الأمور على ما يرام، أن أترك فيك أملاً بأن المستحيل يمكن تحقيقه.

الفصل الاول

اعتقالي

١٩٩٦

كنت أقود سيارتي «السوبارو» البيضاء عندما اقتربت من منعطف صغير، في شارع ضيق يؤدي الى الطريق السريع خارج الضفة الغربية من مدينة رام الله. واذ بدأت بتخفيف سرعة السيارة تدريجياً، مقتربا من احدى نقاط التفتيش العديدة المتناثرة على الطريق المؤدية الى مدينة القدس وخارجها، سمعت صرخة مدوية باللغة العربية، انما بلكنة اجنبية، «أوقف المحرك». ومن دون سابق انذار، قفز ستة جنود اسرائيليين من بين الأشجار نحو مقدمة السيارة، وكل منهم يصوب بندقيته الرشاشة نحو رأسي.

وفيما بدأ الرعب يتملكني ويشد على خناقي، أوقفت السيارة، وألقيت مفاتيحها من النافذة، فيما كان صوت آخر يصرخ: «اخرج...اخرج...». وللحال، أمسكني واحد من الجنود ودفعني بشدة خارج السيارة، وألقى بي الى الأرض الترابية. وقبل ان أتمكن من تحصين رأسي، بدأت ركلات الجنود تنهال عليّ. واذ حاولت حماية وجهي بيديّ، كانت الركلات تتنقل في انحاء جسدي، من الضلوع الى الكليتين والظهر والرقبة حتى الجمجمة.

بعد هذا، أقامني اثنان من الجنود، وتوجها بي الى نقطة التفتيش، حيث أجبراني على الركوع أمام ساتر من الاسمنت، وكبّلا يديّ باحكام خلف ظهري برباط من البلاستيك الحاد، فيما قام جندي آخر بوضع عُصابة على عينيّ، وألقى بي في مؤخرة سيارة جيب. وبدأت مشاعر الخوف المجبول بالغضب تنتابني، فيما كانت التساؤلات تجول في خاطري عن المكان الذي سيأخذونني اليه، وكم من الوقت سأبقى هناك، وماذا سيحدث لي انا ابن الثامنة عشرة من العمر، وتفصلني اسابيع قليلة عن الامتحانات النهائية لصفوف الثانوية العامة. تُرى، ما هو مصيري؟ بعد فترة قصيرة في القيادة توقف الجيب، وبحركة عنيفة، جذبني احد الجنود، ونزع العصابة عن عينيّ. وفي لهيب الشمس الحارقة، أدركت أنني في قاعدة «أوفر» العسكرية، وهي قاعدة دفاع اسرائيلية، وواحدة من أكبر وأكثر القواعد العسكرية تحصيناً في الضفة الغربية. وفيما كان الجنود يقودونني باتجاه المبنى الرئيسى في القاعدة، مررنا بالعديد من الدبابات المدرعة المغطاه بشباك التمويه العسكرية. كانت القاعدة محاطة بسواتر ترابية ضخمة، طالما اثارت فيّ فضولا كلما رأيتها من بعيد، بحيث كانت تبدو لي وكأنها جُلمود عملاق.

بعد ادخالي الى المبنى، قابلني أحد الأطباء بعينين فاحصتين. واذ بدأ يتفرّس فيّ، جال بنظره مرات عدة من رأسي حتى قدميّ، نزولا وصعودا، ليرى ما اذا كنت قادرا على اجتياز اختبار التحقيق الذي كان ينتظرني. كان واضحا انني نجحت في الامتحان. فأعاد الجنود ربط العصابة حول عينيّ، وكبّلوا يديّ مرة اخرى، وطرحوني في السيارة على عجل. حاولت أن أحصر جسدي المنهك في بقعة صغيرة يضع الجنود ارجلهم فيها داخل السيارة. غير ان حذاء عسكريا لجندي ثقيل الوزن لم يجد راحته الا على خاصرتي، فيما كادت فوهة بندقيته من طراز «ام ١٦» تنغرز في صدري. وكنت كلما حاولت اشاحة وجهي عن ارض السيارة لكي أتفادى استنشاق رائحة المحروقات المسكوبة عليها، كان الجندي يغرز فوهة بندقيته في صدري أعمق.

وأنا على هذه الحال المذرية، اذا بجندي يجلس في المقعد الامامي يفاجئني بضربة صاعقة على رأسي من عقب بندقيته، شعرت معها وكأن صاروخا انفجر في جمجمتي، بحيث انتاب كياني كلّه ألم مبرّح، جعل أطرافي تنقبض باعتصار. وقبل ان أستفيق من هول المفاجأة المرعبة، وعلى رغم ردة الفعل الفطرية التي قمت

بها لحماية جسدي، الا ان الجندي وجّه لي ضربة ثانية أعنف من الأولى، استقرّت هذه المرة بين عينيّ. فحاولت ابعاد جسدي عن مرمى الضربات، الا ان الجندي الذي استخدم جسدي كموطىء لقدميه منع تحركي، وصرخ في وجهي قائلاً: «لا تتحرك لئلا أطلق النار». وهكذا، تواصل انهمار الضربات على جسدي الذي كان يتدور معها كاسطوانة حلزوينة. واذ تورّمت عيناي وأخذتا بالانغلاق تدريجا بسبب العصابة المربوطة بشدة حولهما، شعرت بخدر يلف وجهي، وبتوقف جريان الدم في ساقيّ، وبدأت أعاني صعوبة في التنفس، مع معاناة آلام لم أختبر نظيرها في حياتي. الا أن آلامي النفسية كانت أشد وطأة عليّ من الأوجاع الجسدية، وأنا أرى نفسي مأسورا لدى عصابة شرسة لا تعرف شيئا من الرحمة والانسانية.

واذ بدأت بالتساؤل عن دوافع ما أتعرض له من عنف وارهاب، أدركت لماذا تحدث الحروب والقتال والانتقام والكراهية والغضب والثأر... لم كل هذا؟ فاني لم أفعل شيئا ليس في محله. لم أقاوم هؤلاء الجنود، بل أطعت أوامرهم تماما، ولم أشكل اي تهديد لهم. فها أنا أسير معهم مقيّد اليدين ومعصوب العينين. فما الذي يدور في خلد هؤلاء الجنود، ويجعلهم يتلذذون بأذيتي بهذه الكيفية؟ فحتى أدنى الحيوانات المتوحشة تقتل فريستها من اجل الحاجة، وليس من اجل المتعة!!

لم تبارح صورة أمي مخيلتي وأنا أفتكر بها، وأتصور مشاعرها حين يصلها خبر القاء القبض عليّ، اذ كنت معيل الأسرة الوحيد بعد أن زج بوالدي في السجون الاسرائيلية. وبدأت أتساءل: ترى، هل سيكون السجن مصيري لشهور وسنين عديدة نظير والدي؟ ترى، ماذا ستفعل أمي اذا ما تحققت مخاوفي هذه؟ عندها بدأت أفهم مشاعر والدي الحزينة وقلقه لناحية عائلته، ومعاناته لكوننا في حالة قلق دائم عليه. واذ اجتاح وجه أمي مخيلتي، انهمرت الدموع بغزارة على خدّي.

كنت قلقا ايضا لناحية سنوات تعليمي الثانوي وما اذا كانت ستذهب هباء؟ فاذا كان السجن الاسرائيلي هو مصيري، فامتحانات الشهر التالي ستفوتني بكل تأكيد. ومع فيض التأوّهات والتساؤلات المتزاحمة داخل رأسي، كان وابل اللكمات والركلات ينهال على جسدي من الخارج. ولكن، لماذا أعامل بهذه الكيفية؟ ما هي جريمتي؟ انني لست ارهابيا!! انني لست سوى صبي صغير. فلماذا هذا الضرب المبرّح؟

هذه المعاملة الوحشية أدخلتني في غيبوبة مرات عدة. وكلما استعدت وعيي، كنت أرى الجنود ماثلين أمامي. واذ عجزت عن تجنب ضرباتهم المتواصلة، كان كل ما بامكاني فعله هو الصراخ. ونتيجة للآلام المبرّحة، تقيأت فوق جسدي. وفي كل مرة أصبت بالاغماء، وشعرت بساتر الظلام ينسدل عليّ، كنت أظن أنني سألقى حتفي، وأن حياتي ستنتهي قبل أن تبدأ.

الفصل الثاني

سلم الايمان

١٩٥٥ ـ ١٩٧٧

إسمي مصعب حسن يوسف. الابن البكر للشيخ حسن يوسف، أحد مؤسسي حركة حماس السبعة. ولدت في مدينة رام الله بالضفة الغربية، في اكثر عائلات الشرق الاوسط الاسلامية تديناً.

قصتي تبدأ مع جدي لوالدي، الشيخ يوسف داوود، إمام قرية «الجانية» الواقعة في نطاق ما يطلِق عليها الكتاب المقدس اليهودية والسامرة. أحببت جدي كثيراً. كانت لحيته الناعمة البيضاء تدغدغ خدّيّ عندما كان يضمني الى صدره. ولم أكن أتأفف من الجلوس لساعات عدة، منصتا الى صوته العذب مؤذناً. لقد استمتعت بآذان جدي في مناسبات كثيرة، اذ كان محتّما عليّ كمسلم ان اؤدي فروض الصلاة الخمسة كل يوم. لم يكن تجويد القرآن شيئاً سهلاً، ولكن جدّي كان ساحرا في أدائه.

عندما كنت طفلا، كان تجويد بعض الشيوخ للقرآن مزعجاً. فكنت أسدّ اذنيّ بقطع القماش لكي لا أسمع. أما جدّي فكان مختلفاً عن الجميع. لقد كانت مشاعر العطف والحنان تنساب من بين حنايا صوته، فتترك أثرا طيبا في آذان

وقلوب مستمعيه. لقد كان يؤمن بكل كلمة يتلوها خلال تجويد القرآن.

كان يقطن في قرنة «الجانية» حوالي أربعمئة شخص، في الوقت الذي كانت تخضع المنطقة للحكم الأردني تحت الاحتلال الاسرائيلي. ولم يكن السكان يعيرون اهتماما كبيرا للقضايا السياسية. كانت «الجانية» قرية هادئة وجميلة، سيما وانها كانت تربض بوداعة فوق التلال، على بعد أميال قليلة عن شمال غرب مدينة رام الله. كانت أشعة الشمس عند الغروب تلون معها كل شيء بلون الورد والبنفسج. وكان هواء القرية نظيفاً وصافياً، بحيث يمكن للمرء ان يسرّح نظره من فوق تلالها حتى البحر الابيض المتوسط.

عند الرابعة من فجر كل يوم، كان جدي يتوجه الى المسجد لأداء صلاة الصبح. وعندما ينتهي، كان يركب دابته باتجاه الحقول، ليعمل في الارض ويعتني بأشجار الزيتون، ويشرب من مياه النبع المنعشة. لم يكن الهواء في قريتي ملوثاً تلك الأيام، لأنه لم يكن في «الجانية» إلا سيارة واحدة.

وعندما يكون في المنزل، كان جدي يستقبل سيلاً عارماً من الزوار. فهو لم يكن إماماً فقط، بل كان كل شيء لأهل «الجانية». كان يبارك مولوديها الجدد، ويهمس بالتجويد في آذان الأطفال. وعند موت أحدهم، كان جدي يتولّى مراسم غسل الجثة وتكفينها. فهو من كان يزوّج أهل القرية، ومن يدفنهم.

والدي حسن كان الابن المفضّل عند أبيه. فمنذ نعومة أظفاره، وقبل ان يُطلَب منه الالتزام بالفرائض الدينية، كان يواظب على الصلاة في المسجد. ولم يكن أحدٌ من اخوته يهتم بأمور الاسلام كما كان هو.

تعلم أبي تجويد القرآن من جدي. وكوالده، كان له صوت جميل وعاطفي يطرب آذان مستمعيه. وكان جدي فخوراً جداً به. فقال له عندما أصبح في الثانية عشرة من العمر: «حسن. يبدو واضحاً انك مهتم جداً بأمور الله والاسلام. سأرسلك الى مدينة القدس لتتعلم دروس الشريعة». الشريعة هي قانون الدين الاسلامي الذي يتناول شؤون الحياة اليومية لكل مسلم، من العائلة الى الصحة، ومن السياسة الى الاقتصاد.

لم يكن والدي يعير اهتماما كبيرا لأمور السياسة والاقتصاد. جل رغبته، بكل بساطة، كانت في التشبّه بوالده. كل ما أراده كان قراءة القرآن وتجويده في خدمة الناس. وقد بدأ يدرك شيئاً فشيئاً ان والده كان أكثر من مجرد قائد ديني محترم،

ورجل محبوب وسط الناس الذين كان يخدمهم. ففي ثقافة الشعوب العربية التي غالباً ما تتأثر بالعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية، ولا تعبأ بالدساتير الحكومية والسلطات القضائية، يتمتع رجال مثل جدي بالكثير من السلطة والهيبة والاحترام في المجتمع. وفي كثير من الأحيان، يتعامل الناس مع كلمة القائد الديني كقانون ملزم، ولا يقيمون وزناً لكلمات قائد سياسي ضعيف وفاسد.

لم يُرسلِ جدي ابنه الى القدس ليتعلم أصول الدين فقط. فقد كان يعدّه ليكون قائداً. وفي مدينة القدس القديمة، قرب الجامع الأقصى، المعلم التاريخي المتميز بقبته الذهبية، وقبلة أنظار العالم كله، عاش والدي سنوات عديدة، حيث أتمّ دراسته بعمر الثامنة عشرة. واذ عاد الى رام الله، بدأ يعمل للتو كإمام في الجامع الواقع في البلدة القديمة. وبعواطف متوهجة، كان متحمسا لخدمة الله والناس في مجتمع رام الله، كما فعل والده من قبل في قرية «الجانية». لكن رام الله لم تكن كالجانية. فالاولى كانت مدينة صاخبة، والثانية كانت قرية وادعة. وكم كانت مدوّية الصدمة التي شعر بها أبي في صدره عندما دخل الى المسجد للمرة الأولى في رام الله، حيث لم يجد سوى خمسة رجال ينتظرونه ليؤمّهم الصلاة، فيما كان معظم رجال المدينة يتسكعون في الحانات وصالات القمار ودور عرض الافلام الاباحية. والأفظع من هذا كله، ان الرجل المكلّف بخدمة الآذان، كان يفعل هذا من بيته القريب، فيما كان يلعب الورق مع أصحابه، اذ كان يستخدم مذياعاً موصولاً بمكبر الصوت في المئذنة.

حالة الناس هذه كسرت قلب والدي. ولم يكن يعلم تماماً كيف العمل لارشادهم الى طريق الايمان. حتى الرجال الخمسة الذين كانوا يواظبون على الحضور الى المسجد، أقرّوا بأنهم يفعلون ذلك لأنهم اصبحوا على شفير الموت، ويأملون الذهاب الى الجنة. فكانوا ينصتون الى كلمات والدي. وخلال فترة قصيرة نشأت علاقة محبة بينه وبينهم، اذ كانوا يعتبرونه ملاكاً مرسلاً لهم من السماء. اما خارج المسجد فكان الوضع مختلفاً، لان محبة والدي لاله القرآن حملت الكثيرين من المسلمين غير الملتزمين على انتقاده. واذ كانت ملامح وجهه طفولية، سخر منه هؤلاء وحرّضوا الناس عليه قائلين: «ما لهذا الولد وتجويد القرآن؟ هذا العمل ليس لأمثاله. انه يصنع المشاكل. لماذا يحرجنا هذا الشاب الصغير؟ فالمسجد هو مكان المسنين فقط. وقد صرخ أحدهم في وجه أبي قائلا: «أفضل ان أكون كلباً على ان

أكون مثلك».

احتمل والدي بصبر كل اضطهاد، ولم يكن يدافع عن نفسه او يردّ بمثل ما كان يتعرض له من إساءات. وكانت محبته وعواطفه تجاه الناس تأبى عليه الاستسلام. وقد واظب على عمله وتحريض الناس على العودة الى سبل الاسلام والله. واذ كان يشرك والده بهمومه وقلقه، سرعان ما اكتشف جدي ان غيرة ابنه وطاقاته أكبر مما كان يظن. فكان أن أرسله الى الاردن ليتابع هناك دراساته الاسلامية العليا. وسترون لاحقاً كم كان تأثير الأشخاص الذين التقاهم فعّالاً في تغيير مسار عائلتنا التاريخي، كما في تغيير تاريخ الصراع في الشرق الأوسط. وهنا، أريد التوقف قليلا عن سرد قصتي، لايضاح عدد من النقاط المهمة في التاريخ الاسلامي، ستساعد على فهم الأسباب الحقيقية لفشل محادثات سلام الشرق الاوسط في تحقيق اي أمل او سلام، على رغم الحلول الكثيرة التي وضعت من اجل هذا الهدف.

ما بين العامين ١٥١٧ و ١٩٢٣، انتشر الاسلام من قاعدته في تركيا الى ثلاث قارات، عن طريق الخلفاء العثمانيين. وبعد ثلاثة قرون من الازدهار الاقتصادي والقوة السياسية، بدأت الامبراطورية العثمانية بالانهيار نتيجة الفساد. وكانت القرى الاسلامية الخاضعة للحكم التركي في الشرق الاوسط تتعرض للاضطهاد، ويُفرض عليها دفع جزية كبيرة، فيما اسطنبول بعيدة جداً كي يتمكن الخليفة من الدفاع عن الامناء في هذه القرى، من معاملة الجنود والمسؤولين المحليين السيئة لهم.

بحلول القرن العشرين، بدأ الكثير من المسلمين بالتحرر والسعي وراء طرق عيش مختلفة. فاعتنق بعضهم مذهب الالحاد الذي جاءت به الشيوعية، فيما اتجه آخرون لدفن همومهم ومشاكلهم في المسكرات وألعاب الميسر والدعارة، التي أدخلها الغربيون الذين غزوا المنطقة الغنية بالمعادن الثمينة، والتي كانت تشهد نهضة صناعية واعدة.

في مدينة القاهرة المصرية، ظهر شخص تقيّ يعمل مدرّساً في احدى المدارس الابتدائية، يدعى حسن البنّا. كان قلب حسن ينعصر ألماً لسبب الفقر الذي يعاني منه مواطنو بلاده، والبطالة المنشرة بينهم، والحادهم. ولم يضع حسن اللوم في هذا كله على الاتراك، بل على الغرب. وكان يؤمن بأن الأمل الوحيد لشعبه، ولا سيما لجيل الشباب، هو في عودتهم الى نقاوة وبساطة الاسلام. فكان يزور المقاهي،

متخذا من الطاولات والكراسي منبرا ليعظ الجميع عن ضرورة العودة الى سبل الله. فكان السكارى يسخرون منه، ورجال الدين يتحدّونه. ولكن أكثرية الناس أحبته لأنه بعث بهم الأمل من جديد.

في آذار العالم ١٩٢٨، أسس حسن البنّا جمعية الاخوان المسلمين. كان هدف المنظمة الجديدة اعادة بناء المجتمع على الأسس والمبادىء الاسلامية. وخلال سنوات عشر، انتشرت فروع هذه المنظمة في محافظات مصر كلها. في العام ١٩٣٥، افتتح أخو حسن البنّا فرعاً للمنظمة في الاراضي الفلسطينية. وفي السنوات العشرين التالية، أصبح عدد الاخوان المسلمين يناهز النصف مليون شخص في مصر وحدها.

معظم المنتسبين الى حركة الاخوان المسلمين كانوا من الطبقات الشعبية الأكثر فقراً والأقل نفوذاً. الا ان ولاءهم لقضيتهم كان حاراً. فكانوا لا يتأخرون عن مساعدة اخوانهم المسلمين من أموالهم الخاصة، طبقا لما يوصيه القرآن.

كثير من الناس في الغرب، من الذين لا يصنّفون المسلمين إلا كارهابيين، لا يعرفون الوجه الذي يعكس المحبة والرحمة في الاسلام، حيث يدعو الى الاهتمام بالفقراء والأرامل والأيتام، وتقديم المعونة لطالبي العلم وتأمين الرفاهية للجميع، ويحث على الوحدة وتقوية المجتمع. هذا الجانب من الاسلام هو ما كان يحرك القادة الأوائل للاخوان المسلمين. اما على الجانب الآخر من الاسلام، فتوجد الدعوة لكل المسلمين الى الجهاد والكفاح والنضال من اجل تأسيس الخلافة في الارض، بقيادة رجل يتسلط على الكل ويكون ممثلا لله عليها. من المهم جدا ان تفهموا هذا وتتذكروه بينما تواصلون قراءة الكتاب. والآن، لنعد الى درس التاريخ.

في العام ١٩٤٨ قام الاخوان المسلمون بمحاولة قلب نظام الحكم في مصر، محمّلين الحكومة المصرية مسؤولية ابتعاد الناس عن الدين في البلاد. فتم قمع الثورة وفرض حظر على عمل المنظمة، مع انتهاء الانتداب البريطاني، واعلان اسرائيل استقلالها كدولة يهودية.

هذا الحدث أشعل غضب المسلمين في الشرق الاوسط. فالقرآن يعلّم انه في حال تعرّض أي بلد اسلامي للاعتداء، فعلى كل المسلمين ان يهبّوا للمحاربة والدفاع عن ارضه. فكيف الحال وقد أصبح الأجانب والغزاة يحتلون فلسطين، بيت المسجد الأقصى، ثالث الحرمين الشريفين بعد مكة والمدينة؟ لقد بني المسجد

في الموقع الذي يعتقد المسلمون ان محمداً عرّج منه نحو السماء، بصحبة الملاك جبرائيل، وتحدث مع ابراهيم وموسى وعيسى المسيح.

وعلى الأثر، قامت جيوش مصر ولبنان وسوريا والاردن والعراق بغزو الدولة اليهودية الحديثة. وكان بين عشرات آلاف الجنود المصريين آلاف من عناصر الأخوان المسلمين المتطوعين. اتحاد الجيوش العربية كان أكثر عديداً وعتاداً. الا انه بعد سنة واحدة فقط، تمكن الاسرائيليون من طرد الجيوش العربية خارج الدولة اليهودية. وبنتيجة الحرب، هرب حوالي ثلاثة أرباع المليون فلسطيني، او تم طردهم من بيوتهم ومن الاراضي التي أصبحت تعرف بدولة اسرائيل.

هذه التطورات حملت الامم المتحدة على اصدار القرار رقم ١٩٤، الذي أقرّ بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة الى بيوتهم والعيش بسلام مع جيرانهم، او التعويض على الذين لا يرغبون في العودة. هذا القرار لم يجد طريقاً للتنفيذ. وها ان عشرات الاف الفلسطينيين الذين هربوا من اسرائيل خلال الحرب العربية الاسرائيلية، لم يسترجعوا بيوتهم وارزاقهم ابداً، وأكثرهم يعيشون مع ابنائهم في مخيمات قذرة تشرف عليها منظمة الامم المتحدة الى هذا اليوم.

مع عودة المسلحين من جماعة الاخوان المسلمين الى مصر من ارض المعركة ، بدأوا التخطيط مجدداً للانقلاب على الحكومة. الا ان اخبار المشروع تسربت الى الحكومة المصرية، التي اعتقلت وسجنت الكثير من اعضاء الجماعة، وصادرت املاكهم. لكن عددا من الذين نجوا من الاعتقال، تمكنوا من اعدام رئيس الوزراء المصري بعد اسابيع قليلة.

بالعودة الى حسن البنّا، فقد تمّ اعدامه في الثاني عشر من شباط العام ١٩٤٩، من قبل المخابرات السرية للحكومة المصرية على ما يُعتقد. لكن حركة الاخوان المسلمين لم تتزعزع. فعلى مدى عشرين عاماً فقط، أيقظ حسن البنّا الاسلام من سباته العميق، وخلق ثورة مسلحة. وفي السنوات اللاحقة تزايد عدد المنتسبين الى المنظمة، كما ازداد تأثيرها وسط الناس، ليس في مصر فقط، بل في الدول المجاورة ايضاً كسوريا والاردن.

عند وصول والدي الى الاردن في منتصف السبعينيات، لاكمال دراساته الاسلامية العليا، كانت منظمة الاخوان المسلمين قد تأسست هناك، وبدأت تحظى بقبول الناس لها. وقد رأى والدي في الاخوان المسلمين تحقيقاً لما كان في قلبه من

رغبات وافكار. فقد كانوا يشجعون الناس على العودة من ضلالهم وتجديد ايمانهم الاسلامي، ويقدمون العون للمتألمين ويسعون لانقاذ المنحرفين الى طريق الفساد في المجتمع. آمن والدي بأن الاخوان المسلمين هم مصلحو الديانة الاسلامية، كما كان مارتن لوثر، ووليام تندايل في المسيحية. كانوا فقط يريدون انقاذ الناس وتحسين اوضاعهم الحياتية، وليس قتلهم او تدميرهم. وعندما قابل والدي بعضاً من القادة الأوائل للأخوان المسلمين، شعر بأنه وجد ضالته المنشودة.

ما رآه والدي في القادة الأوائل للأخوان المسلمين كان الجانب الذي يعكس المحبة والرحمة. ولكن ما لم يره، ولم يسمح لنفسه حتى الآن ان يراه، هو الجانب الآخر من الاسلام.

الحياة الاسلامية تشبه السلّم. الصلاة وحمد الله تشكل الدرجة الأولى. الدرجات الأعلى قليلا تمثل مساعدة الفقراء والمحتاجين والتبرع لبناء المدارس وعمل الخير. اما الدرجات العليا فتمثل الجهاد.

هذا السلم طويل. وقليلون هم الذين ينظرون الى أعلى ليروا حقيقة ما فيه. فالارتقاء على هذا السلم يتم تدريجياً، وبشكل لا يمكن معه ادراك الحقيقة. مثله في ذلك مثل هرة تطارد عصفوراً. فالعصفور يثبت نظره على الهرة، مراقبا قيامها بحركات معينة، غير مدرك انها تخطط لافتراسه عبر الاقتراب منه رويداً رويداً. وفي لحظة مناسبة، في طرفة عين، تقفز الهرة وتنشب أظافرها في لحم العصفور ودمه.

المسلم العادي يقف عند أسفل السلم، شاعراً بتأنيب الضمير لانه لا يمارس الاسلام بشكل صحيح. وفي قمة السلم يقف الاصوليون المتشددون الذين نراهم في نشرات الاخبار يقتلون النساء والاطفال ويسبحون اله القرآن ويحمدونه. اما المعتدلون فيقفون في وسط السلم بين هؤلاء واولئك. في الحقيقة، المسلم المعتدل أخطر من المسلم المتشدد. فهو له المظهر السلمي، لكن احداً لا يعلم متى يتخذ الخطوة التالية باتجاه رأس السلم. فمعظم الذين نفذوا عمليات انتحارية بدأوا كمعتدلين.

في اليوم الذي وضع فيه والدي قدمه على الدرجة الاولى من السلم، ربما لم يكن يتصور كم سيبتعد عن مثله العليا الاصيلة. والآن بعد خمسة وعشرين عاما، أرغب بتوجيه سؤال اليه: «هل تذكر من اين بدأت؟». انت عايشت الناس

المغلوبين على أمرهم، وكان قلبك يعتصر ألماً عليهم. وكنت تريدهم ان يرجعوا الى سبل الله فيكونوا محفوظين، لا ان يكونوا كما هم اليوم، انتحاريين وسافكي دماءٍ بريئة. هل هذا ما قصدت ان تفعله؟ لكن ثقافتنا الشرقية لا تسمح للابن ان يدخل في نقاش كهذا مع أبيه. وخلال السنين الماضية، لم يلاحظ والدي كيف ان الدرب الذي اختاره، قد انحرف به عن المثل العليا الاصيلة التي كانت لديه.

الفصل الثالث

حماس

١٩٧٧ - ١٩٨٦

عاد والديٍ الى الأراضي المحتلة بعدما أنهى دراساته في الأردن. وكان مشحوناً تفاؤلاً ورجاءً لأجل المسلمين في كل مكان، اذ قد تراءى له المستقبل المشرق الذي سيجلبه الظهور المعتدل للأخوان المسلمين. وقد اصطحب والدي معه شخصاً يدعى ابراهيم أبو سالم، أحد مؤسسي حركة الأخوان المسلمين في الأردن، الذي كان يسعى لبث روح الحياة من جديد في الجسد الواهن لهذه الحركة في فلسطين. التفاهم بين أبو سالم ووالدي كان جلياً، فعملا معاً على تجنيد الشباب الراغبين، وتعليمهم مبادىء الحركة، وتشكيلهم في مجموعات عمل صغيرة.

في العام ١٩٧٧ تزوج والدي حسن من صبحة أبو سالم، أخت ابراهيم، ولم يكن في متناول يده سوى نحو خمسين ديناراً. في العام التالي ولدت أنا.

انتقلت عائلتي الى مدينة البيرة المجاورة لرام الله، وأنا بعد في السابعة من العمر. هناك عمل والدي إماماً لمخيم العامري للاجئين، المبني على أطراف مدينة البيرة. كانت الضفة الغربية تضم تسعة عشر مخيماً. وقد بني مخيم العامري في العام ١٩٤٩، على مساحة اثنين وعشرين فداناً. وفي العام ١٩٥٧ تم استبدال خيم

اللاجئين ببيوت اسمنتية متلاصقة ومتراصة. شوارع المخيم كانت بالكاد تتسع لمرور سيارة، وكانت تفيض فيها مياه المجارير الآسنة والقاذورات. كان المخيم مزدحماً جداً، ومياهه غير صالحة للشرب. ولم يكن فيه الا شجرة واحدة منتصبة في الوسط. وكان اللاجئون يعتمدون بالكلّية على منظمة الأمم المتحدة، لتمدهم بالغذاء والملبس والمأوى والعناية الصحية والتعليم.

اعترت والدي خيبة أمل كبيرة حين دخل مسجد المخيم للمرة الأولى، حيث لم يجد سوى صفّين من المصلّين لا يزيد عددهم عن الأربعين. لكن الوضع تغير في الأشهر القليلة التالية، اذ فعلت عظاته فعلها في النفوس، فأصبح المكان يعجّ بالمصلين حتى الى الشارع المجاور. والدي لم يكن مكرساً نفسه لله فقط، ولكن قلبه كان مملوءاً محبةً وعطفاً لرعاياه المسلمين. وقد بادله هؤلاء بمثل محبته وعطفه.

حسن يوسف كان رجلا محبوباً من الجميع، لأنه عاش مثل الجميع. لم يعتبر نفسه أرفع شأناً من هؤلاء الذين يخدمهم، بل عاش مثلهم، أكل مثلهم وصلى مثلهم. لم يكن والدي يرتدي ثياباً فاخرة ً. وكان مرتّبه من الحكومة الأردنية لا يكاد يكفي لصيانة المواقع الدينية، وسداد احتياجاته الشخصية. وفي عطلته الاسبوعية كل يوم اثنين، لم يكن يتوقف عن عمل الخدمة، لأنه لم يكن يعمل من أجل المرتّب، بل كان يعتبر واجبه مقدساً، وكان هدف حياته ان يعيش في رضى الله.

في أيلول العام ١٩٨٧ حصل والدي على وظيفة ثانية، كمدرّس لمادة الدين في أفضل المدارس الخاصة بالضفة الغربية. وقد حرمتنا مشغولياته الكثيرة من رؤيته بشكل مستمر. فهو كان يحب عائلته جداً، ولكنه كان يحب الله أكثر. ولم نكن نعلم في ذلك الوقت ان أياماً ستأتي علينا، وسنحرم من رؤيته تماماً.

تحملت والدتي عبء تربيتنا وحدها بسبب مشغوليات أبي. فعلمتنا كيف نعيش كمسلمين صالحين، وعند بلوغنا سن الرشد كانت توقظنا كل صباح لتأدية صلاة الفجر، كما شجعتنا على صيام شهر رمضان المقدس.

كنا ستة أولاد: أخوتي صهيب وسيف وأويس، وأختاي سبيلا وتسنيم، وأنا. وعلى رغم تقاضي والدي مرتّبين شهرياً، الا اننا بالكاد استطعنا تأمين احتياجاتنا. وكانت أمي تحاول جاهدة ً عدم انفاق أي دينار الا عند الضرورة القصوى.

كانت أختاي سبيلا وتسنيم تساعدان والدتي في الأعمال المنزلية منذ نعومة

أظفارهما. وكانتا على لطف وأدب وجمال جم، فلم تعرفا التذمر يوماً، على رغم افتقادهما أوقات التسلية واللعب. وقد أصبحت أواني المطبخ وسائلهما للترفيه، بدل ألعابهما التي علاها الغبار.

كثيراً ما طلبت أمي من سبيلا التوقف عن العمل، وأخذ قسط من الراحة لسبب ارهاقها الشديد. لكن سبيلا كانت تواصل العمل دون ان تفارق وجهها ابتسامة مشعة. أما أنا وأخي صهيب، فقد تعلمنا منذ الصغر كيفية اشعال النار واستعمال الفرن، وقد ساهمنا في أعمال الطبخ وغسل الأواني، بالاضافة الى العناية والاهتمام بأخينا الطفل أويس.

تسليتنا العائلية المفضلة كانت «النجوم». فكانت أمي تكتب أسماءنا على ورقة، ونتحلق حولها كل مساء لنرى من سيفوز بالنجمة، بناءً على سلوكه الطيب أثناء النهار. في نهاية الشهر، يكون الفائز مَن حصل على أكبر عدد من النجوم. وغالباً ما كانت سبيلا أوفرنا حظاً. وبالطبع، لم تكن الجائزة مالاً نحصل عليه، ولكنها في كل الأحوال كانت تعني لنا الكثير. فالنجوم بالنسبة لنا كانت تعني حصولنا على تقدير أمنا واكرامها لنا. وقد كنا ننتظر بفارغ الصبر الحصول على نجمة، لنتمتع في تلك اللحظة بقليل من المجد.

مسجد علي كان يبعد حوالي نصف ميل عن منزلنا. وكنت فخوراً جداً بأن أقصده وحدي يومياً. كانت لدي رغبة شديدة بأن أتمثل بوالدي، كما تمثل هو أيضاً بوالده. في الجهة المقابلة للمسجد كانت توجد أضخم ساحة للمدافن شاهدتها في حياتي. فقد كانت خمس مرات أكبر من المخيم الذي كنا نعيش فيه. وكان سكان رام الله والبيرة ومخيمات اللاجئين يدفنون فيها موتاهم.

كنت أقصد المسجد للصلاة خمس مرات في اليوم، عند سماع صوت الآذان. وكنت أجتاز بالقرب من المدافن ذهاباً وأياباً. وكصبي صغير، كان المكان مصدر رعب لي يفوق التصور، وخاصة ً في ساعات الليل الحالك. ولم تكن تفارق مخيلتي صور الأشجار وهي تتغذى بجذورها على جثث الموتى المدفونين تحتها، كما كنت أظن.

في أحد الأيام، بعد سماعي صوت المؤذن يدعو للصلاة، توضأت، ورششت قليلاً من العطر، ولبست ثياباً انيقة كما كان يفعل والدي، وتوجهت الى المسجد. كان يوماً جميلاً. وقبل وصولي الى المكان لاحظت وجود عدد كبير من السيارات

على غير عادة. ورأيت مجموعة من الرجال تقف عند باب المسجد. خلعت حذائي كالعادة ودخلت. واذا بي أمام جثة رجل ملفوفة بالكتان الأبيض، موضوعة في صندوق مفتوح. لم أكن قد رأيت جثة من قبل. ومع ذلك، لم أحوّل عينيّ عنها. لقد كانت ملفوفة كلها، ما عدا الوجه. حدّقت كثيراً في الصدر، متوقعاً ان يعود الرجل للتنفس من جديد. وحين دعا الامام الحاضرين للصلاة، تقدمت معهم الى الأمام، رغم أنني لم أتوقف عن اختلاس النظر الى الجثة بين الحين والآخر. وبعد الانتهاء من تلاوة القرآن، طلب الامام احضار الجثة الى الداخل للصلاة عليها. وفي حين رفع ثمانية رجال الكفن على أكتافهم، صرخ أحد الرجال «لا اله الا الله». وبدأ الحاضرون يرددون وراءه لازمة «لا اله الا الله، لا اله الا الله».

انتعلت حذائي بأسرع ما يمكن، وسرت مع الجموع باتجاه المدافن. واذ كنت قصير القامة، اضطررت للجري بين الأرجل للبقاء ضمن المسيرة. لم أكن قد دخلت المدافن من قبل، بسبب الخوف. ولكنني أقنعت نفسي بأنني سأكون الآن في أمان، طالما أنا موجود ضمن مجموعة من الرجال.

حاولت جاهداً ان لا أطأ على الأضرحة، بعد أن سمعت واحداً يصرخ: «الدوس على المقابر حرام». وبحرص شديد لازمت الجموع، حتى وصلنا الى حفرة في الأرض بعمق ثمانية أقدام. واذ حدّقت فيها، رأيت رجلاً شيخاً يقف عند أسفلها، وعرفت من الجموع أن اسمه «جمعة». فيما بعد، عرفت أن «جمعة» لم يزر المسجد أبداً في حياته، وأنه لا يؤمن باله القرآن، ولكنه يقوم بدفن جميع الموتى، ويعمل هذا أحياناً مرتين او ثلاثاً في اليوم الواحد. فكنت اتساءل في نفسي ما اذا كان «جمعة» لا يخاف الموت على الاطلاق.

بعد أن دلّى الرجال الجثة بين يدي «جمعة» القويتين، ناولوه زجاجة عطور ومواد خضراء ذات روائح طيبة، ففتحها وسكبها جميعاً على جثة الميت. أدار «جمعة» الجثة الى جانبها الأيمن، لناحية مكة، ثم بنى حولها جداراً من الحجارة الأسمنتية. بعد ذلك، بدأ أربعة رجال يلقون التراب برفوشهم الى داخل القبر. في هذه الأثناء، بدأ الامام بالوعظ فقال: «لقد رحل هذا الرجل. وها ان التراب ينهال عليه ويغطي جسده بالتمام. وقد ترك كل شيء خلفه. ماله وبيته وأبناءه وبناته وزوجته. وهذا هو مصيرنا كلنا». فكان يحرّض الجموع على التوبة وتجنب الاثم. ثم قال شيئاً لم أكن قد سمعته من والدي أبداً. قال: «ان نفس هذا الرجل

ستعود اليه قريباً، وسينزل ملاكان مرعبان من السماء لامتحانه، هما ناكر ونكير. وسيمسكه الملاكان ويهزّانه بقوة ويسألانه: من هو الهك؟ فان أخطأ الجواب سيضربانه بمطرقة عظيمة، ثم يرسلاه الى الأرض لمدة سبعين عاماً. اللهم نسألك اعطاءنا الأجوبة الصحيحة في ذلك اليوم».

نظرت الى القبر المفتوح مرتعباً. لقد أصبحت الجثة مغطاة بالتراب كلها تقريباً. وتساءلت، كم من الوقت سيمضي قبل ان يبدأ الملاكان التحقيق مع هذا الشخص؟ وتابع الامام: «واذا لم تكن أجوبته مرضية، سيسحق التراب المتراكم ضلوعه، وسيأكل الدود لحمة ببطء، وسيعذب جسده ثعبان بتسعة وتسعين رأساً، وعقرب بحجم رقبة جمل. وسيبقى على هذه الحال الى يوم القيامة، او حتى يحظى برحمة الله وغفرانه».

لم أصدق ان ما رأيته اليوم كان يحدث كل يوم بالقرب من منزلنا، في كل مرة يُدفن فيها شخص ما. كانت المدافن تشعرني بالكآبة. أما اليوم، وبعد أن رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت، فقد ازداد خوفي واضطرابي. فقررت أن أحفظ الاجابات الصحيحة جيداً، حتى اذا ما وافتني المنيّة يوماً، أكون مستعداً للامتحان العسير. أما الامام، فقد ختم عظته بالقول ان امتحان هذا الرجل المتوفي لن يبدأ قبل مغادرة آخر الحاضرين المكان.

ذهبت الى المنزل، ولكنني لم أستطع تجاهل أو نسيان ما سمعته. فقررت العودة الى المدافن، لأستمع الى صوت التعذيب. تجوّلت في الحي، علّني أقنع أحداً من أصحابي، فيرافقني. لكنهم رفضوا، وظنّوا ان مسّاً من الجنون قد أصابني. فاضطررت للذهاب وحدي. وعلى طول الطريق، كاد الخوف يزعزع كياني، ولم أتمكن من السيطرة عليه. وبعد لحظات، وجدتني أقف وسط محيط من الأضرحة. أردت الهرب، الا أن حب الاستطلاع جعلني أتغلّب على مخاوفي. حاولت الانصات، علني أسمع سؤالاً او صراخاً او اي شيء. ولكن بلا جدوى. اقتربت أكثر فأكثر من الضريح حتى لامسته أذني، فلم يكن الا الصمت. بعد ساعة من الزمن شعرت بالملل، فعدت أدراجي الى المنزل.

كانت أمي منشغلة في أعمال المطبخ، فأخبرتها انني ذهبت الى المدافن اليوم، وسمعت الامام يتحدث عن عذاب القبر. فقالت امي: «ثم...». فقلت: «...ثم عدت الى القبر بعد ان غادر الجميع لعلّي أسمع أصواتاً. لكن شيئاً لم يحدث».

فقالت امي: «عذاب القبر لا يسمعه البشر. الحيوانات فقط يسمعونه». هذا الايضاح كان منطقياً جداً لصبي في الثامنة من العمر. فاقتنعت.

منذ ذلك الحين، أصبحت أشاهد أعمال الدفن في المقبرة كل يوم. وقد اعتدت على ذلك فيما بعد. وجعلني حب الاستطلاع أرغب في معرفة هوية الموتى الذين يدفنون هنا يومياً. البارحة كانت امرأة. اليوم رجل. في أحد الأيام أحضروا جثتين. وبعدها بساعتين أحضروا جثة أخرى. وفي الوقت الذي لم تكن فيه أعمال دفن، كنت أتمشى بين الأضرحة لأقرأ اللوحات المحفورة عليها. هذا مات منذ مئة عام. هذا منذ خمسة وعشرين. هذا اسمه كذا. هذا من بلدة كذا. أصبحت المدافن ملعبي المفضل.

في بادىء الأمر، كان أصدقائي يخافون القبور مثلي. ولكننا اذ كنا نتحدّى بعضنا بعضاً في مَن يجرؤ على عبور أسوار المدافن ليلاً، تغلّبنا على مخاوفنا وعبرنا، لئلا يقال عنا اننا جبناء. وفيما بعد، صارت المساحات الخالية في المدافن ملعبنا لكرة القدم.

كما كانت عائلتنا تنمو وتزداد عدداً، كذلك كان الأخوان المسلمون. فالمنظمة التي كانت تضم الفقراء واللاجئين عند تأسيسها، أصبحت قبلة المثقفين من الشباب والشابات ورجال الاعمال وذوي الاختصاص، الذين كانوا يتبرعون بسخاء لبناء المدارس والمستوصفات ودعم المؤسسات الخيرية. واذ رأى شباب الأخوان المسلمين نمو حركتهم، ولا سيما في قطاع غزة، أصرّوا على ان تأخذ المنظمة موقفاً متشدداً من الاحتلال الاسرائيلي. وكانوا يقولون، اننا نعتني بحاجات مجتمعنا، وسنستمر على هذا الأمر. ولكن هل نقبل ببقاء الاحتلال الى الأبد؟ ألا يأمرنا القرآن بطرد اليهود الغزاة؟ لم يكن هؤلاء الشباب مسلحين، ولكنهم كانوا أشدّاء ومستعدين للقتال من أجل مبادئهم.

والدي، والقادة الآخرون في الضفة الغربية، لم يوافقوا قادة غزة الرأي. وبرأيهم، لم يكن تكرار الأخطاء التي قام بها الأخوان المسلمون في مصر وسوريا عملاً حكيماً، حيث فشلوا في قلب أنظمة الحكم بالقوة. واعتبروا ان سياسة المنظمة في الأردن مثال يُقتدى به. فالأخوان المسلمون لم يستخدموا العنف هناك، وقد شاركوا في الانتخابات، وكان لهم تأثير واضح وقوي في المجتمع. لم يعارض والدي استخدام العنف، ولكنه لم يكن يظن ايضاً أن شعبه قادر على مواجهة

الجيش الاسرائيلي والتغلب عليه.

النقاش بين مؤيدي نهج الاعتدال وأصحاب نهج المواجهة المسلحة، استمر لسنوات عدة، كانت تزداد خلالها قناعة الأكثرية بضرورة المواجهة مع اسرائيل. من بين المسؤولين في حركة الأخوان المسلمين، برز شخص يدعى فتحي الشقاقي، كان خائباً من عدم اتخاذ المنظمة قراراً بمواجهة اسرائيل. فانفصل عنها، وأنشأ حركة الجهاد الاسلامي في العام ١٩٧٠. وعلى رغم هذا، فقد نجحت حركة الأخوان المسلمين في تجنب قرار المواجهة مع اسرائيل لسنوات عشر تالية.

في العام ١٩٨٦، تم ترتيب اجتماع سري في مدينة الخليل، جنوب بيت لحم. كان والدي أحد الحاضرين، ولكنه لم يطلعني على هذ الأمر الا بعد سنوات عدة. وعلى عكس ما هو متداول من مغالطات تاريخية، فان الرجال السبعة الذين حضروا هذا الاجتماع هم:

الشيخ المقعد أحمد ياسين، الذي أصبح المرشد الروحي للمنظمة الجديدة.

محمد جمال النتشة، من الخليل.

جمال منصور، من نابلس.

الشيخ حسن يوسف، والدي.

محمود مصلح، من رام الله.

جميل حمامي، من القدس.

أيمن أبو طه، من غزة.

هؤلاء السبعة اتفقوا أخيراً على اتخاذ قرار المواجهة مع اسرائيل. فقرروا بدء عملهم من خلال عصيان مدني بسيط، يتخلله رشق حجارة واشعال اطارات مطاطية. كان هدفهم ايقاظ الشعب الفلسطيني وتوحيده واستنفاره، ليفهم حاجته الى الاستقلال تحت راية الله والاسلام.

ولدت حركة حماس.

وتسلق أبي درجات عديدة اضافية نحو القمة في سلم الاسلام.

الفصل الرابع

رشق الحجارة

١٩٨٧ ـ ١٩٨٩

انتظرت حماس حصول حدث ما، مهما يكن، لتبرر اشعال انتفاضة كانت تريدها ان تندلع. في كانون الأول عام ١٩٨٧ كان لها ما أرادت، على رغم ان ما حصل كان نتيجة سوء فهم أدى الى مأساة رهيبة. ففي غزة، لقي بائع الأواني البلاستيكية الاسرائيلي شلومو ساكال حتفه طعناً بالسكاكين. بعد أيام عدة، لقي أربعة فلسطينين من مخيم جباليا في غزة حتفهم بحادث سيارة. وعلى الأثر، انتشرت الشائعات في المخيم بأن الجنود الاسرائيليين قتلوا هؤلاء الفلسطينيين، انتقاماً لمقتل ساكال، فنزل الناس الى الشوارع للتعبير عن غضبهم. واذ قام شاب فلسطيني في السابعة عشرة من عمره برمي قنبلة مولوتوف، أطلق جندي اسرائيلي النار عليه، فأصابه في مقتل. ومع انتشار الخبر، اندلعت تظاهرات ضخمة في كل من غزة والضفة الغربية. وتولى قادة حماس تأجيج النار في صدور المتظاهرين لمقاتلة اسرائيل، في أسلوب جديد لم يكن يعرف سابقاً. فبدأ الأولاد برمي الحجارة على الدبابات الاسرائيلية، وانتشرت صورهم في الأسبوع نفسه على أغلفة كافة المجلات العالمية.

هذه كانت بداية الانتفاضة الفلسطينية الأولى. وهكذا شغلت القضية الفلسطينية حيّزاً هاماً في كافة نشرات الأخبار العالمية. ومع بدء الانتفاضة، كل شيء تغيّر في ملعبنا–المدافن. فعلى غير العادة، صار عدد الجثث التي تدفن هناك يزداد كل يوم. ولم يعد يُعرَف ما اذا كانت مشاعر الغضب او العنف او الحزن هي التي تلهب الصدور. أظن ان مزيجاً منها كلها أصاب الجميع. فبدأت حشود الفلسطينيين ترشق سيارات اليهود بالحجارة، بينما كان هؤلاء يحاولون العبور من محيط المدافن باتجاه المستوطنة التي تبعد حوالي ميل واحد. وصار المستوطنون الاسرائيليون المسلحون جيداً يقتلون الفلسطينيين كيفما شاؤوا. وعندما كانت تحضر وحدات جيش الدفاع الاسرائيلي الى المكان، كان اطلاق النار يزداد، وعدد الجرحى يزداد، وجموع القتلى تزداد.

منزلنا كان يقع تماماً وسط منطقة النزاع والفوضى. وكم مرة تعرضت خزانات المياه على سطح بيتنا للتمزق بفعل رصاص الجنود الاسرائيليين. وأنا في العاشرة، كنت أشاهد الجثث المقنعة للفدائيين، او المقاتلين الأحرار، يؤتى بها لتدفن في المقبرة التي لم تعد حكراً على المسنين. كان يتم دفن الشهداء للحال. ومرات كثيرة لم يكن يتم غسل الجثث او الأشلاء من الدماء المضرجة بها، او تكفينها بما يليق. كان يُخشى أن يستولي أحد ما على جثة ليسرق أعضاءها، قبل أن يعيدها ملفوفة بقطعة من القماش.

مع مرور الأيام اعتدنا على أعمال العنف، بحيث كنت أشعر بالملل عندما يعم الهدوء المنطقة، في أوقات نادرة. وبدأت اشترك مع اصدقائي برمي الحجارة أيضاً، بهدف اشعال الوضع، ورغبة في الحصول على التبجيل الواجب لي كمقاتل في صفوف المقاومة. كان بامكاننا مشاهدة المستوطنة الاسرائيلية القريبة من المدافن، منتصبة على رأس الجبل، ومحاطة بسور عال وأبراج حراسة. كنت أتعجب من السكان الخمسمئة الذين يعيشون هناك، يقودون سيارات جديدة، وهم مسلحون بأكثريتهم. كانوا يحملون أسلحة أوتوماتيكية، ويبدو انه كانت لديهم الحرية لاطلاق النار على من يشاؤون. لصبي في العاشرة من العمر، بدا لي هؤلاء وكأنهم مخلوقات غريبة تتحدّر من كوكب آخر.

في احدى الأمسيات قبل صلاة المغيب، قررت وأصدقاء لي ان نختبىء على جانب الطريق، بهدف التعرض لباص المستوطنين الذي يعبر من هناك، لكونه كبير

الحجم فتسهل اصابته. كنا نعلم بمرور الباص في نفس الساعة كل يوم. وفيما نحن منتظرون، علا صوت المؤذن عبر المكبر: «هيّا على الصلاة». ولما سمعنا اخيراً صوت محرك الديزل يجعجع من بعيد، تناول كل منا حجرين. واذ كانت رؤية الشارع متعذرة من موقعنا، اعتمدنا على صوت ضجيج الباص لمعاينة مكانه. وفي اللحظة المناسبة، قفزنا بسرعة وأطلقنا وابل ذخيرتنا باتجاه الباص، متأكدين من اصابته لسبب أصوات ارتطام الحجارة على الهيكل الحديدي. ولدهشتنا، لم يكن الباص ما أصبناه. لقد كانت آلية عسكرية اسرائيلية مشحونة بالجنود الغاضبين. وبسرعة البرق، عدنا الى مخبئنا برؤوس وأجساد منحنية، قبل ان تتوقف الآلية العسكرية تماماً. لم نستطع رؤية الجنود، كما انهم لم يتمكنوا من رؤيتنا. فبدأوا باطلاق النار عشوائياً في الهواء لمدة تقارب الدقيقتين. أما نحن، فتسللنا بحذر شديد باتجاه المسجد القريب.

كانت الصلاة قد بدأت حين دخلنا. ولا أظن ان أحداً أعارنا أي انتباه. فالجميع كانوا ينصتون الى وابل الرصاص المنطلق من الاسلحة الاوتوماتيكية خارج المسجد، ويتساءلون فيما بينهم عما يجري. تسللت وأصدقائي الى أحد صفوف المصلين الخلفية، آملين ان لا يشكك أحد بنا. ومع انتهاء الشيخ من امامة المصلين، كانت العيون الغاضبة للجميع تحدق فينا.

في خلال ثوان قليلة، بدأت آليات جيش الدفاع الاسرائيلي تصل الى باحة المسجد، فيما انتشر الجنود في الداخل، مجبرين الجميع على الخروج بالقوة، والانبطاح في مواجهة الارض، مدققين بهوياتهم. واذ خرجت من المسجد آخر الكل، كنت مرتعباً لئلا يكتشف الجنود انني المسبب لكل هذه المتاعب. ظننت أنهم سيضربونني حتى الموت. الا انّ أحداً لم يعرني اي اهتمام. ربما لم يخطر في بالهم ان يجرؤ صبي في مثل عمري على رشق سيارة جيش الدفاع الاسرائيلي بالحجارة. مهما يكن، فلقد كنت سعيداً انهم لم يتعرضوا لي بشيء. استمرت التحقيقات لساعات عدة، وكنت أعلم ان الكثير من الحاضرين كانوا غاضبين عليّ جداً. ربما لم يعرفوا تماماً ما فعلت، ولكنهم لم يشككوا أبداً بكوني وراء ما يجري. لم أهتم. لا بل كنت مزهواً. لقد دخلت ورفاقي في تحدٍ مع الجيش الاسرائيلي المسلح العاتي، وخرجنا سالمين. وما قمنا به شجعنا على القيام بالمزيد، وأشعرنا بالصلابة والثقة في النفس.

ففي يوم آخر، اختبأت وصديق لي الى جانب الطريق، متخذين وضعا افضل من الاول. وعندما اقتربت سيارة احد المستوطنين من المكان، عاجلتها بكل قوتي بحجر اصاب الزجاج الامامي، محدثاً دوياً كانفجار قنبلة. ومن خلال الزجاج الذي لم ينكسر، تمكنت من رؤية امارات الرعب ترتسم على وجه السائق، الذي ما ان تمكن من ايقاف السيارة، حتى عاد بها الى الخلف بسرعة. هربت باتجاه المدافن، فتبعني الرجل يحمل بندقية رشاشة من طراز ام ١٦، أسندها الى السور، وأخذ يجول بعينيه بين الأضرحة باحثاً عني. اما صديقي فقد هرب باتجاه آخر، تاركاً اياي وحيداً في مواجهة مستوطن غاضب ومسلح. واذ استقليت بلا حراك بين الاضرحة، كان الرجل ينتظر فقط ان ارفع رأسي قليلا ليطلق النار. كان الموقف حرجاً ومخيفاً للغاية. واذ لم استطع الاحتمال أكثر، قفزت وجريت بأسرع ما يمكنني. ولحسن الحظ، ساهم الظلام الذي بدأ يخيم على المكان بحمايتي، في ما يبدو ان الرجل كان خائفاً من عبور السور الى داخل المدافن. لكن عدوي لم يدم طويلاً، اذ اختفت الارض من تحت قدميّ فجأةً، ولم أجد نفسي الا في قاع قبر مفتوح، جاهز لاستقبال جثة جديدة. فتساءلت مرتعباً: ترى، هل انا هي؟ وفي تلك اللحظة، أمطر المستوطن المدافن بوابل رصاصاته، فسقطت في قبري بعض شظايا الحجارة المتطايرة من الأضرحة المصابة. وبعد حوالي نصف ساعة من الانتظار المميت، متقوقعاً على ذاتي، سمعت أصوات بعض المارة في المكان، فأيقنت ان المستوطن قد رحل، وأنه بامكاني الآن مغادرة قبري بأمان.

بعد يومين على هذه الحادثة، وفيما كنت أسير في الشارع، اذا بسيارة تعبر بجانبي. فعرفت للحال انها سيارة المستوطن التي استهدفتها وصديقي. كان الرجل نفسه بصحبة آخر. واذ رآني، أوقف السيارة بسرعة وقفز منها باتجاهي لانه عرفني. حاولت الهرب، الا ان حظي كان عاثراً هذه المرة. فأمسكني وبدأ بصفعي على الوجه، ثم جرّني عنوةً الى السيارة. وفي طريقنا الى المستوطنة، لم ينبث أحد منا ببنت شفة. لقد كان الرجلان في غاية الغضب وهما ممسكان بسلاحهما، فيما كانا يختلسان النظر اليّ في المقعد الخلفي بين الحين والآخر. لم أكن ارهابياً في تلك اللحظات. ما كنت سوى صبي صغير يرتعش من الخوف، فيما كان الرجلان يتصرفان كأنهما صيادان عظيمان تمكنا من الامساك بنمر وسجنه في قفص.

عند مدخل المستوطنة، تحقق الحارس من هوية السائق، وأشار اليه بالدخول.

أصابتني الدهشة من عدم تساؤل هذا الحارس عما يفعله صبي فلسطيني صغير مع هذين الرجلين؟ أدركت أن الأمر يحمل على الخوف، وقد كنت خائفاً فعلاً، الا انه لم يكن بيدي الا النظر الى ما حولي. لم أدخل مستوطنة اسرائيلية من قبل. لقد كانت جميلة بشوارعها النظيفة، وبرك السباحة، والمناظر الخلابة للوادي المنبسط عند السفح.

توجه السائق بي الى قاعدة جيش الدفاع الاسرائيلي في المستوطنة، حيث طلب مني الجنود خلع حذائي، والجلوس على الارض. ظننت للوهلة الاولى انهم سيطلقون عليّ النار، ويلقون بجثتي في احد الحقول. ولكن حين خيّم الظلام، طلبوا مني العودة الى المنزل. فاعترضت قائلا: «ولكنني لا أعرف طريق العودة». فقال لي أحد الحاضرين: «ابدأ بالمشي والا سأطلق النار عليك». فقلت: «هل تسمح لي بالحذاء؟» فأجاب: «لا. امش. وعندما ترشق حجراً في المرة المقبلة، سأقتلك».

كان المنزل يبعد حوالي ميل واحد. وقد مشيت المسافة كلها وانا لا انتعل سوى جواربي، فيما كانت اسناني تصطك كصريف الحصى والحجارة التي كانت تنغرز في باطن قدميّ. عندما رأتني أمي آتياً من بعيد، ركضت وضمتني الى صدرها بقوة كادت تقطع انفاسي. لقد أخبروا والدتي بأن المستوطنين الاسرائيليين اختطفوني، فكانت مرتعبة جداً ان يتم قتلي على أيديهم. وفي الطريق الى المنزل، لم تتوقف أمي عن توبيخي بسبب طيشي، كما عن تقبيل رأسي وضمي الى صدرها بشدة.

ربما يظن أحد أنني تعلمت درساً مما جرى، لكنني في الواقع لم أكن سوى صبي صغير أحمق. لم أطق صبراً بانتظار ان أخبر أصدقائي الجبناء عن مغامرتي البطولية. ومع حلول العالم ١٩٨٩، صار أمراً عادياً بالنسبة لنا ان يقرع الجنود الاسرائيليون باب بيتنا بشكل غير متوقع، ويشقوا طريقهم الى الداخل عنوةً، بحثاً عمّن رمى الحجارة عليهم وهرب من حديقة بيتنا الخلفية كما كانوا يظنون. لقد كانوا على الدوام مدججين بالسلاح، ولم أكن أفهم لماذا تصيبهم حجارة قليلة بالخوف والهلع.

خلال الانتفاضة الاولى، كان مستحيلاً على الفلسطينيين الحصول على السلاح، لسبب سيطرة اسرائيل على الحدود. ولا أذكر أنني كنت أرى فلسطينياً

مسلحاً في تلك الفترة. وحدها الحجارة وقنابل المولوتوف المحلية الصنع كانت متوفرة. ومع هذا، لطالما سمعنا قصصاً عن جنود جيش الدفاع الاسرائيلي، كيف كانوا يطلقون النار على جموع الناس العزّل من السلاح، ويضربونهم بالهراوات. أحد التقارير ذكر ان حوالي ثلاثين ألف طفل فلسطيني أصيبوا بجروح بالغة استدعت معالجة طبية جدية. لم أفهم هذا الأمر أو أجد له مبرراً؟

في احدى الليالي، تأخر والدي في العودة من عمله، فجلست قرب النافذة منتظرا متى تدخل سيارته الصغيرة في المنعطف المؤدي الى البيت. وعلى رغم جوعي الشديد، فقد رفضت الحاح أمي عليّ لتناول الطعام مع أشقائي الصغار، مفضلاً انتظار أبي. ولما سمعت صوت ضجيج محرك السيارة القديمة صحت بأعلى صوتي معلنا وصوله الى المنزل. وعلى الفور، بدأت أمي باعداد مائدة العشاء. وبعد الاعتذار عن التأخر، قال والدي: «لقد اضطررت للسفر خارج المدينة لحل مسألة خلافية بين عائلتين. فلماذا لم تتناولوا العشاء؟». وبعد ان خلع ثيابه بسرعة وغسل يديه، جلس الى المائدة وقال مبتسماً: «أنا أتضور جوعاً. لم آكل شيئاً طوال النهار». فهو لم يكن يأكل في المطاعم والأسواق لسبب الضيق المادي. واذ بدأت رائحة الكوسى المحشي الشهية تنتشر في الأجواء، بدأنا بتناول الطعام. في تلك الليلة ملأ كياني احساس غامر تجاه والدي اعجاباً. كان يحب عمله جداً على رغم الارهاق الشديد الذي كان يسببه له، وقد بدا جلياً على وجهه ذلك المساء. وعلى قدر تكريسه لله، كان يظهر عطفاً شديداً للناس الذين كان يخدمهم. وكان أسلوبه في الكلام مع أمي وأخوتي وأخواتي، يظهر كم كان مختلفاً عن بقية الرجال المسلمين. وهو لم يكن يتردد أبداً في مساعدة أمي بأعمال المنزل، والعناية بنا نحن الأطفال. وفي الحقيقة، كان والدي يغسل جواربه كل ليلة على المغسلة، لكي يوفر على والدتي هذا العناء. هذا لم يفعله رجل من قبل، في ثقافة تعتبر غسل المرأة رجلي زوجها بعد يوم طويل امتيازاً.

وفيما نحن حول المائدة، بدأنا، كل بدوره، في سرد أخبارنا على الوالد، ماذا تعلمنا في المدرسة اليوم، وكيف قضينا أوقاتنا خلال النهار. واذ كنت الابن البكر في العائلة، أفسحت المجال لأخوتي للكلام أولاً. عندما حان دوري وبدأت بالكلام، قاطعني طرق على باب منزلنا الخلفي. فتساءلنا من يمكن ان يكون الزائر في هذه الساعة من الليل. لا بد من وجود مشكلة كبيرة عند أحدهم، ويريد

المساعدة. توجهت نحو الباب ونظرت من فتحة المنظار الصغير، ولكنني لم أميز شخصية الرجل. فمع انه كان يلبس لباساً عربياً، لكن شيئا يدعو الى الشك كان بادياً عليه.

«هل أبوك موجود؟» سأل الرجل بلغة فصحى. فأجبته والباب لا يزال مغلقاً: «نعم. انه موجود، دعني أناديه». لكن أبي الواقف خلفي قام بفتح الباب، ليندفع من خلاله عدد من الجنود الاسرائيليين الى الداخل. وفيما المفاجأة لا تزال تطبق علينا، أسرعت أمي الى تغطية رأسها طبقاً للتقاليد الاسلامية. فأن تكون مكشوفة الرأس امام العائلة ليس محرّماً، وانما أمام الغرباء.

«هل انت الشيخ حسن؟» سأل الرجل الغريب. فاجاب والدي: «نعم، انا الشيخ حسن». فعرّف الرجل بنفسه على انه النقيب شائي، ومدّ يده مصافحاً. «كيف حالك؟» سأل الجندي بلطف، «كيف الامور؟ نحن من جيش الدفاع الاسرائيلي، ونريدك ان تأتي معنا لخمس دقائق». تساءلت في نفسي عما يريدون من والدي في هذا الوقت، ثم نظرت اليه علّني أستطيع قراءة الجواب من تعبيرات وجهه. فابتسم والدي للرجل وقال بلا تردد او غضب: «نعم، سأذهب معكم». ثم توجه نحو الباب وهو ينظر الى وجه أمي ويهز برأسه. نظر الجندي اليّ وقال: «انتظر هنا في المنزل، ووالدك سيعود عاجلاً». الا انني تبعتهم الى الخارج، محاولاً استكشاف ما اذا كان هناك جنود آخرون يحيطون بالمنزل. لم أجد أحداً. فجلست على عتبة البيت منتظراً عودة والدي. مضت عشر دقائق، ساعة، ساعتان، وهو لم يعد.

على رغم مشغوليات أبي الكثيرة، الا انه لم يبت ولا مرة واحدة خارج المنزل. لقد كان يوقظنا كل صباح لأداء صلاة الفجر، وكان يأخذنا الى المدرسة كل يوم. فماذا نفعل اذا لم يعد الليلة؟ عندما دخلت الى البيت، وجدت أختي تسنيم نائمة على الكنبة، ولا يزال خدّاها مبللين بالدموع. وفيما حاولت أمي اشغال نفسها في المطبخ، كان القلق والاضطراب يساوراها شيئاً فشيئاً، مع مرور الساعات.

في اليوم التالي، توجهنا الى مركز الصليب الأحمر علّنا نحصل على معلومات حول اختفاء والدي. فأكد لنا الرجل الجالس خلف مكتبه انه قيد التوقيف، وان جيش الدفاع الاسرائيلي لن يعطي اية معلومات للصليب الأحمر قبل مرور ثمانية عشر يوماً على الاقل. عدنا الى المنزل لنعدّ الساعات والأيام بانتظار الحصول على

المعلومات. بعد انقضاء المهلة قصدت مركز الصليب الأحمر لأرى ان كان هناك من جديد، فكان جواب الموظف بالنفي. واذ حاولت جاهداً منع دموعي من الانحدار على خديّ، قلت له: «ولكنك قلت ثمانية عشر يوماً. قل لي فقط أين يوجد أبي». فأجاب: «عد الى المنزل يا بني، وتعال مجدداً في الأسبوع المقبل». تكررت زياراتي للمكتب لمدة أربعين يوماً، وفي كل مرة كنت أحصل على الجواب نفسه: لا معلومات. عد في الأسبوع المقبل. كان الأمر غير عادي بالنسبة لنا. فمعظم أفراد العائلات الفلسطينية كانوا يعرفون مكان احتجاز احبائهم، في غضون أسبوعين من فترة اعتقالهم. وفي كل مرة كان يتم اطلاق سراح أحد السجناء، كنا نصر على سؤاله ان كان قد رأى والدي. كان الجميع يعلمون انه معتقل، ولكنهم لا يعلمون أكثر. حتى المحامي الذي أوكلناه بالقضية، لم يكن يعرف شيئاً لأنه لم يكن مسموحاً له بزيارته.

بعد فترة من الزمن علمنا ان والدي موجود في مركز تحقيق اسرائيلي، وانه تعرض للتعذيب والاستجواب. كان عناصر جهاز الشين بيت، وهو جهاز الأمن القومي الاسرائيلي، يعلمون تماماً انه من القادة الكبار لحماس، وكانوا يفترضون انه يعرف كل اسرار الحركة ومخططاتها، فحاولوا الحصول منه على كل المعلومات.

ما جرى مع والدي في تلك التجربة، لم يخبرني به الا بعد سنوات. لقد دلّوه من السقف وهو مقيّد اليدين لعدة أيام، وصعقوا جسده بصدمات كهربائية حتى غاب عن الوعي. كما انهم وضعوه في غرف مشتركة مع عملاء يعرفون باسم «طيور»، أملاً بأن يخبرهم ما يريدون معرفته. وعندما فشلوا، لجأوا الى الضرب مرات عديدة. الا ان والدي كان صامداً، وحافظ على صمته، ولم يدل للاسرائيليين بأي معلومة يمكن ان تؤذي حماس او أخوانه فيها.

الفصل الخامس

البقاء على قيد الحياة

١٩٨٩

الفترة التي كان والدي مسجوناً فيها خلال الانتفاضة الأولى، شهدت ازدياداً حاداً في أعمال العنف، على رغم ظن الاسرائيليين ان اعتقال واحد من زعماء حماس، سيؤدي الى تحسن الوضع الأمني. في أواخر العام ١٩٨٩ برز شخص يدعى «عامر أبو سرحان» من إحدى قرى رام الله، روّعته رؤية الفلسطينيين يُقتلون بلا حساب. واذ لم يكن السلاح متوفراً بيد أحد في تلك الأيام، هاجم أبو سرحان ثلاثة اسرائيليين وقتلهم طعناً بالسكين، بهدف اشعال ثورة. هذا الحدث كان الشرارة التي أججت الوضع الأمني، وصعّدت أعمال العنف الى مستويات لم تصلها من قبل.

أصبح أبو سرحان بطلاً في نظر العائلات الفلسطينية الثكلى، وكل المفجوعين بأحبائهم وأصدقائهم، كما بنظر جميع الذين صودرت أراضيهم، والذين لديهم ألف سبب وسبب للثأر من الاسرائيليين. لم يكن هؤلاء ارهابيين بطبيعتهم، انما كانوا اشخاصاً عاديين فقدوا كل أمل، ولم يكن لديهم خيار آخر غير ما يفعلون. فما عاد لديهم ما يخسرونه، ولم يأبهوا لرأي العالم فيهم، وحتى حياتهم لم تعد

تعني لهم شيئاً.

الذهاب الى المدرسة في تلك الأيام كان مشكلة حقيقية لنا نحن الأولاد. فلم يعد غريباً علينا ان نخرج منها، لنرى سيارات الجيب العسكرية الاسرائيلية تجوب الشوارع صعوداً ونزولاً، تعلن حظراً للتجول من خلال مكبرات الصوت. كان الجنود الاسرائيليون يتعاملون مع الأمر بجدية فائقة. لم يكن حظر التجول عندنا شبيهاً بما يحصل في المدن الاميركية، حيث تتصل السلطات بولي أمر المراهق، الذي يضبط وهو يقود سيارة بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً. ففي فلسطين، عندما يُعلن حظرٌ للتجول، يطلق الجنود النار حالاً اذا صودف وجود أحد في الشارع لسبب ما. لا تحذير، ولا اعتقال. انهم فقط يطلقون عليك النار.

المرة الأولى التي أعلن فيها حظر للتجول، كنت في المدرسة. فلم أعرف ماذا عليّ ان أفعل. كان المنزل يبعد حوالي أربعة أميال، ما يعني استحالة وصولي الى البيت قبل ان يبدأ مفعول الحظر. واذ بدأ الناس يختفون من الشوارع، تسلل الخوف الى قلبي بكامل عدّته. لم يكن بالامكان البقاء حيث أنا. ومع أنني ولد صغير كل همه الوصول الى منزله، كنت أعلم ان الجنود الاسرائيليين سيطلقون عليّ النار اذا لمحوني في الشارع، كما حصل لأطفال فلسطينيين كثر من قبل. فبدأت اتنقل من منزل الى آخر على طريقة التسلل، وأزحف على بطني في الممرّات الخلفية للمنازل، كما حاولت الاستتار خلف الشجيرات المزروعة على طول الطريق، وتجنب نباح الكلاب والرجال الملثمين على قدر الامكان. وعندما وصلت الى مفترق الطريق لمنزلنا بعد طول عناء، فاض قلبي بالشكر لرؤية أخوتي وقد وصلوا سالمين الى البيت.

حظر التجول كان من المتغيرات التي اعتدناها كنتيجة للانتفاضة. فقد كنا نتوقع دائماً دخول أحد المقنعين الى المدرسة، والطلب من الجميع المغادرة الى منازلهم، لان اضراباً قد تقرر القيام به. الاضرابات التي كانت تقررها واحدة من الفصائل الفلسطينية، كانت تهدف الى ضرب الاقتصاد الاسرائيلي، عن طريق تقليل دخل الحكومة من ضرائب مبيعات المحالّ التجارية. فالأسواق المغلقة تعني مبيعات أقل وضرائب أقل للحكومة. لكن الاسرائيليين لم يكونوا أغبياء. فبدأوا بتوقيف أصحاب المحال التجارية بتهمة التهرب من دفع الضرائب. ولكم ان تتخيلوا من كان الضحية الحقيقية لتلك الاضرابات. وفوق هذا كله، كانت منظمات

المقاومة المتنوعة تتصارع مع بعضها البعض باستمرار من اجل السيطرة والنفوذ، كأطفال يتقاذفون كرة بأقدامهم. ومع هذا، فقد كانت حركة حماس تزداد نمواً وقوة بشكل ثابت، وبدأت تشكل منافساً حقيقياً لمنظمة التحرير الفلسطينية.

تأسست منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ كممثلة عن الشعب الفلسطيني. وكانت تتألف من ثلاث جبهات:

فتح، وهي مجموعة قومية علمانية.

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، يسارية.

الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وهي ايضاً يسارية.

طالبت منظمة التحرير الفلسطينية اسرائيل باعادة أراضي الفلسطينيين التي تمت مصادرتها قبل العام ١٩٤٨، وكذلك بمنح الفلسطينين حقهم بتقرير مصيرهم. ولهذه الغاية، جرّدت المنظمة حملة عالمية، وأقامت شبكة علاقات دولية، كما انها شنت حرب عصابات وقامت بأعمال ارهابية إستهدفت مدنيين وغير مدنيين، انطلاقاً من قاعدتها في الأردن، ثم من لبنان وتونس.

وعلى عكس حركتي حماس والجهاد الاسلامي، لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية اسلامية الطابع. فقد كانت أكثر مجموعاتها من القوميين الذين لم يمارسوا الفرائض الاسلامية اطلاقاً. وفي الحقيقة، كان أكثر هؤلاء ملحدين في الأصل. ومع أنني كنت صبياً صغيراً، فقد كنت أرى في منظمة التحرير هيئة فاسدة، لا تعمل الا لخدمة مصالحها الشخصية. فقد كان زعماؤها يرسلون اشخاصاً، أكثرهم من المراهقين، للقيام بهجمات ارهابية مرة او مرتين في السنة، من أجل تبرير حصولهم على الدعم المالي، بحجة مقاومة اسرائيل. الفدائيون الشباب لم يكونوا أكثر من مجرد وقود لاشعال نار الغضب والكراهية، ولابقاء سيل التقدمات المالية متدفقاً في حسابات المصارف الشخصية لقادة منظمة التحرير.

في السنوات المبكرة للانتفاضة، شكلت الاختلافات العقائدية لكل من حركة حماس ومنظمة التحرير مسارات متناقضة باعدت جداً بينهما. كانت الغيرة الدينية ومبدأ الجهاد يحركان حركة حماس، بينما كانت القومية وايديولوجية القوة تحركان منظمة التحرير. وكان اذا دعت حماس الى الاضراب، وهددت الذين لا يمتثلون باحراق محالهم التجارية ان هم فتحوها، تلجأ منظمة التحرير في الشارع المقابل الى تهديد أصحاب المحال نفسها باحراقها، ان هم أغلقوها.

أمر واحد كان يشكل قاسماً مشتركاً بين المنظمتين، هو كراهيتهما الشديدة لما يطلقان عليه « الكيان الصهيوني » . ومع هذا، فقد اتفقت المنظمتان أخيراً على ان تدعو حماس الى الاضراب في التاسع من كل شهر، وان يكون اضراب الاول من الشهر بدعوة من فتح، كبرى جماعات منظمة التحرير. وفي كل مرة تتم الدعوة الى الاضراب، كانت الحياة تتوقف. الدراسة، التجارة، السيارات وكل شيء. لم يكن احد يعمل او ينتج او يتعلم. كانت الضفة الغربية تغلق بكاملها، فيما المقنعون يتظاهرون ويشعلون الاطارات ويكتبون الشعارات على الجدران ويجبرون أصحاب المحال التجارية على الاغلاق. كان بامكان أي شخص ان يتقنّع ويدّعي بأنه من عناصر منظمة التحرير. ولكن أحداً لم يكن يعلم حقاً هوية هؤلاء المتخفين وراء الأقنعة. كان كل واحد يتصرف بحسب دوافعه وأهدافه الخاصة، او رغبة في الانتقام الشخصي. واذا أردنا ان نصف تلك المرحلة بكلمة، لن نجد الا واحدة: الفوضى.

استغلت اسرائيل هذا التشويش، فدفعت برجالها الأمنيين المقنعين بين صفوف المتظاهرين. وفي وضح النهار، كان هؤلاء يدخلون المدن الفلسطينية، ومن خلف قناع الفدائيين، كانوا يقومون بعمليات أمنية مذهلة. ولكونهم غير معروفين بالوجه، ولا يمكن لأحد التأكد من حقيقة هوياتهم، كان الجميع ينفذون أوامرهم، تجنباً لعقاب الضرب او احراق محالهم التجارية، او اتهامهم بالعمالة لاسرائيل، وهي تهمة تودي بصاحبها الى حبل المشنقة في أغلب الأحيان.

مع مرور الأيام، أصبحت الفوضى وما رافقها من تشويش أمرا غبياً وسخيفاً. مرة او مرتين على الأقل، تمكنت مع اصدقائي من الغاء امتحانات مدرسية مقررة مسبقاً، عن طريق اقناع الطلبة الأكبر سناً بدخول المدرسة بلباس المقنعين، والاعلان عن ان اضراباً سيحصل في ذلك اليوم. كنا نظن ان ذلك ممتع. باختصار، لقد صرنا ألدّ أعداء نفوسنا.

تلك السنين كانت صعبة بشكل خاص على عائلتنا. فأبي كان مسجوناً، والاضرابات المتلاحقة عطّلت علينا الدراسة لمدة عام كامل تقريباً. ويبدو أن أعمامي والقادة الدينيين وكثيرين غيرهم، قرروا ان يأخذوا على عاتقهم مسألة تربيتي. ولأنني الابن البكر للشيخ حسن يوسف، فقد وضعوا سقفاً عالياً لما هو مطلوب مني. وحين كنت أعجز عن الارتقاء الى مستوى توقعاتهم، كانوا يتعاملون معي

بالضرب. ومهما فعلت، لم يكن بالنسبة لهم كافياً، حتى لو ذهبت الى المسجد خمس مرات في اليوم.

أذكر يوماً أنني كنت أجري وألعب مع صديق لي في المسجد، فاذا بالامام يطاردني حتى أمسك بي، ثم رفعني فوق رأسه وطرحني على ظهري الى الأرض بكل قوته. واذ عجزت عن التنفس وظننت أنني سأموت حالاً، لم يكتف امامنا بهذا، بل تابع صبّ جام غضبه عليّ لطماً ورفساً. ماذا كانت خطيتي؟ فأنا لم أفعل أي شيء لا يفعله الأولاد الآخرون في مثل سنّي. ولكن، لأنني ابن الشيخ حسن يوسف، لم يكن متوقعاً مني أن ألعب كما فعلت.

كنت على صداقة مع ابن قائد ديني ورمز كبير في حركة حماس، طالما حرّض الناس على رمي الحجارة على الاسرائيليين. كان هذا القائد شديد الحرص على ابنه، ولا يعبأ لاصابة الأولاد الآخرين برصاص المستوطنين. واذ اكتشف يوماً أنني وابنه نشارك في رمي الحجارة، استدعانا الى مكتبه ليتحدث الينا. وما ان دخلنا، حتى قطع الشريط الكهربائي الموصول بالمدفأة، وانهال به علينا جلداً، حتى نزفت الدماء من أجسادنا الطرية. بعد ذلك أمرنا بقطع علاقة الصداقة، حفاظاً على سلامة ابنه، الذي عمّت الكراهية قلبه تجاه أبيه، فترك المنزل لاحقاً، وأصبح يعتبر والده من أشر الأشرار.

على الرغم من مساهمة الجميع في توجيهي الى الصراط المستقيم، لم يمدّ أحد لنا يد العون الذي كنا نحتاجه مع وجود والدي في السجن. فبسبب اعتقاله، خسرنا المدخول الذي كان يتقاضاه من المدرسة المسيحية كمدرّس، ولم ينفع وعد الادارة لنا بحفظ مكان والدي الى حين خروجه من السجن، بمساعدتنا على تأمين احتياجاتنا.

والدي كان الوحيد في المنزل يحوز على رخصة للقيادة. ما يعني اننا لم نكن قادرين على استخدام السيارة. فكانت أمي تضطر لقطع مسافات طويلة الى الأسواق، لتشتري ما يلزمنا من طعام وحاجيات. وكثيراً ما كنت أرافقها لأساعدها في حمل المشتريات. هل تظنون أن العوز هو أكثر ما عانينا منه؟ لا. لم يكن العوز، وانما العار والخجل. فعندما كنت أذهب مع أمي الى السوق، كنت أزحف تحت عربات الباعة، لأجمع عن الأرض الخضار غير السليمة والمتعفنة. وكانت أمي تقايض الباعة كثيراً، وتصرّ على دفع أسعار منخفضة جداً مقابل تلك الخضراوات

التي لا يشتريها أحد، مقنعةً اياهم بان ما تشتريه انما هو لاطعام الماشية. ولا تزال والدتي الى اليوم تتبع سياسة المقايضة مع الباعة والتجار، لأن والدي دخل الى السجن ثلاث عشرة مرة، وهو ما لم يضاهه فيه ايٌّ من قادة حماس الآخرين. (كان والدي لا يزال في السجن عند كتابتي هذا الكتاب).

أعتقد ان السبب في عدم مساهمة أحد بمد يد العون لنا في تلك الأوقات العصيبة، كان ظن الجميع بأن عائلتنا تملك الكثير من المال. فعندهم ان والدي كان قائداً دينياً وسياسياً من الصف الأول، وأن عائلته الكبيرة لا بدّ انها تقدم المساعدة لزوجته وأولاده، كما ان الله موجود ليتدبّر أمرنا. ولكن، اذ تجاهلنا أعمامنا، ولم يفعل الله لنا شيئاً، أخذت أمي على عاتقها مسؤولية الاعتناء بأولادها السبعة لوحدها. (أخي الصغير محمد ولد في العام ١٩٨٧).

كانت أوضاعنا تزداد يأساً يوماً بعد يوم، حتى قررت أمي أخيراً الطلب من أحد أصدقاء والدي اقراضها بعض المال، لا لكي تشتري لنفسها الثياب وأدوات الزينة والتبرّج، وانما لتؤمّن لأطفالها وجبة طعام واحدةً على الأقل يومياً. واذ رفض الرجل طلبها، ولم يقدم لها المساعدة التي تحتاجها، لم يكتف بهذا، بل أخذ يشهّر بها بين اصدقائه المسلمين، متهماً اياها بالاستعطاء. ولم يكن حال والدتي مع هؤلاء أفضل، اذ بدأوا بتعييرها وادانتها قائلين: «انها تنال مرتباً من الحكومة الأردنية، فلماذا تطلب المزيد. هل تريد هذه المرأة استغلال سجن زوجها لتصبح غنية؟». ومن تلك اللحظة، لم تطلب والدتي مساعدة أحد على الاطلاق.

ذات يوم، سألتني: «مصعب، ماذا لو خبزت بعض الحلوى والبقلاوة. هل تأخذها وتبيعها للعمال في المنطقة الصناعية؟».

فأجبتها بأنني سأكون سعيداً جداً بعمل اي شيء لمساعدة العائلة. ومنذ ذلك اليوم، صرت أعود من المدرسة، فأبدّل ثيابي للحال، وأضع حلويات أمي على طبق، وأذهب لبيعها. كنت أشعر بالخجل في بادىء الأمر، ولكنني في ما بعد أصبحت أكثر جسارةً على سؤال العمال ان كانوا يريدون الشراء.

في أحد أيام الشتاء الباردة، قصدت المنطقة الصناعية لأبيع الحلويات كالعادة، الا أنني تفاجأت بعدم وجود أحد، لسبب البرد القارس. بدأ المطر ينهمر بغزارة، فيما كادت أصابعي تتجمد من الصقيع وأنا أرفع الطبق المغلف بالنايلون فوق رأسي كمظلة، عندما لمحت على الطرف الآخر من الشارع سيارة يستقلها عدد

من الرجال. تقدمت السيارة نحوي، وفتح السائق النافذة ونادى بصوت عالٍ: «ماذا تحمل أيها الفتى؟». فأجبت وأنا متجه نحوه: «بعض البقلاوة». واذ اقتربت ونظرت الى الرجال داخلِ السيارة، صعقت لرؤية خالي إبراهيم بينهمٍ. لم أكن الوحيد الذي كان مذهولاً في تلك اللحظة. فأصدقاء خالي صُعقوا ايضاً لرؤية ابن أخت صديقهم ابراهيم يستعطي في يوم بارد وماطر. شعرت بالخجل بسبب الحرج الذي سببته لخالي. فلم أدر ماذا أقول. وهم كذلك.

اشترى خالي كل البقلاوة التي كانت معي، طالباً مني العودة الى المنزل، على ان يراني لاحقاً. وعندما أتى ليراني، كان ممتلئاً غضباً من أمي. لم أتمكن من سماع ما قاله لها، ولكنه بعد ان غادر المنزل، كانت هي تجهش بالبكاء. وفي اليوم التالي، بعد انتهاء المدرسة، أبدلت ثيابي كالعادة، وأخبرتها أنني جاهز للانطلاق، فقالت لي: «لا أريدك أن تبيع البقلاوة بعد اليوم». فقلت: «ولكنني أتحسن يوماً بعد يوم. أنا أجيد البيع. ثقي بي». انحدرت الدموع من عينيّ أمي، ولم أعد أخرج للبيع أبداً.

كنت غاضباً، ولا أفهم لماذا لا يريد جيراننا أو أقاربنا مساعدتنا في محنتنا. وما لم أفهمه أكثر، كانت أحكامهم الجائرة ضدنا عندما كنا نحاول اعانة أنفسنا. فكنت أتساءل ما اذا كان السبب الحقيقي في عدم تقديم يد العون لنا، هو خوف الناس من ظن الاسرائيليين بأنهم يساعدون عائلة ارهابي، ما يسبب لهم مأزقاً هم بغنى عنه. ولكننا لم نكن ارهابيين. وأبي لمٍ يكن ارهابياً ايضاً.

يا للأسى. حتى هذه الحقيقة ستتغير ايضاً.

الفصل السادس

عودة بطل

١٩٨٩

كنت في الحادية عشرة حين أطلق سراح والدي بعد طول انتظار. وفجأة، بعد سنة ونصف السنة على تجنب تعاطيهم مع عائلتنا، صار الجميع يعاملوننا معاملة ملكية. فمع عودة البطل، لم أعد أنا ذلك الخروف الأسود المنبوذ من القطيع، بل صرت بمثابة الوارث الشرعي. أخوتي صاروا أمراء، وأختاي أصبحتا أميرتين، وأمي كانت الملكة. ولم يعد أحد يجرؤ على انتقادنا وادانتنا بعد.

استعاد والدي عمله كمدرّس في المدرسة المسيحية، بالاضافة الى عمله في المسجد كامام. ولكونه أصبح حراً طليقاً، اجتهد قدر الامكان ان يساعد والدتي في شؤون المنزل، كي يخفف عنا نحن الصغار عبئاً كان يثقل كاهلنا. لم نصبح أغنياء، ولكن صار لدينا ما يكفي من المال لشراء طعام أفضل، وجائزة بسيطة للرابح في لعبة «النجوم». ما كنا أغنياء به حقاً كان كرامتنا وعزّتنا. أما أفضل الكل فكان وجود أبي معنا، بحيث لم نكن نحتاج معه الى أي شيء آخر.

كل شيء في حياتنا عاد بسرعة الى وضعه الطبيعي. على كل حال، ان كلمة طبيعي هي تعبير نسبي. فما زلنا نعيش تحت الاحتلال الاسرائيلي، فيما القتلى

يسقطون في الشارع كل يوم. ومنزلنا لا يزال بقرب المدافن التي لم تشبع بعد من الجثث المضرجة بدمائها. اما والدي، فان ثمانية عشر شهراً قضاها في السجون الاسرائيلية بتهمة «ارهابي»، قد حفرت فيه أفظع الذكريات. فيما الأراضي المحتلة لا تزال تتحول تدريجاً لتسود فيها شريعة الغاب تماماً.

الشريعة الاسلامية هي القانون الوحيد الذي يركن اليه المسلمون. وهم يخضعون لتوصيات الشريعة من خلال فتاوى يصدرها رجال الدين في مختلف الموضوعات. هذه الفتاوى تساعد الناس على ان يعيشوا حياتهم اليومية طبقاً لما يوصي به القرآن. ولكن مع غياب الآراء والتفاسير الموحدة لمعاني القرآن، غالباً ما يصدر الشيوخ المسلمون فتاوى في مواضيع معينة، تبدو متناقضة على خط مستقيم مع فتاوى غيرهم من الشيوخ في نفس المواضيع. ونتيجةً لذلك، صارت القوانين التي يخضع لها المسلمون متضاربة الى حد كبير.

بعد ظهر أحد الأيام، بينما كنت ألعب مع اصدقائي داخل المنزل، علا الصراخ في حيّنا فجأة. ومع ان المشادات الكلامية والعراك بالأيدي كانت شيئاً عادياً في عالمنا، الا اننا اندفعنا الى الخارج لئلا يفوتنا الحدث. كان الغضب يتملك جارنا أبا سليم وهو يلوّح في الهواء بسكين كبير، ساعياً وراء ابن عمه، محاولاً قتله. وكان هذا الأخير يحاول مستميتاً الابتعاد عن مدى السكين، ونصلها الحاد الذي كان يلمع في نور الشمس كلما لوّح بها أبو سليم. وقد حاول جميع رجال الحيّ منع الرجل من تحقيق مأربه، الا انه كان ضخماً جداً. واذ كانت مهنته جزّاراً، لم تبارح مخيلتي فظاعة المصير الذي سيلقاه ابن العم، اذا تمكّن منه أبو سليم، خاصةً وأنني شاهدته مرة وهو يذبح عجلاً خلف منزله، وكيف كان جسده ملطخاً بالدم القاني والكثيف من قمة الرأس الى أخمص القدم.

أمام هذا المشهد، لم أجد ما أحدث به نفسي الا اننا حقاً نعيش كما في الأدغال، وطبقاً لشريعة الغاب. فلم تكن هناك سلطات تؤازر او رجال شرطة نستدعيهم عند الحاجة. كل ما كان في وسعنا فعله في حالة كهذه، هو ان نقف ونشاهد ما يجري بصمت. ومن حسن الحظ، تمكن ابن العم من الهرب الى غير رجعة.

تلك الليلة، عندما عاد والدي الى المنزل، أطلعناه على ما جرى خلال النهار. والدي لم يكن من أصحاب القامات الفارعة. كان طوله خمسة أقدام وسبع بوصات

فقط، ولا يمكن اعتباره رياضياً بأي حال من الأحوال. وحال سماعه الخبر، توجه الى منزل أبي سليم وسأله عن أسباب ما حصل، فأفاض هذا الأخير في الحديث عن نيته قتل ابن عمه، والأسباب التي تدفعه لذلك. وعندما انتهى من الكلام قال له والدي: «أنت تعلم يا أبا سليم أننا خاضعون للاحتلال، وأنه لا وقت لدينا لمثل هذه الحماقات. عليك ان تجلس مع ابن عمك وتقدم له الاعتذار، وهو كذلك لك. لا أريد مشاكل من هذا النوع فيما بعد».

كان أبو سليم يحترم والدي جداً كالآخرين، وكان يثق بحكمته في حلّ هذا النوع من المشاكل. فوعده بالعمل على اصلاح الوضع مع ابن عمه، ثم حضر واياه اجتماعاً ضم معظم رجال الحيّ. وبهدوئه المعتاد، بدأ والدي يتحدث الى الجمع قائلاً: «الوضع الراهن هو كالآتي: لا يوجد لدينا سلطات حكومية هنا، والأمور أصبحت خارج السيطرة تماماً. لا يمكننا الاستمرار في مقاتلة أحدنا الآخر، وسفك دماء شعبنا. فنحن نتقاتل في شوارعنا ومنازلنا ومساجدنا. يكفينا ما حصل. سنجتمع مرة على الأقل أسبوعياً، لنحاول معالجة مشاكلنا كرجال. ليس لدينا رجال شرطة، وليس مسموحاً لأحد أن يقتل أحداً. لدينا مشاكل أعظم لنتعامل معها. أريدكم موحدين، وان تساعدوا أحدكم الآخر. نحن بحاجة الى ان نكون عائلة واحدة». وافق الجميع على المنطق الحكيم لوالدي، وقرروا الاجتماع مساء كل يوم خميس لمناقشة المواضيع المحلية، وايجاد الحلول للصراعات الحادثة بين الأفراد.

احياء الأمل في النفوس، ومساعدة الناس على حل مشاكلهم، كانت من ضمن مسؤوليات والدي كامام للمسجد. فقد كانوا يجدون فيه بديلاً عن غياب السلطات الحكومية. لقد أصبح كوالده وأكثر. فهو كان يتكلم بسلطان مسؤول في حماس، كما بسلطان شيخ يتمتع بسلطة أكبر من سلطة امام، وكان يبدو وكأنه جنرال أكثر منه كاهناً.

على مدى ثلاثة أشهر منذ عودة والدي الى المنزل، حاولت قدر الامكان تمضية أكثر أوقاتي معه. فأنا الآن رئيس الحركة الطالبية الاسلامية في المدرسة، وكانت لدي رغبة في الاطلاع أكثر على الاسلام وعلى الدراسات القرآنية. ففي مساء يوم خميس، سألته اذا كان بامكاني حضور الاجتماع الاسبوعي لرجال الحي، معللاً الأسباب الموجبة. فها أنا قد صرت رجلاً، وكنت أرغب في أن أعامل كواحد منهم.

رفض والدي الطلب وقال لي: «ابق أنت هنا، هذا الاجتماع هو للرجال فقط. وسأخبرك لاحقاً بما جرى فيه».

تفهمت وجهة نظره، على رغم خيبة الأمل التي اعترتني. واذ كنت أعلم أن أحداً من اصدقائي لن يكون مسموحاً له حضور الاجتماع الأسبوعي هذا، كنت أعزّي نفسي بأن والدي سيوافيني بأخباره حال عودته الى المنزل.

بعد خروجه الى الاجتماع بنحو ساعتين، كانت أمي تحضّر خلالها طبقاً من السمك اللذيذ للعشاء، طرق أحدهم الباب الخلفي للمنزل. واذ فتحت الباب بما يكفي لأرى الطارق، وجدت النقيب الاسرائيلي شائي، الذي اعتقل والدي منذ حوالي السنتين، واقفاً هناك.

«أبوك موجود»، سألني النقيب. فأجبته: «لا. هو ليس هنا». فقال لي: «اذاً، افتح الباب». لم أعرف ماذا أفعل الا أن أفتح له. كان النقيب شائي لطيفاً كما في أول مرة جاء للقبض على والدي، ولكن تصرفه أوحى بأنه لم يصدقني. ولما سألني اذا كان بامكانه القاء نظرة سريعة في المكان، وافقت، عالماً انه لا يوجد أمامي خيار آخر. واذ بدأ النقيب بتفتيش المنزل، منتقلاً من غرفة الى أخرى، باحثاً في الخزائن وناظراً خلف الأبواب، تمنيت لو بامكاني عمل أي شيء لمنع والدي من العودة الى المنزل. لم يكن لدينا هواتف نقالة في تلك الأيام، فكان مستحيلاً عليّ تحذيره مما يجري في البيت. وكلما أمعنت التفكير بطريقة ما، كلما اقتنعت أكثر بأن شيئاً لن يجدي نفعاً. فوالدي كان حتماً سيعود الى المنزل.

بعد انتهائه من التفتيش، طلب النقيب شائي من جنوده المتمركزين خارج البيت التزام الصمت التام. فسارع هؤلاء للاختباء خلف الشجيرات والمنازل المجاورة، بانتظار عودة أبي. واذ شعرت بالعجز واليأس، جلست الى المائدة وكلي آذان صاغية. بعد قليل، صرخ واحد من الجنود بأعلى صوته: «قف مكانك»، ثم سمعنا جلبة ورجالاً يتكلمون، فأدركنا ان ما يجري لا ينبىء بالخير على الاطلاق. ترى، هل سيعود والدي الى السجن مرة جديدة.

وما هي الا دقائق، حتى دخل الى المنزل بسرعة، وهو يهز رأسه وينظر الى كل واحد منا، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الأسف لما يجري، ثم قال: «سيأخذوني معهم». وبعد ان قبّل رأس والدتي، بدأ يقول وهو يقبلنا الواحد تلو الآخر: «لا أدري الى متى سأغيب. أحسنوا السلوك، واعتنوا ببعضكم البعض».

ثم ألقى سترته عليه وخرج، ولم يعلم أن طبقاً من السمك المشوي كان بانتظاره، قد برد.

مع انتشار خبر اعتقاله، عاد الجميع الى معاملتنا كلاجئين، حتى من قبل أهل الحي الذين كان والدي يعمل بلا كلل من أجل حمايتهم من أنفسهم ومن الآخرين. وكان البعض من هؤلاء يجهدون لاظهار اللهفة وهم يسألون عن أخباره، الا ان مشاعرهم المزيفة كانت تشي بأنهم حقاً لا يكترثون.

مع ادراكنا بأن والدي معتقل في أحد السجون الاسرائيلية، الا أن أحداً لم يفصح لنا عن مكان هذا السجن. وبعد ثلاثة أشهر من البحث المضني، والسؤال عنه في كافة السجون، تناهى الى مسامعنا أنه معتقل في منشأة خاصة، لا يتم فيها الا استجواب الأشخاص الأكثر خطورة. فتساءلت: لماذا؟ فحماس لم تقم بأي هجوم ارهابي، وهي حركة غير مسلحة في الأساس.

بعدما عرفنا مكان اعتقال والدي، صرّح لنا المسؤولون الاسرائيليون بزيارته مرة واحدة في الشهر، ولمدة ثلاثين دقيقة فقط. واذ لم يكن مسموحاً لأكثر من شخصين بالعبور الى داخل السجن، تناوبنا مع والدتي الدخول، كل بدوره، لرؤيته. وحين شاهدته للمرة الأولى بعد سجنه، دهشت لرؤيته وقد أرخى لحيته، وبدت على جسده ووجهه علامات الانهاك الشديد. وعلى رغم هذا، كنت سعيداً برؤيته. فهو لم يتذمر البتة. كان كل همه أن يعرف كيف نتدبّر شؤوننا، طالباً منا اعلامه بكل تفاصيل حياتنا، وبكل شاردة وواردة تحصل معنا.

خلال احدى الزيارات الدورية، قدّم لي والدي كيساً مليئاً بقطع الحلوى الملفوفة بأوراق ملونة. واذ اعترتني الدهشة، عاجلني بالقول ان السجناء يحصلون على قطعة من الحلوى كل يومين، وأنه كان يحتفظ بحلواه في هذا الكيس ليقدمها لنا. كانت الحلوى لذيذة، وقد احتفظنا بأوراقها الملونة الى حين خروج أبي من السجن مرة ثانية.

اطلاق سراح والدي كان الرجاء الذي نأمل تحقيقه يوماً فيوماً. ولكننا لم نكن نتوقع ذلك اليوم الذي وطأت فيه قدماه عتبة المنزل بشكل مفاجىء. لم نصدّق أعيننا. فقفزنا نعانقه ونقبله ونتمنى ان لا يكون ما نراه مجرد حلم جميل. انتشر الخبر بسرعة فائقة. وخلال الساعات الست التالية، كان منزلنا يعجّ بالزوار المرحبين بعودته، حتى ان خزان المياه فرغ لكثرة ما قدمنا لارواء ظمئهم.

ملأني شعور غامر بالفخر وأنا أرى مدى اعجاب هؤلاء الأشخاص بوالدي، والاحترام الذي كان عندهم لشخصه. ومع هذا، فقد أحسست بالغضب يلف كياني. فأين كان هؤلاء عندما كان هو في السجن؟

بعد خروج آخر الزائرين قال لي: «أنا لست أعمل من اجل الحصول على تقدير الناس واطرائهم، او لأجل خدمة يقدمونها لي او لعائلتي. أنا أعمل في سبيل الله. وأعلم يقيناً انكم تعانون وتدفعون مثلي ثمناً باهظاً. أنتم أيضاً تخدمون الله، فكونوا صابرين».

فهمت مقصده، ولكنني تساءلت ان كان والدي يعلم حقاً كم قاسينا في غيابه.

وبينما نحن نتكلم، قرع أحدهم باب منزلنا الخلفي. وألقى الاسرائيليون القبض على والدي مرة أخرى.

الفصل السابع

متطرف

١٩٩٠ ـ ١٩٩٢

كان والدي يقضي فترة اعتقاله الثالثة في السجن، حين غزت جيوش الرئيس العراقي صدام حسين امارة الكويت المحاذية واحتلّتها، في شهر آب من العام ١٩٩٠.

هذا الحدث أفقد الفلسطينيين صوابهم لشدة فرحهم به، فخرجوا الى الطرقات مهللين، ومنتظرين متى يبدأ تساقط الصواريخ على اسرائيل. فها ان اخوتهم قد جاؤوا أخيراً لنجدتهم، ولا بد لهم من توجيه ضربات قاسية الى العمق الاسرائيلي، وقريباً جداً سيصبح الاحتلال في خبر كان، كما كانوا يتوهّمون.

تحسّبت اسرائيل لامكان تعرضها لهجوم بالغازات السامة من قبل صدام حسين، الذي لم يتورّع عن ضرب الأكراد من شعبه في العام ١٩٨٨ بهذا السلاح الفتاك، فحصد منهم ما لا يقل عن خمسة آلاف شخص. فقامت السلطات الاسرائيلية بتوزيع الكمّامات الواقية على كل مواطنيها، ولم تعط الفلسطينيين سوى كمّامة واحدة لكل عائلة. واذ حصلت والدتي على كمّامة، ونحن السبعة الباقون لم نحصل على شيء، كان علينا ان نكون خلاقين، ونصنع لأنفسنا كمّاماتنا الخاصة.

كما أننا اشترينا لفائف النايلون والأشرطة اللاصقة لتغليف النوافذ والأبواب، منعاً لتسرب الغازات السامة الى داخل المنازل. وفي الصباح، وجدنا اللفائف مطروحة جانباً، لأن اللاصق لم يعمل جيداً بسبب الرطوبة.

تسمّرنا أمام شاشة التلفزيون لسماع الأخبار على القناة الاسرائيلية. وكنا نهلل لكل تحذير من تعرض البلاد لسقوط الصواريخ. فصعدنا الى سطوح المنازل لمشاهدة صواريخ «سكود» العراقية، تضيء سماء مدينة تل أبيب، ولكننا لم نر شيئاً. فعلّلت السبب بأن مدينة «البيرة» ربما ليست هي المكان الصالح لامتاع النظر بهذا الحدث. فقررت الذهاب الى منزل عمي داود في قرية «الجانية»، حيث يمكن تسريح النظر وصولاً الى البحر الأبيض المتوسط. ورافقني أخي الأصغر صهيب. ومن على سطح منزل عمي، رأينا الصاروخ الأول. في الحقيقة لم نر الا شهباً، ولكنه في كل الأحوال كان منظراً رائعاً.

عندما سمعنا في نشرات الأخبار ان حوالي أربعين صاروخ «سكود» استهدفت البلاد، وان اسرائيليين اثنين فقط قتلا، قلنا ان الحكومة تطلق أخباراً كاذبة بلا شك. وعلمنا فيما بعد ان تعديل العراقيين في عمل الصواريخ لجعلها تطال مناطق أبعد، أضعف من قوتها ودقتها في اصابة الأهداف.

مكثنا في منزل عمي داود الى ان أجبرت قوات الأمم المتحدة صدام حسين على العودة الى بغداد. فغضبت وشعرت بخيبة أمل مرة. «لماذا انتهت الحرب ولم تُمح اسرائيل من الوجود؟ فوالدي لا يزال في سجن اسرائيلي. كان على العراقيين ان يواصلوا قصف الصواريخ». هكذا حدّثت نفسي.

في الواقع، خيبة الأمل عمت جميع الفلسطينين. فبعد عقود من الاحتلال، ها ان حرباً حقيقية تنشب، وتطلق خلالها الصواريخ على اسرائيل، الا أن شيئاً من الأوضاع لم يتغير.

بعد انتهاء حرب الخليج، تم اطلاق سراح والدي من السجن. وعلى الفور، أعربت له والدتي عن رغبتها ببيع مهرها من الذهب لشراء قطعة من الأرض، واستدانة مبلغ من المال لبناء منزل خاص بنا. منزلنا كان الى ذلك الوقت مُستأجراً، وفي فترات غياب والدي، كان المالك يتعامل مع والدتي باستبداد وفظاظة.

استعداد أمي للتخلي عن أشيائها الثمينة كان له أبلغ الأثر في نفس والدي. لكنه كان يخشى من عدم قدرته على مواصلة دفع المستحقات الشهرية في حال

الاستدانة، لانه كان معرضاً للاعتقال مجدداً في اي وقت. ومع ذلك، فقد قرّرا المجازفة. وفي العام ١٩٩٢ بنيا المنزل الذي لا تزال عائلتي تسكنه في «بيتونيا» القريبة من رام الله. كنت في الرابعة عشرة من العمر حينها.

كانت «بيتونيا» تبدو أفضل حالاً من البيرة او رام الله بالنسبة لأعمال العنف. كنت مواظباً على الحضور الى المسجد القريب من منزلنا الجديد، كما كنت مشاركاً في «الجلسة»، وهي جماعة كانت تشجعنا على حفظ القرآن، وتعلمنا المبادىء التي ادّعى القادة انها ستقود الى أقامة دولة اسلامية عالمية.

بعد أشهر قليلة على انتقالنا الى منزلنا الجديد، تم اعتقال والدي مجدداً. وفي كل المرات التي اعتقل فيها، لم تكن توجّه اليه تهمة محددة. ولأننا كنا تحت الاحتلال، كانت الحكومة الاسرائيلية تعمل بحسب قانون الطوارىء، الذي يعطيها الحرية لاعتقال أي شخص يشتبه بتورطه في أعمال ارهابية. ولكونه قائداً دينياً، وبالخطأ، قائداً سياسياً، كان والدي يعتبر هدفاً سهلاً للاعتقال. توقيفه، ثم اطلاق سراحه، ثم اعتقاله مجدداً، فاطلاق سراحه، أصبح نهجاً لم نكن ندرك في حينه انه سيستمر لسنوات طويلة مقبلة، مُرهقاً العائلة للغاية. وفي ذات الوقت، كانت حركة حماس تزداد جنوحاً الى العدوانية، تحت ضغط الشباب الذين كانوا يطالبون القادة باعتماد المزيد من العنف تجاه اسرائيل.

كان هؤلاء يصرخون في وجوه القادة قائلين: «الاسرائيليون يقتلون أولادنا. نحن نرشقهم بالحجارة، اما هم فيطلقون علينا نيران مدافعهم الرشاشة. نحن خاضعون لاحتلال، والأمم المتحدة، وكل المجتمع الدولي، وكل انسان حر في العالم يدرك ان لنا الحق في المحاربة. الله نفسه، سبحانه وتعالى، يطلب منا ذلك. فماذا نحن منتظرون؟».

أكثر الهجمات التي كانت تحصل في تلك الأيام انطلقت من مبادرة شخصية، وليس من تنظيم حماس. فلم يكن زعماء الحركة يملكون السيطرة على العناصر، الذين كان كل واحد منهم يعمل لأهدافه الخاصة. هدف والدي كان الحرية الاسلامية، التي كان يؤمن ان الوصول اليها يتطلب مقاتلة اسرائيل. اما بالنسبة لهؤلاء الشباب، فالقتال كان هدفهم. لقد كان هدفاً بحد ذاته، وليس وسيلة للوصول الى هدف ما.

وعلى رغم خطورة الوضع في الضفة الغربية، كان الوضع في غزة أكثر خطورة.

فبسبب موقعها الجغرافي، كانت غزة تخضع لتأثير حركة الاخوان المسلمين الأصولية في مصر، فيما ازدحامها الشديد كان يزيد الطين بلة. فقد كانت غزة من أكثر بقاع الأرض كثافة بعدد السكان. ففي مساحتها التي لا تزيد عن ١٣٩ ميلاً مربعاً، كان يعيش أكثر من مليون شخص.

كانت العائلات في غزة تعلق أوراق ملكية أراضيها ومفاتيح منازلها على الجدران، كدليل صامت يذكرها بشكل مستمر بأنها كانت يوماً تملك منازل ومزارع جميلة، الا انها اغتصبت من قبل اسرائيل كغنائم في الحروب السابقة.

كانت غزة تعيش أجواء يسهل فيها تجنيد الشباب في الحركات الجهادية. فاللاجئون كانوا معبئين وجاهزين لأي أمر. ولم يكن هؤلاء مضطهدين فقط من قبل اسرائيل، ولكن ايضاً من الفلسطينيين أبناء بلدهم، الذين كانوا ينظرون اليهم بفوقية، ويعتبرونهم درجة ثانية من حيث المواطنية. وكثيرون كانوا يعتبرون اللاجئين أنفسهم غزاة، لأن المخيمات التي بنيت لايوائهم، شيدت على أراض ليست هي ملكهم بل ملك آخرين.

معظم الناشطين من الشباب المتهورين في حركة حماس كانوا من أبناء اللاجئين في المخيمات. من بين هؤلاء، ظهر شاب يدعى «عماد عقل»، كان الأصغر بين أخوة ثلاثة، وطالباً في كلية الصيدلة. عماد لم يعد يحتمل الظلم والاحباط الذي كان يسود المجتمع الفلسطيني، فحمل بندقية يوماً، وقتل عدداً من الجنود الاسرائيليين، وجرّدهم من سلاحهم. فصار أسلوبه الجهادي نموذجاً يُحتذى به، فتمثل به كثيرون. واذ أراد الاستقلال في عمله، أسس عماد خلية عسكرية صغيرة انتقل بها الى الضفة الغربية، حيث كانت له حرية تحرك أوسع، ساعدته في ضرب أهداف أكثر. ومن خلال الأحاديث التي كنت أسمعها في الشارع، كانت حماس تفتخر بعماد عقل. ومع ذلك، فقد رفض مسؤولوها دمج الأعمال التي كان يقوم بها، مع نشاطات الحركة. فأضافوا جناحاً عسكرياً لحماس أطلقوا عليه اسم «كتائب عز الدين القسام»، كلفوا عماد بقيادته، فأصبح للحال المطلوب الفلسطيني رقم واحد من قبل السلطات الاسرائيلية.

صارت حماس الآن حركة مسلحة. واذ تحولت من رشق الحجارة وقنابل المولوتوف الحارقة وكتابة الشعارات على الجدران الى استخدام الأسلحة، وجدت اسرائيل فيها مشكلة جديدة لم تكن تحسب لها حساباً. قبل ذلك، كانت اسرائيل

تتعامل مع هجمات تقوم بها منظمة التحرير الفلسطينية من أراضي الأردن ولبنان وسوريا. أما الآن، فالهجمات أصبحت تنطلق من داخل حدودها.

الفصل الثامن

تأجيج النيران

١٩٩٢ ـ ١٩٩٤

في الثالث عشر من كانون الأول عام ١٩٩٢، أقدم خمسة عناصر من كتائب القسام على اختطاف جندي اسرائيلي من حرس الحدود، يدعى نسيم توليدانو، بالقرب من تل أبيب. طالب الخاطفون السلطات الاسرائيلية باطلاق سراح الشيخ المعتقل أحمد اسماعيل ياسين، لقاءِ الافراج عن توليدانو. بعد يومين على رفض اسرائيل الطلب، وُجد توليدانو مقتولاً. وللحال، جرّدت اسرائيل حملة ضخمة ضد حركة حماس، واعتقلت الفاً وستمئة فلسطيني، كما قررت سراً ابعاد أربعمئة وخمسة عشر من قادة حماس والجهاد الاسلامي والاخوان المسلمين الى خارج الحدود. والدي، الذي كان في السجن، وأعمامي الثلاثة، كانوا من بين الذين تقرّر ابعادهم.

كنت في الرابعة عشرة من العمر في ذلك الوقت. ولم يكن أحد منا يعرف ما الذي يجري. ومع تسرب الأخبار، استطعنا جمع ما يكفي من معلومات تؤكد ان والدي سيكون من ضمن مجموعة المبعدين الكبيرة، وهي تضم معلمين وقادة دينيين ومهندسين وعمالاً اجتماعيين، تم تكبيل أيديهم وتعصيب عيونهم

ووضعهم في باصات. وخلال ساعات من انتشار الخبر، بدأ المحامون والعاملون في منظمات حقوق الانسان بتقديم العرائض المطالبة بالافراج الفوري عن المعتقلين. واذ مُنعت الباصات من التحرك، سهر أعضاء مجلس القضاء الاسرائيلي الأعلى حتى الخامسة صباحاً، للنظر في قانونية طلبات الافراج. وخلال الساعات الأربع عشرة التي تطلبتها المناقشات القانونية، بقي والدي والمعتقلون الآخرون محتجزين في الباصات، مكبلي الأيدي ومعصوبي العيون، بلا طعام وبلا ماء، وبلا فرصة لقضاء حاجتهم. وفي النهاية، قررت المحكمة العليا دعم الحكومة الاسرائيلية في مسعاها، فتحركت الباصات بالمبعدين نحو الشمال.

عرفنا لاحقاً انه تم نقل المبعدين الى منطقة خالية تغطيها الثلوج في جنوب لبنان. ومع اننا كنا في منتصف فصل الشتاء البارد، الا أنهم تركوا هناك لأنفسهم، بلا مأوى وبلا مواد غذائية. ولم تسمح السلطات الاسرائيلية، ولا حتى السلطات اللبنانية، لمؤسسات الرعاية الانسانية بتقديم العون لهم من غذاء ودواء. كما ان الحكام في بيروت لم يسمحوا بنقل المصابين والمرضى منهم للمعالجة في المستشفيات اللبنانية.

في الثامن عشر من كانون الأول، أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً حمل الرقم ٧٩٩، قضى باعادة المبعدين فوراً الى ديارهم سالمين. فرفضت اسرائيل تنفيذ القرار.

حين كان والدي يُعتقل في السجون الاسرائيلية، كنا نزوره بشكل دوري. أما الآن، وقد أصبح منفياً الى ما وراء الحدود، فقد صار مستحيلاً علينا رؤيته، بسبب اقفال الحدود اللبنانية مع اسرائيل. المرة الأولى التي رأيناه فيها بعد ذلك، كانت من خلال شاشة التلفزيون، في غضون اسبوعين من عملية الترحيل. فقد اختاره المبعدون ليكون أمين سر لجنة المخيم، بعد عبد العزيز الرنتيسي، أحد قادة حماس.

متابعة الأخبار المتلفزة أصبحت شغلنا الشاغل كل يوم، علنا نحظى بمشاهدة وجه والدي ولو للحظة، فنطمئن اليه. فكم من مرة شاهدناه ممسكاً بمذياع، يوجه من خلاله التعليمات اللازمة للمبعدين المتحلقين حوله. وعند حلول فصل الربيع، أرسل لنا رسائل بريدية وصوراً له التقطها مراسلون وموظفون في هيئات الاغاثة الدولية. بعد ذلك، تمكن المبعدون من الحصول على هاتف خليوي، فأصبح بامكاننا التحدث الى والدي لدقائق معدودة كل أسبوع.

ساهمت وسائل الاعلام الدولية في جعل قضية المبعدين تكسب عطفاً عالمياً، من خلال المقابلات التي أجرتها مع أفراد عائلاتهم. فأختي تسنيم استدرّت دموع العالم معها، عندما ظهرت على شاشات التلفزيون وهي تصرخ باكية «بابا، بابا». وصارت عائلتي، بطريقة غير مباشرة، الممثل غير الرسمي لعائلات المبعدين. فكنا ندعى للمشاركة في كل التظاهرات، بما فيها الاعتصامات امام مكتب رئيس الوزراء الاسرائيلي في القدس. والدي أعرب عن افتخاره الشديد بنا، فيما كنا نشعر بالرضى لسبب الدعم الذي حصلنا عليه من كافة شعوب العالم، ولا سيما من دعاة السلام الاسرائيليين. وبعد ستة أشهر، سمعنا خبراً مفرحاً يقول ان مئة وواحداً من المُبعدين سيُسمح لهم بالعودة الى منازلهم. فانتعشت الآمال في نفوس العائلات بامكانية ان يكون أحباؤها من ضمن المُفرج عنهم، ونحن ايضا رجونا أن يكون والدي واحداً منهم. الا انه لم يكن.

في اليوم التالي لعودة الأبطال من لبنان، قمنا بزيارتهم، علنا نسمع أخباراً تختص بوالدي. لكن الجواب الوحيد الذي حصلنا عليه منهم هو انه بخير، وانه سيعود الى المنزل قريباً. بعد ستة أشهر أخرى، رضخت اسرائيل لقرار الأمم المتحدة باعادة المُبعدين، فغمرنا فرح شديد لهذا التطور.

في اليوم الموعود، لم نحتمل صبراً ونحن ننتظر خارج سجن رام الله، حيث كان مقرراً اطلاق سراح بقية المبعدين من خلاله. ها ان عشرة مبعدين قد خرجوا. ثم خرج بعدهم عشرون آخرون. وهكذا، الى ان أعلن الجنود الاسرائيليون انتهاء عملية الافراج عن الجميع. ولكن، أين والدي؟ لم تكن هناك أية اشارة أو كلمة توضح لنا اين يوجد. لقد رحلت جميع العائلات بفرح الى منازلها مع أحبائها العائدين، ونحن لم نزل واقفين لوحدنا في منتصف الليل خارج أسوار السجن، ولا فكرة لدينا عما حصل لوالدي، أو أين يمكن ايجاده. عدنا الى المنزل محبطين ويائسين وقلقين، وفي خواطرنا يجول ألف سؤال وسؤال. لماذا لم يطلق سراحه مع الآخرين؟ أين هو الآن؟

في اليوم التالي، اتصل بنا محامي العائلة ليقول ان والدي وآخرين غيره تمّت اعادتهم الى السجن. واضاف، يبدو واضحاً ان عملية الابعاد انعكست سلباً على اسرائيل. كان والدي وعدد من المُبعدين مثله يظهرون كثيراً في نشرات الأخبار خلال منفاهم، فكسبوا تعاطف العالم معهم لما أصابهم من ظلم وانتهاك لحقوقهم

الانسانية. وقد أصبحوا أبطالاً في نظر العالم العربي، الذي كان يعتبرهم ملهمين للشعوب المناضلة.

عملية الابعاد خلفت نتائج كارثية على اسرائيل. ففي المنفى، استغل المبعدون الوضع لصوغ علاقة غير مسبوقة بين حركة حماس وحزب الله، المنظمة الاسلامية الشيعية المسلحة في لبنان. هذه العلاقة تشعبت لتصبح ذات أبعاد ونتائج تاريخية وجيوسياسية ضخمة. فكان والدي يتسلل مع قادة آخرين في حماس الى خارج المخيم، ليجتمع مع مسؤولين في حزب الله وجماعة الأخوان المسلمين، بعيداً عن أعين الصحافة والاعلام. هذه اللقاءات كان يستحيل حدوثها داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة. أما في اسرائيل، فكان لا يزال الكثير من عناصر حماس المتطرفين أحراراً، وقد زادتهم عملية الابعاد تطرّفاً وعنفاً. واذ شغل هؤلاء مراكز القيادة المؤقتة في حركة حماس، أدت سياستهم الى توسيع الهوة القائمة أصلاً مع منظمة التحرير الفلسطينية.

في العام ١٩٩٣، بدأت اسرائيل مفاوضات سرّية مع زعيم المنظمة ياسر عرفات، نتج عنها ما يُعرف باتفاقية أوسلو. في التاسع من أيلول ذلك العام، بعث عرفات برسالة الى رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين، أكد له فيها اعترافه بحق اسرائيل في الوجود كدولة تتمتع بالسلام والأمن. كما أعلن تراجعه عن استخدم الارهاب والعنف تجاه اسرائيل. بدوره، اعترف رابين رسمياً بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، كما ان الرئيس الأميركي في حينه بيل كلينتون، أمر برفع الحظر عن التعامل مع المنظمة.

في الثالث عشر من أيلول، ذهل العالم وهو ينظر عبر وسائل الاعلام الى عرفات ورابين يتصافحان في البيت الأبيض. وقد أظهرت استطلاعات الرأي موافقة غالبية الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، على بنود الاتفاقية التي وقعها الزعيمان، والمعروفة باعلان المبادىء. هذه الوثيقة قادت فيما بعد الى ظهور السلطة الفلسطينية، كما دعت الى انسحاب الجيش الاسرائيلي من غزة وأريحا، بحيث تمنح هذه المناطق حكماً ذاتياً، كما انها مهدت الطريق لعودة ياسر عرفات ومسؤولي منظمة التحرير من منفاهم في تونس.

عارض والدي اتفاقية اعلان المبادىء. فهو لم يكن يثق باسرائيل ولا بمنظمة التحرير، وبالتالي لم يثق بعملية السلام بجملتها. كما أن قادة آخرين في حماس

عارضوا الاتفاقية، حسبما أوضح والدي، وكان لكل واحد منهم أسبابه الخاصة. منهم من رأى ان المفاوضات بين الاسرائليين والفلسطينيين يمكن ان تؤدي الى سلام بينهما، وهذا يعني انتهاء حركة حماس. فالمنظمة لا يمكنها الاستمرار والنمو في أجواء سلمية. كما ان حركات مقاومة أخرى كانت تستفيد من الصراع الحاصل، ولا يفيدها حلول السلام بشيء. فكان من المستحيل تحقيق السلام في منطقة تعددت فيها الأهداف والمصالح الشخصية. وهكذا، تواصلت الهجمات:

في الرابع والعشرين من أيلول، لقي رجل اسرائيلي حتفه طعناً بالسكين، من قبل أحد فدائيي حماس، في بستان قريب من بصرة.

بعد أسبوعين، أعلنت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمة الجهاد الاسلامي مسؤوليتهما عن مقتل اسرائيليين اثنين، في صحراء اليهودية.

بعد أسبوعين من هذا الحادث، قتل عناصر من حماس جنديين من جيش الدفاع الاسرائيلي، باطلاق النار عليهما خارج احدى المستوطنات اليهودية في غزة.

ولكن عمليات القتل هذه لم تحتل مكاناً بارزاً في عناوين نشرات الأخبار العالمية، كما احتلت مجزرة الخليل، التي حدثت يوم الجمعة في الخامس والعشرين من شباط العام ١٩٩٤.

هذا اليوم كان من ضمن ايام شهر رمضان المبارك، وكان اليهود يحتفلون فيه بعيد البوريم، عندما دخل طبيب اميركي المولد يدعى «باروخ غولدشتاين» الى مسجد الحرم الابراهيمي في مدينة الخليل، المكان الذي دفن فيه كل من آدم وحواء، ابراهيم وسارة، اسحق ورفقة، ويعقوب وليئة، بحسب التقاليد المحلية. ومن دون سابق انذار، فتح «غولدشتاين» نيران سلاحه الحربي على المصلين الفلسطينيين في المسجد، فقتل منهم تسعة وعشرين شخصاً، وأصاب بجروح مختلفة أكثر من مئة آخرين، قبل ان تتمكن الجموع الغاضبة والمهتاجة من السيطرة عليه، وضربه حتى الموت.

تسمّرنا أمام شاشات التلفزيون نشاهد جثث الضحايا الغارقة بدمائها، وهي تحمل واحدة بعد الأخرى الى خارج المسجد. كنت في حالة ذهول. كل شيء كان يتحرك وكأنه بالتصوير البطيء. تسارعت نبضات قلبي، مع احساس عارم بالغضب لم أشعر به من قبل. فكنت أنتفض تارةً وأستكين تارةً أخرى، ثم أغرق في الحزن الشديد لبرهة من الزمن، مع شعور بالخدر يلف كياني، قبل أن أنتفض

غضباً من جديد. لم أكن الوحيد الذي كانت تنتابه هذه المشاعر المؤلمة. فجميع سكان الأراضي المحتلة فجعوا بهذا الحدث الذي أصابهم في الصميم.

كان «غولدشتاين» يلبس بزة عسكرية اسرائيلية عند ارتكابه المجزرة، فيما كان تواجد الجنود الاسرائيليين في المنطقة أقل من المعتاد. هذا ما حمل الفلسطينيين على الاعتقاد بأن الحكومة في القدس هي التي أرسلت «غولدشتاين» لفعل فعلته، او على الأقل أمّنت له التغطية اللازمة لجريمته. بالنسبة لنا، لم نكن نرى فارقاً بين الجنود الذين يسعدهم اطلاق النار لأتفه الأسباب، وبين المستوطنين المخبولين. أما وقد حصلت هذه المجزرة، فان حماس بدأت تتحدث بلغة الحزم، ولم يكن وارداً في حساباتها الا الثأر لهذه الجريمة الوحشية.

في السادس من نيسان، صدمت سيارة مفخخة أحد الباصات في مدينة «العفولة»، فأدى انفجارها الى مقتل سبعة اسرائيليين وجرح أربعة وأربعين آخرين. أعلنت حركة حماس مسؤوليتها عن العملية، وبرّرتها بأنها انتقام لمجزرة الخليل. وفي اليوم نفسه، قتل اسرائيليان رمياً بالرصاص، وجرح أربعة آخرون، بهجوم قامت به حماس على محطة باصات بالقرب من «أشدود». بعد ذلك بأسبوع واحد، دخلت اسرائيل مرحلة جديدة مرعبة من المواجهات مع المقاومين، الذين كثفوا عملياتهم الانتحارية ضد الاسرائيليين، زارعين في قلوبهم الرعب كل يوم وفي كل مكان.

في الثالث عشر من نيسان عام ١٩٩٤، وهو يوم الأربعاء الذي تم فيه اطلاق سراح والدي من السجن بعد عودته من لبنان، دخل شاب في الحادية والعشرين من العمر، يدعى «عامر صلاح دياب العمارنة»، الى محطة الباصات في منطقة الخضيرة بين حيفا وتل أبيب، في المنطقة الوسطى. كان عامر يحمل معه حقيبة تحتوي على مسامير وقطع حديدية صغيرة، بالاضافة الى أكثر من كيلوغرامين من متفجرات أوكسيد الأسيتون المصنعة محلياً. في التاسعة والنصف استقل عامر الباص المتجه نحو تل أبيب. وبعد عشر دقائق على مغادرة المحطة، وضع عامر الحقيبة على الأرض وفجّرها. مزّقت الشظايا الحادة أجساد الركاب في الباص، فقتلت ستة منهم، وجرحت ثلاثين. وبعد قليل على وصول المسعفين وعمال الانقاذ، انفجرت قنبلة أنبوبية ثانية فيهم، ما زاد عدد ضحايا العملية. هذا الهجوم كان الثاني من خمسة هجمات هدفت الى الانتقام من مجزرة الخليل، حسب

البيانات التي وزعها مسؤولون في حماس.

امتلأت فخراً بهذه الهجمات التي قامت بها الحركة، ورأيت فيها انتصاراً ضخماً ضد الاحتلال الاسرائيلي. وكشاب في الخامسة عشرة من العمر، بدأت الأمور تتضح أمامي جيداً. ففي المشهد لا يوجد سوى الصالحين والأشرار. والجزاء الذي يناله الأشرار انما يستحقونه تماماً. كما دُهشت لما تفعله في أجساد البشر قنبلة تزن كيلوغرامين، محشوة بالمسامير والكرات الحديدية، وأملتُ بأن تشكل رسالة واضحة للمجتمع الاسرائيلي. وقد وصلت الرسالة فعلاً.

بعد كل هجوم انتحاري، يصل الى المكان المستهدف المتطوعون من اليهود الأرثوذكس «زاكا»، أي الذين يتعرفون على هويات ضحايا الكوارث. هؤلاء الذين يتميزون بصدراتهم الصفراء الفوسفورية، يعملون على جمع أشلاء ودماء الضحايا من اليهود وغير اليهود، بمن فيهم الانتحاري نفسه، ويأخذونها الى مركز يافا للأبحاث الجنائية، حيث يعمل الأطباء الشرعيون على اعادة جمع الأشلاء بهدف التعرف على أصحابها. وغالباً ما يستخدم الأطباء فحوص الحمض النووي (دي أن آي) للتأكد من ان الأشلاء المجموعة تعود لضحية معينة.

ومع كل انفجار، تتوجّه العائلات التي يصلها خبر اصابة أحد أحبائها، للبحث عنه في المستشفيات المحلية. واذا لم تعثر عليه، يُطلب منها التوجه الى مركز يافا للأبحاث الجنائية، حيث ترى الناس في أغلب الأحيان، اما في غيبوبة واما في حزن رهيب. وهناك، ينصح الأطباء الشرعيون الأهالي بعدم النظر الى بقايا جثث أحبائهم، لكي تبقى ذكراهم في الأذهان كما كانوا يعرفونهم عندما كانوا على قيد الحياة. لكن كثيرين من الأهل يصرّون على لمس جثث أحبائهم، حتى ولو انه لم يبق منها سوى قدم واحدة فقط. وكان اليهود يحرصون حسب شريعتهم، على دفن جثث موتاهم في نفس اليوم الذي يفارقون فيه الحياة. ولذلك كانوا يدفنون الأجزاء الكبيرة من أشلاء ضحاياهم للحال، ثم يعودون مرة ثانية أو أكثر لدفن الأجزاء الصغيرة، حال تأكدهم بعد فحوص الحمض النووي انها تعود لنفس الفقيد. هذه العملية كانت تبقي جروح العائلات الثكلى والمكلومة مفتوحة على الحزن والأسى بشكل متواصل.

تفجير الحضيرة كان العملية الرسمية الأولى، الا أنه كان المحاولة الثالثة التي تنجح بعد محاولتين تجريبيتين بدأ بهما صانع متفجرات حماس «يحيى عيّاش»،

الذي أصبح يتقن المهنة جيداً. عيّاش كان طالباً بفرع الهندسة في جامعة بيرزيت، ولم يكن اسلامياً متطرفاً ولا حتى قومياً غيوراً، ولكنه كان يشعر بالمرارة في نفسه، لان الحكومة الاسرائيلية رفضت له طلباً بالانتقال الى احدى الدول، حيث يمكنه مواصلة تحصيله العلمي فيها. فأصبح يحيى عيّاش صانع متفجرات، وبطلاً عند الفلسطينيين، واسمه من ضمن لائحة أخطر المطلوبين عند اسرائيل. فبالاضافة الى محاولتين فاشلتين، وتفجيرين حصلا في السادس والثالث عشر من نيسان، يُعتبر عيّاش مسؤولاً عن مقتل تسعة وثلاثين شخصاً في خمسة هجمات أخرى. وقد بدأ تدريب آخرين على صنع المتفجرات، ومن بين هؤلاء صديقه حسن سلامة.

أثناء حرب الخليج، انحاز ياسر عرفات الى جانب صدام حسين في غزوه للكويت، ما وضعه في عزلة سياسة من جانب الولايات المتحدة والدول العربية، التي أيّدت تحالفاً عسكرياً بقيادة أميركية لتحرير الكويت. وبسبب موقف عرفات هذا، توقفت الدول العربية عن مواصلة الدعم المالي لمنظمة التحرير الفلسطينية، مُحولة الاعتمادات المالية لصالح حركة حماس. ولكن بسبب توقيعه اتفاقية أوسلو، عاد عرفات ليحتل المركز الأول كقائد للشعب الفلسطيني، وتقاسم في السنة التالية جائزة نوبل للسلام مع كل من رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين ووزير خارجيته شيمون بيريس.

كان اتفاق أوسلو ينص على أن يؤسس عرفات السلطة الوطنية الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة. في الأول من تموز العام ١٩٩٤ نقل مقر قيادته الى غزة بالقرب من رفح على الحدود المصرية، وأقام هناك. وفي أول خطاب ألقاه أمام الجموع المحتشدة للاحتفال بعودته من المنفى، قال عرفات: «الوحدة الوطنية هي درعنا. هي درع شعبنا. الوحدة، الوحدة، الوحدة». الا ان المناطق الفلسطينية كانت أبعد ما تكون عن الوحدة.

غضبت حماس والمؤيدون لها من اجراء عرفات لقاءات سرّية مع الاسرائيليين، ووعْده لهم بأن الفلسطينيين لن يعودوا الى القتال من أجل نوالهم الحق في تقرير مصيرهم. فقد كان رجالنا لا يزالون في السجون الاسرائيلية، وليس لنا دولة فلسطينية، وكل ما حصلنا عليه هو حكم ذاتي في مدينة صغيرة لا حول لها في الضفة الغربية هي أريحا، وغزة، التي هي عبارة عن مخيم ضخم مزدحم باللاجئين على شاطىء البحر.

والآن، ها هو ياسر عرفات يجلس مع الاسرائيليين على طاولة واحدة ويصافحهم، فيما كثير من الناس يتساءلون: «ماذا عن دماء الفلسطينيين؟ هل رخصت في عيني عرفات الى هذا الحد؟». فيأتي الجواب من بعض الفلسطينيين الذين يتحدثون عن الانجازات الوطنية التي حققتها السلطة الفلسطينية، فيقولون انها على الأقل استردّت لنا غزة وأريحا. ماذا استردت لنا حماس؟ هل تمكنت من تحرير قرية فلسطينية واحدة؟ ربما كان هؤلاء محقين في رأيهم، لكن حماس لم تثق أبداً بياسر عرفات، لأنه قبل بدولة فلسطينية تكون ضمن دولة اسرائيل، بدلاً من استرداد الأراضي الفلسطينية التي كانت موجودة قبل اعلان دولة اسرائيل.

«ماذا تريدوننا ان نفعل؟». هكذا كان عرفات والمتحدثون باسمه يجيبون عندما يشعرون بالضغط عليهم. «لقد حاربنا اسرائيل على مدى عقود، ووجدنا أن الانتصار عليها مستحيل. لقد طُردنا الى الأردن ولبنان، وانتهى بنا المطاف في تونس، على بعد أكثر من الف ميل من اسرائيل. المجتمع الدولي كان ضدنا، ولم تكن لدينا القوة اللازمة لتغيير الأوضاع. فالاتحاد السوفياتي انهار تماماً، وصارت الولايات المتحدة القوة الوحيدة في العالم، مقدمة كل الدعم لاسرائيل. وعندما لاحت بادرة أمل لنحكم انفسنا بانفسنا على الأراضي التي كانت خاضعة لنا قبل حرب الايام الستة في العام ١٩٦٧، لم نتأخر عن استغلال الفرصة وبناء سلطتنا الفلسطينية على تلك الاراضي».

بعد أشهر قليلة على عودته الى غزة، قام عرفات بزيارته الأولى الى الضفة الغربية، حيث كان والدي مع عشرات القادة الدينيين والسياسيين ورجال الأعمال متجمّعين لاستقباله. واذ كان يصافحهم واحداً واحداً، وصل زعيم منظمة التحرير الفلسطينية الى الشيخ حسن يوسف، والدي، ثم انحنى وقبّل يده، مميزاً اياه على اعتباره قائداً دينياً بالاضافة الى كونه قائداً سياسياً ايضاً.

وفي خلال السنة التالية، اجتمع والدي وقادة آخرون من حماس مرات عديدة مع عرفات في مدينة غزة، في محاولة لاجراء مصالحة بين حماس والسلطة الفلسطينية، وتوحيد الموقف الفلسطيني في الأمور السياسية. الا أن المباحثات بين الطرفين باءت بالفشل، بسبب رفض حماس القاطع الاشتراك في عملية السلام. وفي النهاية، كانت العقائد الدينية والأهداف السياسية بعيدة كل البعد عن امكان اجراء اي مصالحة بينها.

تحولت حماس الى حركة ارهابية بالكامل، وتسلق العديد من أعضائها سُلم الاسلام وصولاً الى القمة. ولم يكن للقادة السياسيين المعتدلين نظير والدي، ان يشيروا على العناصر المسلحة بأن ما يقومون به من هجمات هو تعدّ غير مقبول. فلم يكن بامكانهم قول هذا. على أساس أي مبدأ يقولون لهم انكم مخطئون؟ فالقرآن نفسه يؤيد ويدعم الأعمال الارهابية التي يقوم بها مسلحو حركة حماس. ومع أن والدي لم يقتل شخصاً في حياته، ولكنه كان موافقاً على الأعمال الهجومية التي قامت بها الحركة. ولعجزها عن القاء القبض على الشباب الذين كانوا يقومون بأعمال العنف، كانت اسرائيل تلجأ دائماً الى ملاحقة الأهداف السهلة كوالدي. وربما كان في ظنها أنه بالقاء القبض عليه لكونه قائداً في حماس، سيحمل الحركة على التوقف عن الهجمات التي كانت تقوم بها.

لم تحاول اسرائيل مرة واحدة معرفة من او ما هي حماس على حقيقتها. وقد كلفها ذلك سنوات طويلة مؤلمة، قبل ادراك ان حماس ليست منظمة بالمفهوم الشائع للمنظمات ذات القوانين والتسلسل الهرمي لقياداتها. كانت حماس شبحاً. مجرد فكرة. فانك لا تستطيع تهديم فكرة مجردة. ولكنك يمكن تطويرها. حماس كانت مثل الدودة المسطحة. لا تقطع لها رأساً حتى يبرز لها آخر.

المشكلة في حماس هي ان هدفها المنطقي الأساسي لم يكن الا وهماً وسراباً. لقد حاولت كل من سوريا ولبنان والعراق والاردن ومصر مرات عديدة رمي اسرائيل في البحر، وتحويل أرضها الى دولة فلسطينية، الا انها فشلت فشلاً ذريعاً. حتى صدام حسين وصواريخ «سكود» التي أطلقها على اسرائيل، لم تفعل شيئاً. لقد كان على اسرائيل ان تتبادل الأوضاع مع ملايين اللاجئين الفلسطينيين، لكي يصبح بامكان هؤلاء استعادة منازلهم ومزارعهم وممتلكاتهم التي خسروها منذ أكثر من نصف قرن. ولكن، لان هذا الأمر لن يحدث على الاطلاق، فان حماس بدت بسياستها وكأنها «سيسيفوس» المعاقب للأبد بحسب الأسطورة اليونانية. فقد عوقب «سيسيفوس» بأن يحمل صخرة من أسفل الجبل الى أعلاه. وكلما وصل الى القمة تتدحرج الصخرة الى الوادي، فيعود الى اصعادها مرة جديدة الى القمة. ويظل على هذه الحال الى الأبد. وهكذا، لم يكن لحماس هدف معقول يمكن تحقيقه.

ومع ذلك، فان الذين كانوا يدركون استحالة تحقيق حماس أهدافها، تمسكوا

بايمانهم بان الله سيهزم اسرائيل يوماً، حتى لو اضطر لعمل ذلك بأسلوب خارق للطبيعة.

بالنسبة لاسرائيل، كان القوميون في منظمة التحرير الفلسطينية، بكل بساطة، مشكلة يمكن علاجها من خلال حل سياسي. أما حماس، فقد أسلمت القضية الفلسطينية، جاعلة منها قضية دينية لا يمكن معالجتها الا من خلال حل ديني، ما يعني ان المسألة لن تعرف حلاً ابداً. فنحن نؤمن بأن الأرض هي ملك لله، وان هذا الأمر نهائي لا يحتمل النقاش اطلاقاً. لذلك، فالمشكلة العظمى بالنسبة لحماس لم تكن في السياسات الاسرائيلية، انما في وجود اسرائيل نفسها كدولة مستقلة.

لكن، ماذا عن والدي؟ هل أصبح هو أيضاً ارهابياً؟ في احدى الأمسيات، قرأت عنواناً في احدى الصحف عن عملية انتحارية نفذت حديثاً (عملية استشهادية كما يحلو لبعض مسؤولي حماس تسميتها)، قتل خلالها عدد من المدنيين، كان بينهم نساء وأطفال. كان مستحيلاً عليّ ان أجمع في ذهني بين لطف والدي وطبيعته الرقيقة، وكونه قائداً في منظمة ترتكب هذا النوع من الهجمات الارهابية. أشرت الى المقال باصبعي وسألته عن مشاعره تجاه هكذا أعمال، فأجابني: «غادرت المنزل مرة، واذا بي أرى حشرة في الخارج. ففكرت مرتين: هل أقتلها أو أعفو عنها. وأخيراً تركتها». قصد والدي من الجواب غير المباشر هذا، القول انه لا يمكنه شخصياً المشاركة في هذا النوع من القتل غير المبرّر. ولكن، مهلاً، المدنيون الاسرائيليون ليسوا حشرات.

كلا، لم يصنع والدي القنابل، ولم يزنّر بها أجساد الانتحاريين، كما انه لم يختر لهم الأهداف لتفجيرها. ولكن بعد سنين عديدة، تذكرت جواب والدي عندما قرأت قصة في الانجيل المسيحي، عن رجم شاب بريء يدعى استفانوس، حيث يقول الكاتب في سفر أعمال الرسل ٨ : ١ «وكان شاول راضياً بقتله».

أحببت والدي من أعماق قلبي. وقد أعجبت كثيراً بشخصيته، وبالمبادىء التي تمسك بها. ولكنه، كرجل لم يكن بمقدوره ايذاء حشرة، كان واضحاً انه يؤيد فكرة ان يقوم شخص ما بتفجير الناس وتحويل أجسادهم الى أشلاء، طالما انه شخصياً لا يلطخ يديه بدمائهم.

في تلك اللحظة، بدأت نظرتي تجاه والدي تأخذ منحىً أكثر تعقيداً.

الفصل التاسع

أسلحة

شتاء ١٩٩٥ ـ ربيع ١٩٩٦

بعد توقيع اتفاقية أوسلو، انتظر المجتمع الدولي ان تقوم السلطة الفلسطينية بوضع حركة حماس تحت المراقبة. يوم السبت، الرابع من تشرين الثاني عام ١٩٩٥، توقف بث البرنامج التلفزيوني الذي كنت أتابعه، ليعلن المذيع خبراً عاجلاً عن اصابة رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين بالرصاص، أثناء مشاركته في ميدان الملوك بتل أبيب باحتفال لدعم عملية السلام.

شعرت بأن الوضع خطير جداً. وبعد ساعتين على هذا الخبر، أعلنت السلطات الرسمية وفاة رابين.

لم يكن أحد معي في الغرفة. ولكن هذا لم يمنعني من الصراخ بصوت عال «واو. يبدو ان احدى الفصائل الفلسطينية لا تزال تمتلك من القوة ما يكفي لاغتيال رئيس الوزراء الاسرائيلي. كان لا بد أن يحصل هذا منذ زمن طويل». كنت سعيداً جداً لموت رابين، وللضرر الذي سيصيب منظمة التحرير الفلسطينية وسياسة الاذعان المذل التي تتبعها مع اسرائيل.

رن جرس الهاتف. وعندما تكلم الشخص من الطرف الآخر، عرفت للحال انه

مكتب ياسر عرفات، الذي طلب التحدث الى والدي.

خلال المحادثة، لم يتكلم أبي كثيراً، ولكنه أظهر الكثير من اللطف والاحترام في اجاباته، كما أنه أبدى موافقةً على جميع ما كان عرفات يقوله.

وعندما أنهى المحادثة بقوله: «أفهم ذلك. الى اللقاء». التفت اليّ وقال: «عرفات يطلب ان لا ندع حماس تقيم الاحتفالات بموت رئيس الوزراء». وأضاف: «عملية الأغتيال شكلت خسارة فادحة لعرفات، لأن رابين أظهر شجاعة سياسية غير عادية بدخوله في مفاوضات سلام مع منظمة التحرير الفلسطينية».

علمنا في ما بعد ان رابين لم يُقتل بيد فلسطيني، انما بيد طالب اسرائيلي يدرس الحقوق، وقد أطلق عليه النار من الخلف.

شعر الكثيرون في حماس بخيبة الأمل. أما أنا، فقد رأيته أمراً يدعو للسخرية، ان يقوم متعصب يهودي بتحقيق أحد أهداف حماس.

عملية الاغتيال وضعت العالم كله على شفير الهاوية، فيما شدد زعماء العالم ضغوطهم على ياسر عرفات لفرض سيطرته الكاملة على الأراضي الفلسطينية. واذ قرر اتخاذ اجراءات صارمة بحق حماس، زار عناصر من شرطة السلطة الفلسطينية منزلنا، وطلبوا من والدي تحضير نفسه للذهاب معهم، ثم احتجزوه في احدى غرف المُجمّع الذي كان يسكن فيه عرفات، الا انهم كانوا يعاملونه بغاية اللطف والاحترام.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يَسجن فيها فلسطينيون فلسطينيين آخرين. كان الأمر قبيحاً جداً. ولكنهم على الأقل كانوا يعاملون والدي باحترام شديد. فعلى عكس الآخرين، تم وضعه في غرفة مريحة، وكان عرفات يزوره من حين لآخر ليناقش معه مختلف المواضيع.

لم يدم الوقت طويلاً قبل ان يصبح كبار قادة حماس، مع آلاف من عناصر الحركة، محتجزين في السجون الفلسطينية. وقد تم تعذيب العديد منهم بهدف الحصول على معلومات، كما لقي آخرون حتفهم، وكثير من الذين عمدوا الى الفرار أصبحوا مُطاردين، ولم يتوقفوا عن القيام بالهجمات الارهابية ضد اسرائيل.

هذه الحالة جعلت الكراهية التي في قلبي تتخذ اتجاهات متعددة. فقد كرهت السلطة الفلسطينية وياسر عرفات، وكرهت اسرائيل، وكرهت العلمانيين الفلسطينيين. وكنت أتساءل دائماً: «لماذا على والدي الذي يحب الله ويحب

شعبه ان يدفع ثمناً باهظاً، بينما العلمانبون كياسر عرفات ومنظمته لتحرير فلسطين يقدّمون انتصاراً عظيماً للاسرائيليين، الذين شبّههم القرآن بالخنازير والقردة؟». وفوق هذا، فقد صفق العالم كله لاسرائيل، لأنها تمكنت من حمل الارهابيين على الاعتراف بحقها في الوجود.

كنت في السابعة عشرة من العمر، وتخرجي من الثانوية العامة كان على بعد أشهر قليلة فقط. ومع كل زيارة قمت بها لوالدي في السجن، حاملاً معي طعاماً من صنع أمي، أو أي شيء آخر يجعله أكثر راحة في معتقله، كان يشجعني قائلاً: «ان أهم شيء عليك أن تقوم به هو النجاح في امتحاناتك المدرسية. ركّز على الدرس ولا تقلق في شأني. لا أريد ان يؤثر وضعي على أي شيء آخر». أما أنا، فلم يعد للحياة معنىً عندي، ولم يكن يشغل بالي الا الانخراط في الجناح العسكري لحماس، كي آخذ بالثأر من اسرائيل والسلطة الفلسطينية. تأملت بكل الأشياء التي شاهدتها واختبرتها في حياتي، ولم يرضني ان تنتهي كل المعاناة والتضحيات، بهذا السلام البخس مع اسرائيل. فلو قتلت وأنا أقاوم اسرائيل، على الأقل سأموت شهيداً وستكون الجنة من نصيبي.

لم يعلمني والدي الكراهية أبداً، ولكنني لم أعرف كيف أتجنب الشعور بها. فمع أنه حارب الاحتلال بكل جوارحه، ولم يكن ليتردد باعطاء الأوامر لتدمير دولة اسرائيل بقنبلة ذرية لو تمكن من الحصول عليها، الا انه لم يكن يتناول الشعب اليهودي بكلام السوء، كما كان يفعل القادة الأصوليون في حماس. كان اهتمامه الأول هو اله القرآن وليس السياسة. فالله كلفنا باستئصال اليهود. ووالدي لم يكن يعارض هذا. الا انه شخصياً لم يكن لديه شيء ضدهم.

«كيف هي علاقتك بالله؟ هل صليت اليوم؟ هل بكيت أمامه وأمضيت بعض الوقت معه؟». هذه الأسئلة كان يطرحها أبي عليّ كلما زرته في السجن. لم يقل لي أبداً أنه يريدني أن أصبح مجاهداً. وكانت نصيحته الدائمة لي على اعتباري ابنه البكر، ان أعيش في رضى والدتي ورضى الله وأن أكون صالحاً مع شعبي.

لم أكن أفهم كيف يمكن لوالدي ان يكون بهذا القدر من رهافة الأحساس والقدرة على الغفران، حتى تجاه الجنود الذين أتوا مرة تلو المرة لالقاء القبض عليه. كان يعاملهم كما يعامل الأطفال. عندما كنت أحضر له طعاماً الى مجمع السلطة الفلسطينية حيث كان محتجزاً، كان يدعو حراس السجن لمشاركتنا طبق اللحم

والأرزّ الشهي الذي أعدته أمي بشكل مميز. وبعد أشهر عدة، صار هؤلاء الحراس يكنون له المحبة والاحترام. لقد كان سهلاً عليّ جداً ان أحب والدي، لكنه في نفس الوقت كان رجلاً ذا طبيعة عصيّة على الفهم.

في تلك الأيام، أصبحت الأسلحة متوفرة في الأراضي الفلسطينية، الا انها كانت باهظة الثمن، وكنت أنا طالباً ينقصه المال. وبدل ان أركز جهودي للنجاح في دروسي والتخرج من الثانوية العامة، أصبح كل اهتمامي السعي لامتلاك السلاح مهما كلف الأمر.

زميلي في الفصل الدراسي «ابراهيم كسواني»، وهو من قرية قريبة من القدس، كان يشاركني الرغبة نفسها. فقال لي انه يمكنه الحصول على المال، ولكن ليس بما يكفي لشراء أسلحة ثقيلة، انما لشراء بعض البنادق الرخيصة الثمن ومسدس ان أمكن. ولأنني لا أعرف شيئاً عن الموضوع، قصدت ابن عمي يوسف داود ليرشدني الى مكان أستطيع منه شراء بعض الأسلحة.

لم أكن وابن عمي على علاقة حميمة كما كان مفترضاً. ولكنني كنت أعرف انه يملك الكثير من العلاقات التي يمكن ان تفيدني. فقالي لي: «لدي صديقان في نابلس يمكن ان يقدما لنا المساعدة. ولكن، لماذا تريد الأسلحة؟». فأجبت كاذباً: «الأسلحة موجودة في كل منزل، وأنا أريد سلاحاً لحماية عائلتي».

ما قلته لم يكن كذباً بالمعنى الحقيقي للكلمة. فابراهيم كان يعيش في قرية تمتلك فيها كل العائلات سلاحاً للدفاع عن النفس، وهو كان بمثابة أخ لي.

فبالاضافة الى رغبتي بالانتقام، وَجدتُ كمراهق أن حَمْل السلاح سيُشعرُني بالكثير من الزهو والعُجْب. فلم أعد أهتم كثيراً بدروسي، وكنت أتساءل عن الفائدة من الذهاب الى المدرسة في هذا البلد المجنون.

وأخيراً، اتصل بي ابن عمي في احدى الأمسيات وقال لي: «أوكي، سنذهب الى نابلس. أعرف شخصاً يعمل في قوى الأمن التابعة للسلطة الفلسطينية. وأظن ان بامكانه تأمين بعض الأسلحة لنا».

عندما وصلنا الى نابلس، قابلنا رجل عند مدخل منزل صغير، قبل ان يسير أمامنا الى الداخل. وهناك عرض علينا رشاشاً سويدي الصنع من طراز «كارل غوستاف ام ٤٥» نصف اوتوماتيكي، وآخر من طراز «بور سعيد»، وهو النسخة المصرية الصنع لنفس السلاح. ولكي نختبر هذه الأسلحة، أخذنا الرجل الى منطقة

نائية في الجبال، وأخذ يطلق منها النار. ويا لهول المفاجأة التي صعقتني، عندما طلب مني الرجل ان أختبر هذه الاسلحة بنفسي. فبدأ قلبي يخفق بسرعة لشدة الخوف، اذ أنني لم أكن قد أطلقت النار من سلاح حربي من قبل. ولكي أعفي نفسي من هذه المهمة المستحيلة، قلت للرجل: «لا. فأنا أثق بك».

اشتريت من الرجل قطعتي «غوستاف» ومسدساً صغيراً، وخبأتها في باب سيارتي، بعد ان رششت عليها القليل من البهار الأسود، لكي أضلل الكلاب البوليسية التي يمكن ان تكتشفها عند توقفي على الحواجز الاسرائيلية.

في طريق عودتنا الى رام الله، اتصلت بصديقي ابراهيم وأخبرته أنني حصلت على الأغراض. فقال: «حقاً». قلت: «حقاً».

كنا نعلم انه لا يجب علينا استخدام كلمات «بنادق» أو «أسلحة»، لاننا كنا نشكك بكون الاسرائيليين يتنصتون على كل ما نقوله على الهاتف. ضربت موعداً لابراهيم ليأخذ «أغراضه»، وأنهينا المكالمة على عجل، «تصبح على خير».

كان ذلك في ربيع العام ١٩٩٦. لقد أصبحت في الثامنة عشرة، وكنت مسلحاً.

في احدى الليالي، اتصل بي زميلي ابراهيم، ومن لهجته على الهاتف عرفت حالاً انه غاضب جداً. ولما سألته عن السبب، صرخ بأعلى صوته: «البنادق غير صالحة للعمل». فصرخت بدوري: «عم تتكلم يا رجل». وكنت أرجو أنّ أحداً لا يتنصت على المحادثة الجارية بيننا. فأعاد جوابه قائلاً: «البنادق غير صالحة للعمل. لقد خدعنا الرجل». فأجبت: «أنا لا أستطيع التحدث اليك الآن». فقال: «حسناً، ولكنني أريد رؤيتك الليلة». وعندما وصل الى منزلي، سارعته بالقول: «هل أنت مجنون لتتحدث بهذه الطريق على الهاتف؟». فأجاب: «أعرف. ولكن البنادق لم تعمل كما يُفترض بها. المسدس جيد، ولكن البنادق الرشاشة لا تطلق النار». فقلت: «حسناً، انها لا تعمل. ولكن، هل أنت متأكد من أنك تعرف كيفية استعمالها؟». واذ أكّد لي أنه يعرف، طلبت منه ان يترك الأمر لي لأرى ماذا يمكن أن أفعل. ومع أنه لم يكن لديّ سوى أسبوعين لامتحانات الثانوية العامة النهائية، ولا وقت لديّ لكل هذه الأمور، الا أنني أجريت الترتيبات اللازمة لاعادة البنادق غير الصالحة الى يوسف.

وعندما تقابلنا، قلت له: «هذه كارثة. المسدس يعمل. ولكن البنادق الرشاشة

لا تعمل. اتصل بأصدقائك في نابلس، لعله يمكننا على الأقل استرجاع نقودنا منهم». فوعدني أنه سيحاول.

في اليوم التالي، تلقيت من أخي الأصغر صهيب الأخبار المزعجة التي طالما خشيتها. «عناصر من قوى الأمن الاسرائيلية حضروا الى منزلنا الليلة الماضية، وطلبوا رؤيتك». قال هذا بصوت مرتجف وهادىء ينمّ عن القلق الذي كان يعتريه.

«ماذا؟ انني لم أقتل أحداً بعد». هذه كانت الفكرة الأولى التي قفزت الى ذهني عند سماعي الخبر. ومع أنني شعرت بالخوف، الا أن احساساً خفيفاً تسرّب الى داخلي، وأشعرني بأهمّيتي كشخص أصبح يشكل خطراً على اسرائيل. في الزيارة التالية التي قمت بها لرؤية والدي، أخبرني بأنه يعلم يقيناً ان السلطات الاسرائيلية تبحث عني. وسألني بوجه متجهّم: «ما الذي يحصل؟». فأخبرته الحقيقة كاملة. واذ امتلأ غضباً، كان يمكنني بوضوح رؤية الاحساس بخيبة الأمل والقلق الشديد عليّ، يقفان خلف هذا الغضب.

«هذا أمر خطير جداً» قال والدي محذراً، وأضاف: «لماذا أدخلت نفسك في هذه المعمعة؟ كل المطلوب منك هو ان تعتني بوالدتك وأخوتك وأخواتك، وليس البحث عن مكان تختبىء فيه من الاسرائيليين. ألا تفهم أنهم لن يتورعوا عن قتلك؟».

عندما رجعت الى المنزل، أسرعت الى وضع كتبي وبعض الثياب في حقيبة، وقصدت بعض الطلاب من جماعة الأخوان المسلمين، سائلاً اياهم تدبير مكان أختبىء فيه، ريثما أنتهي من امتحاناتي المدرسية.

لم يستوعب زميلي ابراهيم خطورة الوضع الذي كنت أعاني منه. فهو لم يتوقف عن الاتصال بي، حتى على رقم الهاتف الخليوي الذي يخص والدي، مطالباً اياي باعادة النقود التي صرفناها على شراء الأسلحة المعطلة. ولما أخبرته عن مطاردة السلطات الأمنية الاسرائيلية لي، لم يكترث، وكان يصيح على الهاتف ويتفوّه بكلمات تشكل خطراً على كلينا. فما كان مني الا ان قطعت الاتصال، لئلا يتلفظ بالمزيد من الأقوال التي يمكن ان تكون دليلاً ضدنا لدى السلطات الأمنية الاسرائيلية. ومع هذا، فقد زاره في اليوم التالي عناصر من جيش الدفاع الاسرائيلي، وعملوا على تفتيش منزله. وحالما عثروا على المسدس، قاموا باعتقاله فوراً.

أحسست بالضياع. لقد وضعت ثقتي في أشخاص لم يكونوا على مستوى الآمال. والدي المسجون كان خائباً مني، ووالدتي قد أعياها القلق الشديد عليّ، وكان عليّ الدرس من أجل الامتحانات المدرسية، وكنت مطلوباً من قبل السلطات الاسرائيلية.

ترى، هل يمكن ان يكون هناك ما هو أسوأ؟

الفصل العاشر

المسلخ

١٩٩٦

على رغم التدابير الاحتياطية التي اتخذتها في تنقلاتي وأماكن وجودي، تمكنت السلطات الأمنية الاسرائيلية من اقتفاء أثري، عن طريق التنصّت على مكالماتي الهاتفية مع ابراهيم، فألقت القبض عليّ. وها أنا الآن مكبّل اليدين ومعصوب العينين، ومحشور في مؤخرة جيب عسكري، أحاول عبثاً تجنب الركلات والضرب بأعقاب البنادق.

بعد رحلة طويلة شعرت وكأنها استغرقت ساعات عدة، توقف بنا الجيب أخيراً في مكان ما، ثم قادني الجنود صعوداً على الأدراج. ولكوني لا أستطيع الرؤية، جذبني هؤلاء بالقيود المربوطة بشدة حول معصميّ، ما أدى الى حدوث نزيف فيهما. كما أني فقدت الاحساس بيديّ لسبب الخدر الذي لفّهما. وفيما كنا نسير، كنت أسمع حركة أشخاص في المكان وهم يتحدثون باللغة العبرية.

تم اقتيادي الى غرفة صغيرة حيث نزعوا عني العصابة والقيود. وبعينين بهرهما النور، نظرت بسرعة الى ما حولي، فلم أر سوى مكتب صغير موضوع في زاوية الغرفة الخالية من الأثاث. تساءلت في نفسي عما يمكن للجنود ان يكونوا قد

خبأوا في جعبتهم من مفاجآت أخرى لي. هل سيُخضعونني للاستجواب؟ هل سأتعرض للمزيد من الضرب او التعذيب؟ لم تدم تساؤلاتي طويلاً. فبعد دقائق قليلة فقط، فتح جندي شاب الباب ودخل. كان يضع خزامة في أنفه، وعرفت من لكنته أنه من اليهود المهاجرين الى اسرائيل من روسيا، كما انه كان واحداً من الجنود الذين أشبعوني ضرباً وركلاً في الطريق الى حيث أنا الآن. أمسك هذا الجندي بيدي، وقادني وراءه في سلسلة ممرات طويلة ومتعرجة الى غرفة صغيرة أخرى، كان يوجد فيها مكتب قديم وُضعت عليه آلة لفحص ضغط الدم، وجهاز كومبيوتر وتلفزيون صغير. ما أن دخلت الغرفة، حتى فاحت منها رائحة كريهة جداً تزكم الأنفاس، فسددت أنفي بيدي لئلا أتقيأ مرة أخرى.

دخل وراءنا رجل يلبس بزة خاصة بالأطباء، تبدو عليه امارات التعب وعدم الرضى. وما أن رأى وجهي المصاب بالندوب والجروح، وعينيّ المتورّمتين، حتى علت الدهشة وجهه. الا انه لم يظهر أية علامة من علامات الشفقة على حالي. لقد حسدت الحيوانات التي يعاملها الأطباء البيطريون بلطف وطول أناة، أكثر مما عاملني هذا الطبيب بينما كان يجري لي فحصاً عاماً.

بعد ذلك، دخل الى الغرفة أحد الحراس بلباس الشرطة، وطلب مني الاستدارة ليضع القيود في يديّ، ثم غطّى رأسي بكيس قماشي أخضر اللون، جعلني أدرك للحال مصدر الرائحة الكريهة. لم يُغسل هذا الكيس في حياته أبداً، وقد كان مشبعاً بروائح فم وأسنان مئات المعتقلين الذين تمت تغطية رؤوسهم به. حاولت حبس أنفاسي، الا أنني كنت أعود لاستنشاق الرائحة مرغماً، ولتذوّق الطعم المقزّز للكيس حين يلامس شفتيّ. لقد عانيت الأمرّين، وشعرت بأنني سأموت اختناقا ان لم يُخرج أحدُهم رأسي من الكيس.

قام الحارس بتفتيشي، فأخذ أغراضي كلها، بما في ذلك الحزام وسيور الحذاء. ثم أمسك بالكيس الذي على رأسي، وجرّني به في الممرات الداخلية، فكنا نميل يمنة، ثم يسرة، فيسرة مرة أخرى، فيميناً ثم يميناً آخر. لم أكن أعلم أين أنا، أو الى أي مكان يأخذني. ولكن الحارس توقف أخيراً، وطلب من شخص ما أن يعطيه مفتاحاً، ثم فتح باباً بدا لي من صوته أنه غليظ وثقيل. وقبل ان نواصل السير، حذرني من وجود درج كان علينا ان نتخذه نزولاً. ومن خلال الكيس القماشي، استشعرت وميضاً لأنوار كتلك التي تكون عادة على سيارات الشرطة.

عندما خلع الحارس الكيس عن رأسي، وجدت نفسي واقفاً امام حاجز من الستائر، ورأيت عن يميني سلة مليئة بالأكياس القماشية. انتظرنا دقائق معدودة قبل ان نسمع صوتاً من وراء الستائر يدعونا للدخول، فكبّل الحارس قدميّ بالأصفاد، وأدخل رأسي مرة جديدة في كيس قماشي آخر، أمسكه وجرّني به الى ما داخل الستائر.

أحسست بهواء بارد ينساب من فتحات التهوئة، وسمعت صوت موسيقى صاخبة آتياً من بعيد. ويبدو ان الممر الذي كان الحارس يقتادني خلاله ضيق، اذ كنت اصطدم بالجدران عن اليمين وعن اليسار، فشعرت بالدوار والاعياء. توقفنا مرة ثانية، ليفتح الجندي باباً دفعني عبره الى الداخل، ثم نزع الكيس عن رأسي قبل أن يقفل الباب الثقيل بالمفتاح ويغادر.

نظرت حولي مستطلعاً المكان، فاذا هي زنزانة تبلغ مساحتها حوالي ستة أقدام مربعة، بالكاد اتسعت لفراش صغير على الأرض وبطانيتين، حوّل النزيل الذي كان قبلي احداهما الى وسادة. جلست على الفراش الذي كان ملطخاً ببقع لزجة، وقد فاحت منه رائحة شبيهة برائحة الكيس القماشي المقززة. واذ رفعت قبة قميصي لأغطي أنفي، فأتحاشى تنشق الروائح النتنة، فاحت من القميص رائحة القيء الذي كنت قد تقيأته في ذلك اليوم. النور الخافت في الغرفة كان مصدره مصباح تدلى من السقف، لكنني لم أستطع ايجاد المفتاح الكهربائي الذي يشغله. كما ان النافذة الوحيدة فيها كانت فتحة صغيرة في الباب. كان الهواء رطباً، والأرض مبللة بالمياه، والعفن يغطي الجدران الاسمنتية. وفوق هذا، كانت الحشرات من كل نوع تسرح وتمرح في أرجاء الغرفة. كل شيء كان كريهاً وقذراً وقبيحاً.

جلست طويلاً وأنا لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل. بعد ذلك شعرت بحاجة لاستخدام المرحاض، الذي كان في زاوية الغرفة وقد علاه الصدأ. بعدما انتهيت ودفعت بمقبض الماء، ندمت وتمنيت لو أنني لم أفعل. فقد فاضت المياه المبتذلة من المرحاض وانسكبت في أرض الغرفة، وبللت الفراش من جميع جوانبه.

جلست في ركن من الزنزانة لم تصله المياه، محاولاً تجميع أفكاري. فيا له من مكان أقضي فيه ليلتي. عيناي المتورّمتان أخذتا تنبضان مع خفقات قلبي، وقد سببتا لي ألماً شديداً. وشعرت بأنه يستحيل عليّ تنفس هواء الزنزانة برائحتها النتنة. كما أنني لم أطق شدة الحرّ فيها، فيما ثيابي المتبللة عرقاً قد لصقت

بجسمي.

لم آكل أو أشرب شيئاً منذ آخر مرة شربت كأساً من حليب الماعز في منزل أمي. واذ تقيأته على ثيابي خلال النهار، لم يبق منه الا رائحة الحموضة أتنشقها رغم أنفي. الأمل الوحيد الذي تراءى لي ممكناً، هو انعاش نفسي بمياه حنفية برزت من الحائط بقربي. وعندما أدرتها، خرجت المياه كثيفة وبنية اللون.

«ترى، كم الساعة الآن؟ هل سيتركونني هنا طوال الليل؟». هذا كان تساؤلي المتواصل. شعرت برأسي وكأنه مسحوق. وكنت أعلم أنني لن أقوى على النوم. الأمر الوحيد الذي كنت قادراً على عمله هو أن أصلي الى الله. فسألته ان يحميني ويحفظني سالماً، ويعيدني الى عائلتي بأسرع ما يمكن.

من خلال الباب الحديدي الغليظ، كنت قادراً على سماع صوت موسيقى صاخبة تلعلع من بعيد. كان يعاد لعب الشريط مرة بعد المرة بدون توقف. وقد ساعدني هذا الأمر على التوقف عن التفكير بوضعي المزري، من خلال احتساب عدد المرات التي كان يعاد فيها الشريط.

لقد ردد المغني ليونارد كوهين مرةً بعد مرة:

«لقد حكموا عليّ بقضاء عشرين سنة في حال الملل
لأنني حاولت تغيير النظام من الداخل.
أنا آت الآن. أنا آت لأكافئهم.
أخذنا مانهاتن أولاً، ثم أخذنا برلين.
اشارة من السماوات ترشدني.
هذه العلامة الخلقية على جسدي ترشدني.
يرشدني جمال الأسلحة.
أخذنا مانهاتن أولاً، ثم أخذنا برلين». (هذه تعاد أربع مرات).

ومع صوت الموسيقى، كنت أسمع من بعيد أصوات أبواب كثيرة تفتح وتغلق. وبدأت هذه الأصوات تقترب شيئاً فشيئاً، الى أن فتح أحدهم باب زنزانتي، ودفع الى الداخل بطبق طعام أزرق اللون، قبل ان يصفق الباب خلفه. نظرت الى الطبق الذي استقر على مياه المرحاض الآسنة على الأرض، فكان يحتوي على بيضة مسلوقة، وقطعة واحدة من الخبز، وحوالي ملعقة من اللبن المختر وثلاث حبات زيتون، بالاضافة الى كوب ماء من البلاستيك. عندما رفعت الطبق الى حضني،

اختلطت الروائح في أنفي. شربت قليلاً من الماء، وغسلت يديّ بما تبقّى. ومع أنني أكلت كل شيء، لكنني بقيت جائعاً. ولم أدر ما اذا كان ذلك طعام الفطور. كما أنني لم أعرف في أي ساعة من النهار نحن. وقدّرت اننا ربما في فترة بعد الظهر.

وفيما كنت لا أزال أحاول معرفة كم من الوقت مضى وأنا على هذه الحال، فتح باب زنزانتي، واذا بواحد، أو شيء ما، يقف هناك. لم أتأكد ان ما رأيته يمكن ان يكون انساناً. فقد كان قصير القامة، ويبدو انه في حوالي الخامسة والسبعين من العمر، وكان منظره كمنظر قرد أحدب. واذ بدأ يصرخ فيّ بلكنة روسية، أخذ يشتمني ويلعن الله، ثم بصق في وجهي. لا أستطيع تخيّل شيء أفظع من هذا تعرضت له في حياتي.

يبدو أن «هذا الشيء» كان من الحراس، لأنه دفع اليّ كيساً قماشياً كريهاً، وطلب مني ان أضعه على رأسي. ثم أمسك به وجرّني في الممر بخشونة. وبعد أن فتح باب أحد المكاتب، دفعني الى الداخل، وأجلسني بالقوة على احدى الكراسي البلاستيكية الصغيرة المنخفضة، التي تشبه كراسي الأطفال في صفوف المدارس الابتدائية. وكانت الكرسي مثبتة في الأرض. تكبيل يديّ هذه المرة كان مختلفاً. فقد وضع الحارس احدى يديّ بين أرجل الكرسي، والأخرى من الجهة الخارجية لها، وكبّلهما، ثم وضع الأصفاد في رجليّ. كان الكرسي مائلاً، ما أجبرني على الانحناء الى الأمام بشكل دائم. وعلى عكس زنزانتي الأولى، كانت هذه الغرفة شديدة البرودة. وقدّرت ان تكون ابرة المكيّف مثبتة على درجة الحرارة صفر.

بقيت في هذا الوضع المؤلم ساعات عديدة، لم أستطع خلالها التحكم بجسدي الذي كان يرتجف من البرد القارس. فقد كان ظهري متقوساً بطريقة مؤلمة، لم يكن ممكناً معها تغيير وضعه الى حالة أقل ألماً. كما حاولت تنفس أقل قدر من الهواء، الذي كنت أستنشقه من خلال الكيس القماشي الكريه. كنت جائعاً ومرهقاً فيما كانت عيناي تزدادان ورماً ونزفاً.

وفيما أنا على هذه الحال المزرية، فتح أحدهم الباب، ورفع الكيس عن رأسي. فاندهشت لرؤية شخص مدني ليس من الجنود او الحراس. جلس الزائر على طرف المكتب الموجود في الغرفة، بحيث كانت ركبته على ذات مستوى رأسي تماماً.

«ما اسمك؟».

« أنا مصعب حسن يوسف » .
« هل تعرف أين أنت؟ » .
« لا » .

هزّ الزائر رأسه وقال : « البعض يطلقون عليه اسم الليل الحالك . وآخرون يسمونه المسلخ . أنت في ورطة كبيرة يا مصعب » .

حاولت ألا أظهر مشاعري اطلاقاً، فركزت نظري على بقعة في الحائط خلف رأس الرجل الذي أضاف : « كيف هو حال والدك في سجن السلطة الفلسطينية؟ هل يجد هناك متعة أكثر مما في السجون الاسرائيلية؟ » . تململت قليلاً في مقعدي مصمماً على عدم الاجابة . فأضاف الرجل : « هل تعلم أنك موجود في نفس المكان الذي كان فيه والدك لدى اعتقاله للمرة الأولى؟ » .

عرفت من هذا الكلام أنني في مركز اعتقال المسكوبية الى الغرب من مدينة القدس . لقد أخبرني والدي عن هذا المكان . فهو كان في ما مضى كنيسة أرتوذكسية روسية، بنيت منذ ستمئة عام . بعد احتلال اسرائيل القدس، حوّلت الحكومة هذا المكان الى مركز أمني محصّن، يتضمن مراكز للشرطة ومكاتب ومركز تحقيقات يعود لدائرة المخابرات المركزية شين بيت .

الطبقات السفلية العميقة في هذا المبنى خصصت لتكون سجناً . فقد كانت سوداء ومظلمة وملوثة وكأنها زنزانات القرون الوسطى الموبوءة بالجراذين كما نراها في الأفلام . كان صيت المسكوبية رديئاً جداً .

ها أنا الآن أعاني نفس العقاب الذي تحمله والدي قبلي . وهؤلاء هم نفس الرجال الذين ضربوه وعذبوه طوال السنوات الماضية . لقد أمضوا وقتاً طويلاً يعملون على قضيته، وصاروا يعرفونه جيداً . ومع ذلك، فهم عجزوا عن كسر ارادته، وهو بقي ثابتاً ولم يقدر أحد أن ينال من صموده .

« أخبرني لماذا أنت هنا؟ » قال الرجل . فأجبت « ليست لديّ أية فكرة » . طبعاً، كنت أتصوّر أن شرائي لتلك البنادق التافهة التي لا تعمل، هو السبب في القاء القبض عليّ . أحسست بظهري وكأنه يشوى بالنار، عندما أمسك المحقق بذقني ورفع رأسي عالياً وقال : « أنت تريد ان تكون قوياً كوالدك . أنت لا تملك أدنى فكرة عما ينتظرك خارج هذه الغرف . قل لي ماذا تعرف عن حماس . أية أسرار لديك . أخبرني عن الحركة الطالبية الاسلامية . أريد أن أعرف كل شيء » .

هل كان المحقق يظن فعلاً أنني شخص خطير؟ لم أقو على تصديق هذا. ولكن، كلما أمعنت التفكير، كنت أدرك أنه ربما يظن فعلاً أنني خطير. فمن وجهة نظره، كان يكفي أن أكون ابناً للشيخ حسن يوسف، وأعمل على شراء أسلحة أوتوماتكية، لتثار عنده الشكوك في حقيقة نواياي.

هؤلاء الرجال سجنوا والدي وأذاقوه مرّ العذاب، وها هم الآن على أتم الاستعداد للتعامل معي بالمثل. هل يظنون حقاً ان هذا سيحملني على الأعتراف بحقهم في الوجود؟ كانت وجهة نظري مختلفة تماماً عنهم. فقد كان شعبي يناضل من أجل حريتنا، ومن أجل أرضنا.

مع رفضي المتكرر الاجابة عن اسئلته، ضرب المحقق الطاولة بقبضة يده، ورفع ذقني مرة جديدة وقال: «أنا ذاهب لقضاء الليلة مع عائلتي. أما أنت، فاستمتع بوقتك هنا».

بعد ساعات رهيبة قضيتها على الكرسي المؤلم، جاءني أخيراً واحد من الحراس، ففك قيودي والأصفاد من رجليّ، ثم وضع كيساً قماشياً على رأسي، وجرّني عائداً الى الممر. وصار صوت ليونارد كوهين يزداد ارتفاعاً.

توقفنا، وطلب مني الحارس بصوت أجشّ كأنه نباح، أن أجلس على كرسي. صوت الموسيقى أصبح الآن يصم الآذان لشدة ارتفاعه. ومرة جديدة، تم تكبيل يديّ ورجليّ الى كرسيّ منخفض، كان يتجاوب ارتجاجاً مع ترددات الموسيقى العنيفة «أولاً سنأخذ مانهاتن، ثم سنأخذ برلين».

أصاب التشنج عضلات جسمي لشدة البرد، وللوضع المؤلم الذي كنت فيه. واضطررت لتذوق طعم الكيس القماشي الموضوع على رأسي. وفي تلك اللحظة، شعرت أنني لست وحيداً في المكان. فعلى رغم ارتفاع صوت كوهين، تمكنت من سماع أشخاص آخرين يصرخون من شدة الألم. فناديت بأعلى صوتي من خلال القماش الملوث بالبقع الدهنية: «هل من أحد هنا؟». فأجابني صوت مرتفع: «من أنت؟».

«أنا مصعب».

«متى جئت الى هنا؟».

«منذ يومين».

بعد أن سكت الصوت لحوالي دقيقتين صاح مجدداً: «هذا هو الأسبوع الثالث

لي على هذه الكرسي. لقد سمحوا لي بالنوم لأربع ساعات في الأسبوع».

أصبت بالذهول، لأن هذا الكلام هو آخر ما كنت أود سماعه. ثم قال لي آخر انه قيد التوقيف منذ يومين أيضاً. لقد كان في المكان حوالي عشرين شخصاً حسب تقديري.

الحديث الذي كان يجري بيننا انقطع فجأة، حين وجّه لي أحدهم ضربة قوية خلف الرأس، شعرت معها بألم شديد في جمجمتي، جعل الدموع تسيل غزيرة داخل الكيس القماشي. وصرخ الحارس: «ممنوع الكلام».

كل دقيقة كانت تمر كنت أحسبها ساعة، مع أنني بدأت أفقد الاحساس بالزمن. فعالمي قد توقف. أما في الخارج، فكنت أعلم أن الناس لا زالوا يستيقظون ويذهبون الى أعمالهم، ثم يعودون الى عائلاتهم، وأن زملاء الدراسة كانوا يدرسون من أجل الامتحانات النهائية، وأن والدتي كانت تقوم بأعمال الطهي والتنظيف، وضم أخوتي الأصغر الى صدرها وتقبيلهم.

أما في هذه الغرفة، فالكل جالسون ولا يتحركون. «أولاً نحتل مانهاتن، ثم نحتل برلين». أولاً نحتل مانهاتن، ثم نحتل برلين». «أولاً نحتل مانهاتن، ثم نحتل برلين»...

بعض الرجال الذين حولي كانوا ينتحبون، ولكنني صممت على ألا أبكي. كنت واثقاً من أن والدي لم يبك أبداً. فهو كان قوياً ولم يستسلم.

«أيها الحارس، أيها الحارس» نادى أحد الرجال، الا أن أحداً لم يسمعه لشدة ارتفاع صوت الموسيقى. بعد قليل أتى الحارس وسأل الرجل «ماذا تريد؟». فأجاب: «أريد استخدام المرحاض. أريد استخدام المرحاض». فأجاب الحارس قبل ان يقفل عائداً: «لا مراحيض الآن. انه ليس وقت المراحيض». فأخذ الرجل بالصراخ: «أيها الحارس، أيها الحارس».

بعد حوالي نصف ساعة عاد الحارس، الا ان الرجل كان قد فقد السيطرة على نفسه. واذ بدأ بتوجيه الشتائم اليه، فك الحارس قيود الرجل وأخذه بعيداً. بعد دقائق قليلة أعاده، ثم قيّده الى الكرسي الصغير وغادر. فصاح رجل آخر «أيها الحارس، أيها الحارس».

كنت مرهقاً وأشعر بألم في معدتي وعنقي، ولم ألاحظ من قبل أن رأسي ثقيل بهذا المقدار. حاولت الاستناد الى الجدار القريب مني علني أرتاح قليلاً. وما أن

بدأ النعاس يتسلل الى عينيّ، حتى عاجلني حارس بضربة على الرأس بهدف ايقاظي. كان العمل الوحيد لهذا الحارس على ما يبدو، ابقاءنا في حالة اليقظة والهدوء. شعرت وكأنني دفنت حياً، وها أنني أتعذب من قبل الملاكين منكر ونكير، بسبب اجاباتي الخاطئة.

مرّ علينا وقت قبل أن أسمع الحارس يتحرك حولنا، فظننت أن الصباح قد أقبل. بدأ الحارس يفك قيود المعتقلين واحداً بعد الآخر، ويذهب بهم لمدة دقائق قليلة، قبل ان يعود بهم ويكبلهم من جديد الى كراسيهم، حتى جاء دوري. بعد أن حلّ قيودي، أمسك بالكيس الذي على رأسي وجرّني به الى الممر، ثم فتح باب زنزانة وطلب مني الدخول. عندما نزع الكيس عن رأسي، وجدت أنه نفس الحارس الأحدب الشبيه بالقرد، حاملاً معه طعام فطوري. فما كان منه الا ان دفع نحوي بقدمه، طبق الطعام الأزرق بما فيه من بيض وخبز ولبن وزيتون. استقر الطبق على المياه الآسنة التي كانت تغطي أرض الزنزانة، فتطاير رذاذها على الطبق، ففضلت أن أتضور جوعاً ولا آكل من الطعام الكريه.

قال الحارس: «معك دقيقتان لتأكل ولتستخدم المرحاض». أما أنا، فكان كل ما أريد هو أن أتمدد وأنام لمدة دقيقتين. ولكنني تسمرت في مكاني، بينما كانت الثواني تمر بسرعة فائقة.

«تعال، تعال الى هنا»، قالها الحارس لي، قبل أن أتمكن من تناول لقمة واحدة. ثم وضع الكيس على رأسي مجدداً، وجرني به في الممر الى الزنزانة، ثم قيّدني الى كرسيّ الصغير.

«أولاً سنأخذ مانهاتن، ثم سنأخذ برلين»...

الفصل الحادي عشر

العرض

١٩٩٦

أمضينا أياماً طويلة، كل ما كان يجري فيها هو أبواب تفتح ثم تغلق، وسُجناء يُجرّون من الأكياس التي على رؤوسهم، فيخضعون للاستجواب عند محقق، ثم يُنقلون الى محقق آخر. تحل قيودهم، ثم يُقيدون. يُستجوبون. يُضربون. ومرات كثيرة كان المحقق يهز المُعتقلين بعنف شديد، بحيث أن عشر هزات مماثلة كانت تكفي لافقادهم الوعي. ثم تحل قيودهم. يُقيدون. يُستجوبون. أبواب تفتح وأبواب تغلق.

في كل صباح، كانوا يأخذوننا منفردين لمدة دقيقتين، نأكل فيهما طعام الفطور من الطبق الأزرق. وبعد ساعات، كانوا يعيدون الكرّة لنأكل في دقيقتين طعام العشاء من طبق برتقالي اللون. ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، طبق فطور أزرق، وطبق عشاء برتقالي. تعلمت سريعاً أن أنتظر ميعاد الوجبات. ليس من أجل الطعام، بل لأستفيد من فرصة الوقوف منتصباً.

بعد فرصة العشاء، كان فتح الأبواب واغلاقها يتوقف تماماً، لأن المحققين غادروا الى منازلهم. واذ ينتهي يوم العمل، يبدأ الليل الذي لا ينتهي. وتبدأ بسماع

أصوات بكاء وأنين وصراخ المسجونين، الذين لم يعد يبدو عليهم أنهم كائنات بشرية. بعضهم كان يهذي بكلمات غير مفهومة. والاسلاميون كانوا يرددون آيات من القرآن، ويطلبون من الله تشديدهم في هذه المحنة. أنا أيضاً صليت، ولكنني لم أحصل على أي معونة. ولم يكن يبارح أفكاري زميلي الغبي ابراهيم، والأسلحة التافهة، والمكالمات الغبية على هاتف والدي الخليوي.

آه، والدي. لقد فكرت به كثيراً هو أيضاً. كان قلبي ينفطر ألماً كلما تخيّلته يعاني ما أعانيه أنا الآن عندما كان هو مسجوناً هنا. ولكنني أعرف شخصيته جيداً. حتى وهو يتعرض للتعذيب والاهانة، كان سيقبل قدره بهدوء وعن طيب خاطر. ولا أستبعد أنه صنع أصدقاء له من هؤلاء الحراس الذين كُلفوا بضربه. ولا بد له أن سأل بصدق عن أحوالهم وأحوال عائلاتهم وخلفياتهم وهواياتهم.

كان والدي مثالاً للتواضع والمحبة والوفاء. ومع أن طوله كان فقط خمسة أقدام وسبعة انشات، لكن هذه الصفات جعلت قامته تسمو عن قامات كل الناس الذين عرفتهم في حياتي. كنت أرغب في أن أكون مثله تماماً، ولكنني أدركت ان الدرب أمامي طويل للوصول الى ذلك المكان.

بعد ظهر أحد الأيام، انقطعت رتابة الوقت الذي كنت أقضيه في السجن بشكل غير متوقع، عندما جاء حارس الى زنزانتي وحلني من القيود التي تربطني الى الكرسي. كنت أعلم ان وقت العشاء لم يحن بعد، ولكنني لم أطرح اي سؤال عن سبب ما يجري. كنت سعيداً للذهاب الى أي مكان، حتى الى الجحيم، فقط من أجل مفارقة كرسيّ ولو لوقت قليل. تم اقتيادي الى غرفة مكتب صغيرة، حيث تم تكبيلي من جديد، ولكن هذه المرة الى كرسي عادي. دخل ضابط من الشين بيت الى الغرفة،

ورمقني بنظره نزولاً وصعوداً. ومع أن آلامي لم تعد مبرّحة كما كانت من قبل، ولكنني كنت أعلم أن وجهي لا يزال يحمل آثار أعقاب بنادق الجنود.

سألني الضابط: «كيف حالك؟ ماذا جرى لعينك؟».

«لقد ضربوني».

«من؟».

«الجنود الذين أتوا بي الى هنا».

«هذا ممنوع. انه ضد القانون. سأتحرى المسألة لأعرف ماذا جرى».

بدا على الضابط انه واثق جداً، وكان يتكلم معي بلطف واحترام. فخشيت ان يكون هذا جزء من خطة تهدف الى اجباري على الكلام.

«لماذا أنت هنا، وامتحاناتك المدرسية أصبحت قريبة جداً؟».

«لا أعرف».

«طبعاً انت تعرف. أنت لست غبياً، ولا نحن أيضاً. أنا لؤي، مسؤول الشين بيت في منطقتك. أعرف كل شيء عن عائلتك وجيرانك. وأعرف أيضاً كل شيء عنك».

لقد كان فعلاً يعرف. فهو كان مسؤولاً عن كل الناس في حيّنا. كان يعرف اين يعمل كل واحد. مَن كان يذهب الى المدرسة، وماذا كان يدرس. امرأة مَن أنجبت طفلاً، وكم كان وزنه. كان يعرف كل شيء.

«أمامك خيار. فقد جئت كل هذه المسافة اليوم لأجلس معك ونتحدث. أنا أعلم ان المحققين الآخرين لم يكونوا لطفاء».

نظرت مليّاً في وجهه محاولاً القراءة بين سطور كلماته. كان ذا بشرة فاتحة اللون وشعر ذهبي. وأسلوبه في الكلام كان هادئاً لم أسمع نظيره من قبل. تعابيره كانت رقيقة، مع أنني كنت متوجّساً منها. ترى، هل هذا جزء من خطة اسرائيلية: اشباع السجين ضرباً تارة، ثم معاملته باللطف تارة أخرى؟ فسألته: «ماذا تريد أن تعرف؟».

«اسمع. أنت تعلم لماذا أتينا بك الى هنا. عليك ان تعترف بكل شيء، مهما كان».

«ليست لديّ أدنى فكرة عما تتحدث به».

«أوكي، أريد أن أسهّل عليك الأمر». ثم استدار الى لوح أبيض مثبت على الحائط وراءه، وكتب ثلاث كلمات: حماس، أسلحة، ومنظمة.

ثم أضاف: «هيّا أخبرني عن حماس. ماذا تعرف عن حماس؟ ما هو دورك في حماس؟».

«لا أدري».

«هل تعرف أي شيء عن الأسلحة التي يملكونها؟ من أين يأتون بها وكيف يحصلون عليها؟».

«لا».

« هل تعرف أي شيء عن حركة الشبيبة الاسلامية؟"
« لا » .
« أوكي . هذا يعود لك . لا أدري ماذا أقول . ولكنك حقاً اخترت الطريق الخاطىء . . . هل يمكن أن أحضر لك بعض الطعام؟ » .
« لا . لا أريد شيئاً » .

غادر لؤي الغرفة ليعود بعد دقائق قليلة، حاملاً معه طبقاً ساخناً من الأرز والدجاج، مع قليل من الحساء . واذ فاحت منها رائحة لذيذة، بدأت عصافير معدتي تزقزق بطريقة لا ارادية . لا شك ان هذا الطعام قد تم تحضيره خصيصاً للمحققين .

« من فضلك، مصعب، كل . لا تحاول ان تكون شخصاً جباراً . فقط، كُل، واسترخ قليلاً . أتعلم؟ انني أعرف والدك منذ زمن بعيد . انه شخص جيد وغير متطرف، ولكننا لا نعلم لماذا أدخلت أنت نفسك في هذا المأزق؟ نحن لا نريد تعذيبك، وانت عليك أن تفهم أنك تعمل ضد اسرائيل . اسرائيل دولة صغيرة، وعلينا حماية أنفسنا . لا يمكننا السماح لأحد بأن يؤذي المواطنين الاسرائيليين . لقد عانينا ما يكفي طوال حياتنا، ولن نكون متساهلين أبداً مع الذين يريدون ايذاء شعبنا » .

« لم أؤذ أي اسرائيلي . أنتم آذيتمونا . أنتم اعتقلتم والدي » .

« نعم، انه شخص صالح . ولكنه هو أيضاً يعمل ضد اسرائيل . هو يحرّض الناس على مقاتلة اسرائيل . من أجل هذا كان علينا أن نضعه في السجن » .

اقتنعت ان لؤي كان حقاً يظن أنني شخص خطير . كنت أعرف من خلال أحاديثي مع الفلسطينيين الخارجين من السجون الاسرائيلية، أنه لم يكن الجميع يعامَلون بطريقة خشنة كما عوملت أنا، ولم تكن التحقيقات مع الجميع تطول كما طالت معي .

ما كنت أجهله في ذلك الوقت، هو انه تم اعتقال حسن سلامة في نفس الفترة التي اعتقلت فيها أنا . كان سلامة قد نفذ عدداً من الهجمات، انتقاماً لاغتيال اسرائيل صانع المتفجرات الفلسطيني يحيى عياش . وعندما سمعني عناصر الشين بيت أتحدث مع ابراهيم عن مسألة الحصول على أسلحة، من خلال الهاتف الخليوي الذي لوالدي، اعتقدوا أنني لم أكن أعمل منفرداً . في الحقيقة، كانوا مقتنعين بأن

كتائب القسام هي التي جندتني للعمل.

بعد هذا، قال لؤي: «هذه هي المرة الأخيرة التي أعرض عليك هذا الأمر. بعدها سأغادر. لديّ الكثير لأعمله. أنت وأنا يمكننا معالجة هذا الوضع الآن. يمكننا التوصل الى حل ما. أنت لا تحتاج ان تخضع لمزيد من التحقيقات. ما أنت الا بولد، وتحتاج الى المساعدة».

نعم، لقد رغبت بأن أكون خطيراً، وكانت لدي أفكار خطيرة. ولكن، يبدو واضحاً أنني فشلت في ان أكون متطرفاً. ونتيجة لذلك، ها أنا أعاني الأمرّين على هذا الكرسي البلاستيكي المنخفض، ومن هذا الكيس القماشي الكريه الرائحة. كما أنني أصبحت في نظر المخابرات الاسرائيلية شخصاً لا أمتّ أنا له في الواقع بأية صلة. لذلك قرّرت أن أفصح للمحقق عن كل شيء أعرفه، باستثناء الفكرة بأنني أرغب في الحصول على الأسلحة لقتل اسرائيليين. فقلت له أنني اشتريت الأسلحة لمساعدة صديقي ابراهيم على حماية عائلته.

«اذاً، أرى انه كانت هناك أسلحة».

«نعم، كانت هناك أسلحة».

«وأين هذه الأسلحة الآن؟».

كم تمنّيت أن تكون هذه الأسلحة في منزلي، فأكون سعيداً جداً بتسليمها للاسرائيليين. ولكن، الآن يجب أن أشرك ابن عمي في المسألة. فقلت للمحقق: «أوكي، كل الأمر، أن الأسلحة موجودة عند شخص ليست له علاقة بالموضوع».

«من هو؟».

«انها عند ابن عمي يوسف. هو متزوج بأميركية، ولديهما طفل حديث الولادة». قلت هذا، آملاً بأنهم سيدعون العائلة وشأنها، وسيهتمون فقط بالحصول على الأسلحة. ولكن الأمور لم تكن أبداً بالسهولة التي كنت أظنها.

بعد يومين، سمعت شجاراً على الجانب الآخر من جدار زنزانتي. فانحنيت باتجاه الأنبوب الصدىء الموصول في الحائط المشترك وناديت: «هالو. هل من أحد هناك؟». فلم أسمع الا الصمت. بعد ذلك سمعت صوتاً يناديني: «مصعب؟».

ماذا؟ لم أصدّق أذنيّ. لقد كان ابن عمي. فناديت: «يوسف. هل هذا أنت؟».

عند سماعي صوته شعرت بالانفعال، وبدأت نبضات قلبي تخفق بطريقة غريبة. لقد كان يوسف، الذي بدأ بصبّ اللعنات عليّ.

«لماذا فعلت هذا؟ لديّ عائلة يا...».

فما كان مني الا أن أجهشت بالبكاء. لقد كنت أرغب كثيراً وأنا في السجن، بلقاء أنسان أتحدث معه. والآن، ها ان شخصاً من عائلتي يجلس الى الجانب الآخر من الجدار، وهو يصرخ ويصيح فيّ. وفي برهة من الزمن شعرت بالخدعة التي أعدّها الاسرائيليون الذين كانوا يتنصّتون علينا. لقد وضعوا ابن عمي يوسف في الزنزانة المحاذية لي، كي يتسنّى لهم الاستماع الى حديثنا، ومعرفة ما اذا كنت أتكلم الصدق أم لا. لكنني لم أعر الأمر أهمية، لأن ما قلته ليوسف هو أنني أريد الأسلحة لحماية عائلتي. فلم أكن قلقاً.

عندما تأكدت الشين بيت أن ما قلته كان الحقيقة. نقلوني الى زنزانة أخرى. واذ أصبحت وحيداً مرة أخرى، بدأت أفتكر بالمتاعب التي سببتها لابن عمي، وكيف عكّرت عليه صفو حياته، وكم من الألم سببته لعائلتي، وكيف أنني ألقيت باثنتي عشرة سنة مدرسية خلفي، لا لسبب، الا لأنني وثقت بشخص أحمق وطائش كابراهيم.

بقيت في تلك الزنزانة أسابيع معدودة، دون أي اتصال مع كائن بشري. وفي كل يوم، كان الحراس يجلبون لي الطعام، ومن دون أن ينبثوا ببنت شفة، كانوا يمررون الطبق من تحت الباب. لقد اشتقت حتى لليونارد كوهين. لم يكن لديّ ما أقرأه. والأمر الوحيد الذي كنت أميز الوقت من خلاله، كان أطباق الطعام الملونة في دورتها اليومية. لم يكن هناك ما أعمله الا التفكير والصلاة.

وأخيراً، جاءني أحد الحراس يوماً، واقتادني الى مكتب التحقيق، حيث كان الضابط لؤي، مجدداً، ينتظرني هناك.

«اذا قررت التعاون معنا، مصعب، سأفعل كل ما بأمكاني لأجعلك لا تقضي في السجن وقتاً أطول».

هذه العبارة أضاءت بصيص أمل فيّ للحظة. فقلت في نفسي، ربما يمكنني التظاهر بأنني سأتعاون، وعندها سيعمل هو على اخراجي من هنا.

تحدثنا قليلاً في أمور عامة، قبل أن يقول لي: «ماذا لو عرضت عليك وظيفة معنا؟ ها ان القادة الاسرائيليين يجلسون مع القادة الفلسطينيين. لقد تحاربوا لوقت طويل، وفي نهاية الأمر، ها هم يتصافحون ويتناولون طعام العشاء سويّاً».

أجبت: «الاسلام يحرّم عليّ العمل معك».

«في مكان ما، مصعب، حتى والدك سيأتي ويجلس ويتكلم معنا، ونحن سنتكلم معه. دعنا نعمل سويّاً لنجلب السلام للناس».

«هل بهذه الطريقة نجلب السلام؟ نجلب السلام عن طريق انهاء الاحتلال».

«لا. نجلب السلام من خلال أناس شجعان يريدون ان يصنعوا تغييراً».

«لا أظن. فهذا أمر لا قيمة له».

«هل أنت خائف من أن يتم قتلك كعميل؟».

«لا، ليس هذا. فبعد كل الآلام التي اجتزنا فيها، لا يمكنني ببساطة الجلوس والتحدث معك كصديق. فكيف بالعمل معك؟ ممنوع عليّ فعل هذا. انه ضد كل شيء أنا أؤمن به».

كنت لا أزال أشعر بالكراهية تجاه كل الأوضاع المحيطة، كالاحتلال والسلطة الفلسطينية. لقد أصبحت متطرفاً فقط لأنني أردت تدمير شيء ما. هذا هو الدافع الوحيد الذي جلب عليّ كل هذه الفوضى التي أعاني منها الآن. وها أنا مُحتجز في سجن اسرائيلي، وهذا الرجل يعرض عليّ العمل لمصلحة اسرائيل. فاذا وافقت، أعلم أنني سأدفع ثمناً باهظاً، في هذه الحياة، وفي الحياة الأخرى. ولم أدر الا وأنا أقول للمحقق: «أوكي، أحتاج الى وقت للتفكير في الأمر».

عدت الى زنزانتي وبدأت التفكير بعرض لؤي. لقد سمعت قصصاً عن أشخاص وافقوا على العمل مع الاسرائيليين، ولكنهم كانوا عملاء مزدوجين. فقتلوا رؤساءهم واستولوا على أسلحة، ولم يوفروا فرصة لضرب أهداف أعمق للاسرائيليين. فاذا قلت له نعم، تخيّلت ان يعمل لؤي على اطلاق سراحي. وربما سيعطيني الفرصة لاقتناء أسلحة حقيقية هذه المرة، بحيث أنني سأعمل على قتله بها.

بعد تفكير عميق، أحسست بنيران الكراهية تضطرم في أحشائي. أردت الانتقام من الجندي الذي أشبعني ضرباً بشكل وحشي. أردت الانتقام من اسرائيل. ولم أعبأ بما يمكن أن يكلفني هذا الأمر، ولو كان الثمن هو حياتي.

ولكن العمل مع الشين بيت سيكون تصرفاً أكثر خطورة من شراء الأسلحة. لذلك، من المستحسن أن أنسى الأمر، فأنهي فترة اعتقالي، وأعود الى المنزل والى الدراسة، وأكون قريباً من والدتي، وأعتني بأخوتي وأختاي.

في اليوم التالي، أخذني الحارس مرة اخيرة الى مكتب التحقيق، حيث انتظرت لدقيقتين قبل ان يدخل لؤي الى الغرفة.

« كيف حالك اليوم؟ يبدو لي انك أحسن حالاً. هل تريد أن تشرب شيئاً؟ ».

جلسنا نشرب القهوة كصديقين منذ زمن طويل.

« ماذا لو قتلوني؟ ». سألت هذا، مع أنني في الواقع لم أكن مهتماً اذا ما أراد أحد قتلي. كل ما أردت هو أن أجعل لؤي يقتنع بأن قبولي العرض هو أمر حقيقي.

فأجابني: « دعني أقول لك شيئاً، مصعب، أنا أعمل مع الشين بيت منذ ثمانية عشر عاماً، وخلال تلك السنين، لم يتم اكتشاف أحد من الذين يتعاملون معنا. كل هؤلاء الذين رأيتهم يقتلون لم يكونوا على علاقة معنا. كان الناس يشككون بهم لأن لا عائلات لهم، وكانوا يقومون بأعمال تثير الشك، فكانوا يقتلونهم. لن يعرف أحد بك أبداً. وسنغطيك بحيث لا يمكن لأحد ان يكتشفك. سنحميك ونعتني بك ».

أمعنت النظر به لوقت طويل ثم قلت: « حسناً. أنا موافق. هل ستطلق سراحي الآن؟ ».

ابتسم لؤي ابتسامة عريضة وهو يقول: « عظيم. ولكن، لسوء الحظ، لا نستطيع اطلاق سراحك الآن. فمنذ أن اعتقلناك مع ابن عمك مباشرة بعد اعتقال سلامة، نشرت صحيفة القدس (الصحيفة الفلسطينية الرئيسية) الخبر على صفحتها الأولى. الجميع يظنون انه تم اعتقالك لتورطك مع صانع المتفجرات. اذا أطلقنا سراحك قريباً، سيتسرب الشك الى نفوس الناس، وربما سيعتبرونك عميلاً. أفضل الطرق لحمايتك هي بأرسالك الى السجن، ليس لوقت طويل، فلا تقلق. سنرى ان كان يمكننا اجراء عملية تبادل سجناء، او التوصل الى اتفاق لاطلاق سراح مسجونين، فيتم اطلاق سراحك. عندما تخرج من السجن، أنا متأكد ان حماس ستعتني بك، خاصة وأنك ابن حسن يوسف. سأراك بعد اطلاق سراحك ».

أعادوني الى زنزانتي، حيث أمضيت أسبوعين آخرين، لم أحتمل فيهما الانتظار لأخرج من المسكوبية.

وأخيراً، في صباح أحد الأيام، قال لي الحارس انه الوقت للخروج. فكبّلني، ويداي الى الأمام هذه المرة، ولم يضع الكيس المقرف على رأسي. ولأول مرة منذ خمسة وأربعين يوماً، رأيت الشمس، وأحسست بروعة الهواء الطبيعي. فأخذت نفساً عميقاً ملأ رئتيّ، وتلذذت بالنسيم اللطيف يداعب وجهي. قفزت الى المقعد الخلفي لباص صغير من نوع فورد، وجلست عليه. كان يوماً صيفياً حاراً، والمقعد

الحديدي الذي كبّلت يداي به كان ساخناً، الا أنني لم أهتم. لقد صرت حراً.

بعد ساعتين، وصلنا الى سجن مجدّو، وهناك كان علينا ان نبقى في الباص الصغير لساعة اضافية، بانتظار السماح لنا بالدخول. وعندما دخلنا، قام طبيب السجن باجراء فحص طبي لي، وأعلن بأنني على خير ما يرام. واذ طلبوا مني الاستحمام واستخدام صابون حقيقي، تم تزويدي بثياب نظيفة وبعض العطور. كان وقت الغذاء، فأكلت للمرة الأولى منذ أسابيع طعاماً ساخناً.

كان الجميع يسألونني عن المنظمة التي أنتمي اليها، فكان جوابي: «حماس».

في السجون الاسرائيلية، يُسمح لكل منظمة ان تدير شؤون أعضائها بنفسها، على أمل ان يخفّف هذا من المشاكل، أو لزيادة حدة الصراع بين الجماعات المختلفة. فاذا اشتعل المساجين غضباً تجاه بعضهم البعض، سيوفرون على الحراس الاسرائيليين عناء تحمل هذا الغضب.

عند الانتقال الى سجن جديد، يُطلب من كل المعتقلين أن يُعرّفوا عن المنظمة التي ينتمون اليها. كان علينا أن نختار واحدة: حماس أو فتح أو الجهاد الاسلامي أو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أو الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، أو أية منظمة أخرى. لم يكن بمقدورنا القول ببساطة انه لا انتماء لنا لأية منظمة. فالذين هم حقاً لا ينتمون الى المنظمات، كانوا يُعطون فرصة لأيام معدودة، عليهم خلالها اختيار منظمة. في «مجدّو»، كانت حماس تسيطر بشكل كامل داخل السجن، لأنها كانت المنظمة الأكبر والأقوى. فكانت تفرض قوانينها الخاصة على السجناء، كما كانت تفعل باقي المنظمات.

عندما دخلت الى السجن، استقبلني السجناء بحرارة، مربّتين على كتفي، وموجّهين لي التهنئة لانضمامي الى صفوف المجاهدين. في المساء، تجمّعنا وكنا نتبادل الأحاديث عن الظروف والأسباب التي أدت الى اعتقالنا. بعد فترة قليلة، بدأت أشعر بعدم الراحة. فقد كان بين الموجودين شخص يبدو أنه من زعماء السجن، كان يطرح اسئلة كثيرة بشكل مثير للاستغراب. ومع أنه كان الأمير، أي زعيم حماس داخل السجن، الا أنني لم أثق به على الاطلاق. لقد كنت أعرف الكثير عمّن يسمّونهم «العصافير»، أي جواسيس أو مخبري السجن.

قلت في نفسي، اذا كان هذا مخبراً للشين بيت، لماذا لا يبدي ثقة بي. من المفترض أن أكون واحداً منهم الآن. فقررت أن أتخذ جانب الحيطة والحذر، وأن

أكتفي بما قلته للمحققين في مركز الاعتقال.

مكثت في سجن مجدّو مدّة أسبوعين، كنت خلالهما أصلي وأصوم وأقرأ القرآن. وعندما كان يأتي الى السجن معتقلون جدد، كنت أحذرهم من شخص الأمير قائلاً: «يجب ان تكونوا حذرين، لأن هذا الرجل ورفاقه يبدون لي وكأنهم «عصافير». وعلى الفور، أخبر الوافدون الجدد الأمير عن شكوكي. في اليوم التالي تمّ ارسالي مجدداً الى المسكوبية. وفي صباح اليوم الثاني لي هناك، أحضرت الى مكتب التحقيق.

سألني لؤي: «كيف كانت رحلتك الى مجدّو؟». فأجبت بسخرية: «كانت جيدة». فأجاب: «أتعلم أنه ليس بامكان أي واحد اكتشاف «عصفور» من اللقاء الأول الذي يجمعه به؟ اذهب الآن وخذ قسطاً من الراحة. سنعيدك الى هناك قريباً لتمضية وقت أطول. ويوماً ما، سنقوم بعمل ما معاً».

«نعم، يوماً ما سأطلق النار على رأسك». هذا ما قلته في نفسي وأنا أراقب لؤي يغادر المكتب. كنت فخوراً لوجود هكذا أفكار متطرفة في رأسي.

أمضيت خمسة وعشرين يوماً اضافياً في مركز التحقيق، انما هذه المرة مع ثلاثة معتقلين آخرين في زنزانة واحدة، بينهم ابن عمي يوسف. قضينا الوقت نتحدث ونخبر القصص. واحد من المعتقلين أخبرنا كيف قتل شخصاً، فيما تباهى آخر بارساله انتحاريين فجّروا أنفسهم. كانت لدى كل واحدة قصة مثيرة يتحدث عنها. فكنا نجلس حول بعضنا البعض، نصلي، نغني، ونحاول الاستمتاع بوقتنا، أو بأي شيء يبعد أذهاننا عن الانشغال بأوضاعنا الحالية. فلم يكن المكان يصلح للبشر.

أخيراً، تم ارسالنا الى سجن مجدّو، باستثناء ابن عمي. ولكن هذه المرة لم نكن ذاهبين لنكون جنباً الى جنب مع «العصافير»، انما الى سجن حقيقي. ولن يبقى شيء كما كان عليه أبداً.

الفصل الثاني عشر

رقم ٨٢٣

١٩٩٦

كان بامكان أي واحد أن يشتمّ رائحتنا مِن على بُعد، فيما نحن قادمون.

شَعرُنا ولحانا طالت بعد ثلاثة أشهر لم نعرف خلالها المقص أو شفرات الحلاقة. ثيابنا كانت قذرة. الروائح الكريهة التي علقت بنا في مركز الاعتقال ظلت تفوح منّا لمدة أسبوعين، ولم ينفع الفرك بالتخلص منها، الى أن اختفت شيئاً فشيئاً.

يبدأ السجناء فترة تنفيذ الأحكام الصادرة بحقهم في مكان يدعى «المعبار»، وهو بمثابة قاعة يقضون فيها فترة معينة، قبل اتخاذ القرار النهائي بنقلهم الى سجن أكبر. بعض السجناء الذين يُعتبرون خطرين جداً، ولا يَصلح ان يكونوا ضمن مجموعة كبيرة من المحتجزين، يقضون سنوات عدة في «المعبار». لم يكن مفاجئاً لي ان معظم هؤلاء السجناء ينتمون الى حركة حماس، وقد عرفني بعضهم فتوجهوا نحوي للترحيب.

لكوني ابن الشيخ حسن يوسف، اعتدت على أن أكون مُتميّزاً أينما توجهت. فاذا كان والدي بنظرهم هو الملك، فأنا أصبحت الأمير والوارث. وقد عاملوني

فعلاً كأنني هكذا. قال لي أحدهم: «لقد سمعنا أنك كنت هنا منذ شهر مضى. خالك هنا، وسيأتي لزيارتك قريباً».

طعام الغذاء كان ساخناً ومشبعاً، الا أنه لم يكن لذيذاً كالذي كنت آكله مع «العصافير». ومع ذلك، كنت سعيداً. فعلى رغم أنني كنت في السجن، لكنني طالما شعرت بأنني حر. وعندما تسنح لي الفرصة لأكون وحيداً، كنت أفتكر دائماً في الشين بيت. لقد وعدوني بأن أعمل معهم، لكنهم لم يقولوا لي شيئاً بعد. كما أنهم لم يشرحوا لي أبداً كيفية التواصل فيما بيننا، أو ما يعنيه حقاً ان نعمل معاً. لقد تركوني لنفسي، دون أية فكرة عن الكيفية التي يجب أن أتصرف بها. كنت حائراً تماماً. لم أعد أعرف من أنا على حقيقتي، وتساءلت ما اذا كنت ربما مخدوعاً.

المعبار كان مقسّماً الى عنبرين كبيرين، الغرفة ثمانية والغرفة تسعة، تتوزّع فيهما أسرّة النوم. وقد بُنيا على شكل زاوية، بحيث يسع كل واحد منها عشرين سجيناً. على الزاوية تماماً كانت توجد غرفة التمارين ذات الأرضية الخرسانية الملونة، وفيها طاولة بينغ-بونغ مهشمة، قدمتها للمعبار منظمة الصليب الأحمر. فكان يُسمح لنا باجراء التمارين الرياضية مرتين في اليوم.

سريري كان في طرف الغرفة تسعة، الى جانب الحمّام، حيث كنا نتشارك مرحاضين ومرشتين للاستحمام. المرحاض كان عبارة عن حفرة في الأرض، كنا نقف فوقها او نجلس عليها القرفصاء. وعندما ننتهي من قضاء حاجتنا، كنا نسكب الماء للتنظيف من دلو. كان جو الحمام حاراً ورطباً، وذا رائحة مقززة.

للحقيقة، كان جو العنبر كله على هذه الحال، ما أدى ببعض السجناء الى المرض والسعال، فيما البعض الآخر لم يكلف نفسه عناء الاستحمام. كنا نتنفس هواءً ملوثاً، بسبب دخان السجائر الذي عجزت مروحة الهواء الضعيفة عن تبديده، في مكان لا نوافذ لتهوئته.

كان يتم ايقاظنا في الساعة الرابعة من صباح كل يوم، لتهيئة أنفسنا لصلاة الفجر. فكنا نصطفّ حاملين مناشفنا، بأشكالنا الغريبة التي يبدو عليها كل رجل خرج للتو من فراشه، وبروائحنا التي تصدر عادة عن الرجال في مكان لا توجد فيه مراوح ولا تهوئة. كان الوقت للوضوء، وهو أحد الشعائر الاسلامية للتطهير قبل بدء الصلاة. فنغسل أيدينا حتى المعصم، ثم ننظف أفواهنا عن طريق المضمضة،

ونتنشق القليل من الماء في أنوفنا، ثم نغسل وجوهنا بكلا الكفين من الجبهة حتى الذقن، ومن الأذن حتى الأذن الأخرى، ثم نغسل ذراعينا حتى المرفقين، ونمسح رؤوسنا من الجبهة حتى الرقبة مرة واحدة بيد مبللة. وأخيراً، نبلل أصابعنا بالماء ونمسح آذاننا من الداخل والخارج، ثم نمسح أعناقنا، ونغسل أقدامنا حتى الكاحل، ثم نعيد تكرار هذه العملية مرتين.

عندما ينتهي الجميع من الوضوء في الرابعة والنصف صباحاً، يبدأ الامام الضخم الجثة وذو اللحية الكثة، بانشاد الآذان قبل ان يبدأ بتلاوة الفاتحة، التي نقوم بعدها بأداء الركعات.

كان أكثر السجناء بيننا ينتسبون الى حركة حماس أو الجهاد الاسلامي. لذلك، فان دورة الاستعداد للصلاة كانت عادية في كل الأحوال. وكان أعضاء المنظمات المدنية والشيوعية ملزمين على الاستيقاظ في نفس الوقت مع الآخرين، حتى ولو لم يؤدوا الصلاة. ولكم أن تقدّروا مدى الانزعاج الذي كان هؤلاء يشعرون به.

أحد السجناء الذي أمضى حتى الآن نصف فترة حكمه الممتدة على مدى خمسة عشر عاماً، وقد سئم الروتين الاسلامي اليومي، كان يحتاج الى وقت طويل من الحث لكي يغادر فراشه مع الآخرين. فكان بعضهم يلكزه، والبعض الآخر يقوم بقرصه، فيما يصرخ آخر بأعلى صوته «استيقظ». واذا لم يفعل، كانوا يسكبون الماء على رأسه كحلّ أخير. كم أشفقت عليه. كانت عملية الوضوء والصلاة والقراءة تستغرق ساعة واحدة، ثم يذهب الجميع بعدها الى أسرّتهم. واذ كانوا يغطون في النوم مرة جديدة، كان الهدوء يعم المكان وكأن شيئاً لم يحدث.

كانت العودة الى النوم بعد أداء صلاة الفجر أمراً شبه مستحيل. فكنت أبقى ساهراً الى ما قبل الساعة السابعة بقليل. وما أن يبدأ النعاس بالتغلب عليّ مجدّداً، حتى يصرخ أحدهم: «عدد، عدد»، وهو تحذير للسجناء بأنه الوقت لتعدادهم. فكنا نجلس على أسرّتنا، وظهورنا الى الجندي الاسرائيلي الذي يقوم بتعدادنا، لأنه لم يكن مسلحاً. كانت هذه العملية تتطلب منه خمس دقائق فقط، ثم نعود بعدها الى النوم من جديد.

عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً يصرخ الأمير: «جلسة، جلسة». انه الوقت لأحد اجتماعين تنظيميين تعقدهما يومياً كل من حماس والجهاد الاسلامي. لا سمحت السماء بأن يتركوا أحداً ينام لمدة ساعتين متواصلتين. لقد وصل الأمر حد

الازعاج. فها نحن من جديد نصطفّ لنأخذ دورنا الى الحمام، كي نكون جاهزين لحضور جلسة الساعة التاسعة.

خلال جلسة حماس اليومية الأولى، كنا ندرس أصول وأحكام قراءة القرآن. لم أكن بحاجة اليها لأنني تعلمتها من والدي. الا أن معظم السجناء كانوا لا يعرفون منها شيئاً. أما الجلسة الثانية فكانت في أكثرها تتعلق بحركة حماس، وبكيفية انضباطنا داخل السجن، كما كان يتمّ الاعلان عن هوية القادمين الجدد، وبعض الأخبار عما يحصل خارج الأسوار. لم يكن هناك أسرار، أو خطط، بل أخبار عامة فقط.

بعد كلٍ جلسة، كنا نصرف أوقاتنا في مشاهدة برامج التلفزيون، حيث كان الجهاز مثبّتاً على الجدار في آخر الغرفة، مقابل الحمام. في صبيحة أحد الأيام، كنا نشاهد برنامج صور متحركة عندما ظهر على الشاشة اعلان تجاري. ما هي الا ثوانٍ حتى «بووووم»، ولوح خشبي معلق في سقف الغرفة يهبط فجأة ويغطي شاشة التلفزيون. قفزت من مكاني هلعاً وأنا أصيح: «ماذا حدث؟». ويا لغرابة ما اكتشفت. كان اللوح الخشبي موصولاً بحبل غليظ الى السقف، وطرف الحبل من الناحية الثانية متدلّ الى جانب الجدار، ويمسك به أحد السجناء. المهمة الموكلة لهذا السجين كانت ان يتنبّه الى عبور اي مشهد رديء، حتى اذا ما ظهر، يرخي الحبل من يده، فيسقط اللوح الخشبي ويغطي الشاشة، وهكذا يحفظنا من الرذائل التي يعرضها التلفزيون.

سألته: «لماذا تركت اللوح يسقط؟».

أجابني بفظاظة: «من أجل حمايتك».

«حمايتي؟ من ماذا؟».

«الفتاة في الاعلان التجاري. لم تكن تلبس الحجاب».

التفتّ الى الأمير وقلت: «هل هذا جاد في ما يقول؟».

أجاب الأمير: «نعم. طبعاً هو جاد».

«ولكننا جميعنا نملك أجهزة تلفزيون في بيوتنا، ولا نفعل مثل هذا الأمر هناك. فلماذا نفعله هنا؟».

فأوضح قائلاً: «الوجود في السجن ينشىء تحدّيات لا نختبرها في ظروف عادية. ليس لدينا نساء هنا. وما يعرضونه على التلفزيون يمكن أن يتسبب

بمشاكل للسجناء، وأن يقود الى قيام علاقات بينهم نحن بغنى عنها. اذاً، هذا هو القانون، وهذه هي وجهة نظرنا».

بالطبع، لم يكن الجميع يرى الأمر من نفس المنظار. وما كان يُسمح لنا بمشاهدته على التلفزيون، كان متعلقاً الى حد بعيد بماسك الحبل. فلو كان صاحب المهمة من الخليل، كان سيسقط اللوح على الشاشة، حتى ولو كان المشهد يظهر فتاة في صور متحركة لا تضع حجاباً. أما اذا كان من مدينة رام الله المتحررة، لكان حظنا أكبر برؤية أفضل. كان يُفترض بجميع السجناء أن يقوموا بشكل دوري بمهمة الامساك بالحبل. ولكنني رفضت القيام بهذه المهمة السخيفة والغبية.

بعد الغداء، كان يحين وقت صلاة الظهر، ليتبعها فترة ثانية من الهدوء والصمت. فقد كان السجناء بأكثرهم يأخذون قيلولة. ولكنني كنت أستغل الوقت بقراءة كتاب. وفي المساء، كان يُسمح لنا بالدخول الى غرفة التمارين للتمشي قليلاً، أو لتمضية الوقت في تبادل الأحاديث.

حياة السجن كانت مملّة للغاية لعناصر حماس. فلم يكن مسموحاً لنا اللعب بورق الشدة. كما أن قراءاتنا يجب ان تقتصر على القرآن أو الكتب الاسلامية. عناصر المنظمات الأخرى كانوا يتمتعون بحرية أكبر مما كنا نحن.

بعد ظهر أحد الأيام، كان مُفاجئاً لي دخول ابن عمي يوسف الى السجن، ففرحت جداً لرؤيته. واذ سمح الاسرائيليون لنا باستخدام ماكينات الحلاقة، ساعدناه في حلاقة رأسه، للتخلص من رائحة مركز التحقيق.

لم يكن يوسف منتسباً الى حركة حماس. فهو كان شيوعياً. لم يكن يؤمن باله الاسلام، ولكنه لم يكن ينكر الله. هذا الأمر جعله مناسباً أكثر لكي ينتسب في السجن الى الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين. هذه الجبهة كانت تقاتل من اجل دولة فلسطينية، تتناقض تماماً مع الدولة الاسلامية التي تحارب منظمتا حماس والجهاد الاسلامي لانشائها.

بعد أيام قليلة على مجيء يوسف الى سجننا، أتى خالي ابراهيم أبو سالم لزيارتنا. فهو كان يخضع للاعتقال الاداري منذ عامين، على رغم أنه لم تصدر في حقه أية ادانات رسمية. ولأنه كان يشكل خطراً على أمن اسرائيل، لم يكن متوقعاً ان يخرج من السجن في وقت قريب. خالي كان من الشخصيات المهمة في حركة حماس، فكان مسموحاً له التنقل بحريّة بين المعبار ومجمّع السجن الرئيسي،

وكذلك بين أقسام المجمّع. وهو قام بزيارة المعبار ليتفقد ابن أخته، ويتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام في ما يخصّني، ويجلب لي بعض الثياب. كانت هذه لفتة اهتمام لم تكن من طبيعة هذا الرجل الذي كان يهددني يالضرب وقد خذل عائلتي، عندما كان والدي في السجن.

بطوله الذي يقترب من ستة أقدام، كان ابراهيم أبو سالم أكبر من الحياة. كرشه الكبير الذي يبرهن على هيامه الشديد بالطعام، جعله يظهر وكأنه خبير مذاق أطعمة سعيد. ولكنني كنت أعرفه جيداً. فخالي ابراهيم كان لئيماً وأنانياً وكاذباً ومرائياً، على عكس والدي تماماً.

حتى وهو داخل أسوار سجن مجدّو، كان خالي يُعامَل معاملة الملوك. جميع السجناء كانوا يكنون له الاحترام، بغض النظر عن المنظمة التي ينتمون اليها. وسبب ذلك هو سنّه، ومهاراته التعليمية، وعمله في الجامعات، وانجازاته السياسية والعلمية. وقد اعتاد قادة السجن على استغلال زياراته ليطلبوا منه القاء محاضرة في المساجين.

كان الجميع يحبون الاصغاء الى ابراهيم وهو يتكلم، لان أسلوبه في الخطابة كان مسليّاً. كان يفرح لرؤية الناس يضحكون عندما يتحدث اليهم. وعندما كان يشرح عن الاسلام، كان يستخدم لغة بسيطة يَسهُل على الجميع فهمها. ومع هذا، فان أحداً من المساجين لم يكن يضحك في ذلك النهار، بل على العكس، كانوا جميعهم صامتين ويحدّقون في خالي بعيون واسعة ، وهو يتحدث بجدّية فائقة عن المتعاملين مع اسرائيل، وكيف أنهم بعمالتهم يَخدعون عائلاتهم ويُحرجونهم، وكيف أنهم يُعتبرون العدو الأول للشعب الفلسطيني. من طريقته في الكلام، أحسست وكأنه يحاول القول لي: «اذا كان لديك شيء ما لم تخبرني به، مصعب، من الأفضل لك أن تخبرني الآن».

بالطبع لم أفعل. حتى ولو كان خالي يشكك بوجود علاقة بيني وبين الشين بيت، فلن يجرؤ على قول هذا بشكل مباشر الى ابن الشيخ حسن يوسف. وقبل أن يغادر المكان قال لي: «اذا احتجت شيئاً، أعلمني بذلك. سأحاول أن أنقلك من هنا لتكون قريباً مني».

كان صيف العام ١٩٩٦. ومع أنني لم أتجاوز الثامنة عشرة من العمر، ولكنني شعرت بأنني عشت حيوات كثيرة في أشهر قليلة فقط. بعد أسبوعين على زيارة

خالي، جاء أحد ممثلي السجناء، ويدعى الشاويش، الى الغرفة تسعة ونادى: «٨٢٣». نظرت اليه، متعجبّاً من ذكر رقمي، لكنه تابع المناداة ذاكراً عدداً من الأرقام الأخرى، وطلب منا أن نجمع أغراضنا.

حالما وطأت قدماي عتبة المعبار باتجاه الصحراء، لفح الهواء الساخن وجهي كلهيب نار خارجة من فم تنين، فشعرت بعدم الاتزان للحظة عابرة. أول ما رأيت، قمم خيام بنية اللون منتشرة على مدى النظر أمامنا. عبرنا القسم الأول، فالثاني، فالثالث، فيما كان مئات المساجين يركضون باتجاه السياج الشائك المرتفع لرؤية القادمين الجدد. ما أن وصلنا الى القسم الخامس، حتى فتحت لنا الأبواب، وأكثر من خمسين شخصاً تجمهروا حولنا، يحتضنوننا ويصافحوننا.

تم اقتيادنا الى خيمة الادارة، حيث كان علينا من جديد ان نعرّف عن المنظمة التي ننتمي اليها. ثم نقلوني الى خيمة حماس، حيث صافحني الأمير مرحّباً قبل ان يقول: «أهلاً وسهلاً. جيّد أن أراك هنا. نحن فخورون جداً بك. سنعدّ لك سريراً بأسرع ما يمكن، وسنعطيك بعض المناشف والأشياء التي تحتاجها». ثم أردف قائلاً: «استرح، واستمتع باقامتك». هذه العبارة كانت نموذجاً عن النكات التي يتندّرون بها في السجن.

كل قسم في هذا السجن كان يضم اثنتي عشرة خيمة. كل واحدة تتسع لعشرين سريراً وخزانة. فكان القسم يتسع لمئتين وأربعين سجيناً، وهو على شكل مستطيل، مسيّج بشريط شائك. القسم الخامس كان مقسّماً الى مربّعات. فكان جدار مسيّج عند قمته بشريط شائك، يقسم المكان من الشمال الى الجنوب، وسياج منخفض يقسمه من الشرق الى الغرب.

في كل من المربعين الأول والثاني (الجهة العليا عن اليمين واليسار) نصبت ثلاث خيام لحماس. في المربع الثالث (الجهة السفلى عن اليمين) نصبت أربع خيام، واحدة لحماس، واحدة لفتح، واحدة للجبهتين الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين، وواحدة للجهاد الاسلامي. وفي المربع الرابع (الجهة السفلى عن اليسار) نصبت خيمتان، واحدة لفتح، وواحدة لفتح والجبهتين الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين.

المربع الرابع كان يضم المطبخ والحمامات ومكان الاستحمام، وغرفة الشاويش وعمال المطبخ، بالاضافة الى أحواض الوضوء. في المربع الثاني كنا نصطفّ للصلاة

في مكان مكشوف. وبالطبع، كانت هناك أبراج حراسة على كافة الزوايا. المدخل الرئيسي للقسم الخامس كان على السياج بين المربعين الثالث والرابع.

هنا تفصيل اضافي. السياج المنصوب من الشرق الى الغرب يضم بوابات بين المربعين الأول والثالث، وبين الثاني والرابع. كانت هذه البوابات تفتح معظم ساعات النهار، وتغلق في فترة تعداد المساجين. كما كان المسؤولون يغلقونها عندما يريدون عزل القسم الى نصفين.

كنت مفصولاً لخيمة حماس في الزاوية العليا للمربع الأول، وكان سريري الثالث الى اليمين. بعد أول تعداد أجري لنا، تحلقنا حول بعضنا البعض لتبادل أطراف الحديث، عندما سمعنا صراخاً آتياً من بعيد: «بريد يا مجاهدين. بريد».

كان الصوت صادراً من القسم المحاذي لقسمنا، وتحديداً من جماعة «السواعد»، وهي مجموعة تابعة للجناح الأمني لحركة حماس داخل السجن، كانت مهمتها توزيع الرسائل بين الأقسام.

عند سماع هذا النداء، خرج سجينان من الخيمة، وبسطا أيديهما وهما ينظران الى السماء. واذ أعطيا اشارة صوتية للمنادي، بدأ ما يشبه الكرات بالتساقط بين أيديهما المنبسطة، من حيث لا نعلم. هذه هي الطريقة التي كان قادة حماس في قسمنا، يتلقون من خلالها الأوامر او التعليمات من القادة في الأقسام الأخرى. هذا الأسلوب من عمليات الاتصال كان متشابهاً عند جميع المنظمات الفلسطينية في السجن، وكان لكل منظمة شيفرة مناداة خاصة بها. فعندما يُسمع صوت المُنادي بالعبارات الخاصة بمنظمة معينة، يخرج الأشخاص المكلفون من هذه المنظمة الى الباحة الخارجية، لالتقاط البريد المُرسَل اليها من الأقسام الأخرى.

كانت الكرات مصنوعة من العجين اليابس. فقد كانت الرسائل تغلف بالخبز المبلول بالماء، الذي يُصنع على شكل عجينة بحجم كرة سوفت بول، تترك جانباً لكي تجف، فتصبح صلبة. ومن الطبيعي ان رماة الكرات الأفضل والملتقطين الأفضل، يتم اختيارهم ليكونوا «سعاة البريد».

هذه اللحظات المثيرة سرعان ما انتهت. فقد حان وقت الغذاء.

الفصل الثالث عشر

لا تثق بانسان

١٩٩٦

كم كان ممتعاً التأمل في السماء بعد زمن طويل، كنت خلاله مدفوناً حياً تحت الأرض. شعرت وكأن سنوات كثيرة مرّت على آخر مرة شاهدت فيها النجوم. كانت رائعة الجمال، على رغم أن أنوار المخيم الباهرة جعلت تلألؤها يبدو باهتاً. كان ظهور النجوم يعني أنه علينا العودة الى خيمنا، كي نهيّء أنفسنا للتعداد والنوم، فيما كانت هذه الفترة تسبب لي بعض التشويش والانزعاج.

كان رقمي ٨٢٣ بحسب نظام التعداد المُعطى لي بين السجناء، ما يعني أن خيمة حماس الواقعة في المربع الثالث هي مكان اقامتي الرسمي. ولكن، لسبب اكتمال العدد في هذه الخيمة، تم تعييني لأكون في الخمية الواقعة على زاوية المربع الأول. فعندما يأتي موعد التعداد، كان يجب عليّ التواجد في المربع الثالث، لكي لا تسبب الترتيبات الاستثنائية أية مشاكل مع الحارس، فلا يضطر للاعتماد على ذاكرته من أجل معرفة ما يجري. وفي كل مرة كان يحصل التعداد، كان عليّ أن أغيّر مكان اقامتي الفعلي، وأذهب الى مكان اقامتي الرسمي.

خمسة وعشرون جندياً اسرائيلياً مع بنادق أم ١٦ جاهزة لاطلاق النار، كانوا

يدخلون المربع الأول لاجراء التعداد، متنقلين من خيمة الى أخرى. وكالعادة، كنا نقف ووجوهنا لناحية الطرف الخارجي للخيمة، فيما الجنود وراءنا. ولم يكن أحد منا يجرؤ على النظر الى الخلف، لئلا يتلقى رصاصة قاتلة.

عند انتهائهم من المربع الأول كان الجنود ينتقلون الى الثاني. وبعد الانتهاء من هناك أيضاً، كانوا يُغلقون البوابات التي على السياج، لكي لا يتمكن أي سجين في هذين المربعين من التسلل الى أي من المربعين الآخرين. وهكذا، كانوا يضمنون وجود كامل السجناء في أماكنهم.

في الليلة الأولى التي نقلت فيها الى القسم الخامس، لاحظت وجود ما يشبه لعبة سرية. عندما أخذت مكاني الى جانب السرير رقم ثلاثة، وقف الى جانبي سجين يبدو عليه المرض الشديد، ومنظره المرعب يوحي بأنه على شفير الموت بين لحظة وأخرى. كان حليق الرأس، وعلامات الارهاق والانهاك باديه عليه تماماً، ولم يكن ينظر الى أحد البتة. فتساءلت في نفسي عمّن يكون هذا، وما الذي يجري معه؟

عندما أنهى الجنود الاسرائيليون التعداد في المربع الأول وانتقلوا الى المربع الثاني، جرّ أحدهم هذا المريض وطرحه خارج الخيمة، فيما أسرع سجين آخر وأخذ مكانه الى جانبي. علمت فيما بعد ان فتحة صغيرة تم احداثها في السياج بين المربعين الأول والثالث، بحيث أصبح ممكناً استبدال سجين بآخر من خلالها.

كان واضحاً أن أحداً لا يريد للجنود الاسرائيليين أن يروا هذا الرجل الحليق. ولكن، لماذا؟

تلك الليلة، وأنا مستلق على سريري، سمعت صوت أنين آتياً من بعيد، لشخص يبدو انه يعاني آلاماً مبرّحة. لم يطل الأمر كثيراً، قبل ان يدبّ النعاس فيّ واستسلم للنوم.

لا أدري لماذا يطلّ الصباح على عجل. فقبل ان ندركه، يبدأ الحراس بايقاظنا استعداداً لصلاة الفجر. فمن أصل مئتين وأربعين سجيناً يتواجدون في القسم الخامس من السجن، ينهض مئة وأربعون شخصاً منهم، ويصطفون لاستخدام ستة حمامات، أو بالأحرى ستة حفر متلاصقة، يفصل بينها حواجز تفرضها متطلبات الخصوصية. ويستخدم هؤلاء ثمانية أحواض من أجل الوضوء، على أن ينتهوا جميعاً من الاغتسال في مدة ثلاثين دقيقة.

بعد هذا نصطف من أجل اقامة الصلاة، في عملية روتينية شبيهة الى حد كبير بما كنا نفعله في المعبار، مع فارق أن عدد السجناء هنا اثنتا عشرة مرة أكثر من هناك. ومع هذا، كانت الأمور تجري بطريقة سلسلة على رغم الأعداد الكبيرة، ولم يكن أحد يخطىء في أي من تصرفاته. لقد كان هذا حقاً شيئاً يدعو الى الغرابة.

كان الجميع يتصرفون وكأنهم تحت وطأة التهديد، بحيث أن أحداً لم يكن يكسر وصية أو يغفل عن قانون. لم يكن أحد يجرؤ على البقاء فترة أطول من المخصصة له في الحمام. كما أن أحداً لم يكن يجرؤ على النظر بطرف عينه الى سجين في أثناء التحقيق، أو اذا كان موجوداً في حضرة جندي اسرائيلي. ولم يكن أحد بالتالي يقف قريباً من حائط السياج.

لم يدم الأمر طويلاً قبل أن أبدأ باستيعاب ما يجري. كانت حماس تمارس سلطتها داخل السجن، تحت نظر السلطات الاسرائيلية. وكان المسؤولون فيها يسجلون ملاحظاتهم على السجناء. فكل من تعدّى أمراً، كانت تسجل عليه نقطة حمراء، واذا تخطت النقاط الحمراء حداً معيناً، كان السجين يخضع لتحقيق «المجد»، وهو الجناح الأمني لحماس، المؤلف من أشخاص أشدّاء لم يكونوا يبتسمون أو يطلقون النكات على الاطلاق.

لم نكن نرى هؤلاء الا في ما ندر، لانهم كانوا مشغولين كل الوقت بجمع المعلومات الاستخبارية. فكانت رسائل كرات العجين اليابس تتوزع بين الأقسام من قبلهم ولهم.

في أحد الأيام، كنت مستلقياً على سريري عندما أتت مجموعة من عناصر «المجد» وصرخت في جميع الموجودين كي يُخلوا الخيمة للحال. لم ينبث أحد ببنت شفة، قبل أن تصبح الخيمة خاوية في ثوان قليلة. وما كان من هؤلاء الا أن أدخلوا رجلاً اليها، وأسدلوا ستارتها بعد ان وضعوا حارسين على مدخلها. واذ رفعوا صوت التلفزيون عالياً جداً، بدأ عدد منهم بالغناء واحداث أصوات ضجيج داخل الخيمة.

لم أعرف ماذا كان يجري في الداخل، ولكنني أؤكد أنني لم أسمع في حياتي شخصاً يصرخ ألماً بالكيفية التي كان يصرخ بها الرجل. فتساءلت: «ما الذي قد فعله كي يستحق هذا؟». عملية التعذيب استغرقت حوالي ثلاثين دقيقة، أخرجه بعدها عنصران من «المجد» وأدخلاه خيمة أخرى، ليبدأا التحقيق معه من جديد.

عند اخلائنا الخيمة، سألت صديقاً لي من قرية قريبة من رام الله يدعى «عقل سرور» عما يجري فيها. فأجابني ببساطة: «آه. انه شخص رديء».
«أعلم أنه شخص رديء. ولكن ماذا يفعلون به؟ وماذا فعل؟».
فأجابني شارحاً: «انه لم يفعل شيئاً في السجن. ولكنهم يقولون انه أعطى الاسرائيليين معلومات عن عنصر من حماس عندما كان في الخليل. ويبدو عليه انه ممن لايتكلمون كثيراً، لذلك فهم يقومون بتعذيبه من حين لآخر».
«كيف؟».
«عادةً يغرزون الأبر تحت أظافره، ويذيبون صحناً بلاستيكياً على جسده العاري، أو يقومون باحراق الشعر في أنحاء جسمه. ومرات كثيرة يضعون عصاً كبيرة خلف ركبتيه، ويجبرونه على الجلوس ساعات عدة في وضع القرفصاء، ولا يدعونه ينام».
الآن فهمت لماذا يتصرف الجميع بحذر وانتباه شديدين، وأدركت ما حصل للرجل الحليق الذي رأيته في اليوم الأول على مجيئي. «المجد» كانوا يكرهون المتعاملين. وحتى نثبت العكس، كنا جميعاً تحت طائلة الاتهام بالعمالة، والتجسس لصالح اسرائيل.
نجاح اسرائيل في اكتشاف خلايا حماس وسوق عناصرها الى السجن، جعل عناصر «المجد» يشككون بوجود مخبرين داخل المنظمة، وأخذوا على عاتقهم مهمة فضحهم. فكانوا يراقبون كل حركة نقوم بها، ويحاولون استكشاف نوايانا، كما كانوا ينصتون لكل كلمة نتفوّه بها، ويضعون النقاط الحمراء في سجلاتهم. كنا نعرف من هم، ولكننا لم نكن نعرف الأشخاص الذين كانوا يتجسسون لحسابهم. فلربما كان أحد أصدقائي يعمل لصالح «المجد»، فلا أرى نفسي غداً الا وقد أصبحت رهن التحقيق.
قررت أن أحتفظ بأموري ومعلوماتي لنفسي، وأن أحذر وضع ثقتي بأي كان. فعندما رأيت الأجواء المشحونة بالتشكيك والخيانة في المخيم، تغيرت حياتي بشكل جذري. فقد شعرت أنني في سجن مختلف كلياً، بحيث لا يمكنني التحرك بحرية، او التكلم بحرية، او اقامة علاقات ثقة أو صداقة مع أحد. كنت خائفاً من ارتكاب خطأ ما، كأن أتأخر مثلاً، أو أن أبقى نائماً أثناء الدعوة للاستيقاظ، أو أن أسهو قليلاً بسبب النعاس خلال «الجلسة».

حياة السجين كانت تنتهي، في حال أدين من قبل «المجد» بالتعامل مع اسرائيل. كما أن حياة عائلته تنتهي أيضاً، بحيث أن أولاده وزوجته يصبحون عرضة لتخلي الناس عنهم، وعدم التعاطي معهم من قريب أو بعيد. فأن تكون لأحد سُمعة بأنه من العملاء، هو أفظع وأخطر ما يمكن ان يختبره في حياته. وقد أجرت حماس تحقيقاً في السجون الاسرائيلية مع أكثر من مئة وخمسين سجيناً، ما بين العامين ١٩٩٣ و١٩٩٦، وأعدمت حوالي ستة عشر منهم.

كنت أتمتع بخط جميل وقدرة على الكتابة بشكل سريع. فطلب مني عناصر «المجد» ان كنت أرغب في أن أعمل بمثابة كاتب لديهم. واذ كانت المعلومات التي سأطلع عليها سريّة للغاية، طلبوا مني ابقاءها لنفسي تحت طائلة المسؤولية.

أمضيت أيامي في نسخ ملفات السجناء. كنا نعمل جهدنا لابقاء هذه المعلومات بعيدة عن متناول مسؤولي السجن. لم نكن نستخدم الأسماء، وانما الرموز الرقمية. هذه الملفات المكتوبة على أدق أنواع الأوراق، بدت لي وكأنها من أردأ أنواع القصص الاباحية. بعض الأشخاص اعترفوا بأنهم جامعوا أمهاتهم. أحدهم قال انه جامع بقرة. واعترف آخر بأنه ضاجع ابنته، فيما أقرّ ثان بأنه ضاجع جارته، وصوّر العملية بألة تصوير سرية، وأعطى الصور للاسرائيليين. ويقول الملف ان الاسرائيليين عرضوا الصور الفاضحة على الفتاة، وهددوها باعلام أهلها ان هي رفضت الاستجابة لطلبهم في مواصلة تعاملها مع جاسوسهم. وهكذا، واصل هذان الشخصان علاقتهما الجنسية وتجميع المعلومات، وأقاما علاقات مماثلة ومصوّرة مع أشخاص آخرين، حتى بدا أن جميع أهل القرية يعملون لحساب الاسرائيليين. كان هذا الملف هو الأول الذي طلب مني نسخه.

بدا الأمر لي وكأنه جنون. واذ واصلت نسخ الملفات واحداً بعد الآخر، اكتشفت أن المحققين يركزون على سؤال المشتبه فيهم عن أمور لا علم لهم بها على الاطلاق، ولكنهم بسبب التعذيب الذي يتعرضون له، يعطون أجوبة يظنون ان المحققين يريدون أن يسمعوها. فقد كانوا على استعداد للاجابة بأي شيء، فقط من أجل ان يوقف المحققون تعذيبهم لهم. وقد اشتبهت من خلال الاطلاع على هذه المعلومات، ان تحقيقات شاذة كثيرة حصلت، لم تكن تخدم غرضاً أمنياً محدداً، بل اشباع النزوات الجنسية لسجناء «المجد».

مرّت الأيام، واذا بصديقي «عقل سرور» يصبح ضحية لهؤلاء. فهو كان عنصراً

في احدى خلايا حماس، وقد تم اعتقاله مرات عدة من قبل اسرائيل. ولسوء حظه، رفض أبناء المدن من سجناء حماس قبوله بينهم، لأنه كان مزارعاً بسيطاً. فالطريقة التي كان يتكلم ويأكل فيها بدت مضحكة بالنسبة لهم، فكانوا يستغلونه. وقد عمل «عقل» جاهداً لكسب ثقتهم واحترامهم، من خلال قيامه بطهو الطعام وأعمال التنظيف التي يطلبونها منه. ولكنهم عاملوه بدونيّة، عالمين أنه يخدمهم بدافع الرهبة منهم.

كان لعقل سبب يجعله يعيش خائفاً. فوالداه لم يكونا على قيد الحياة، وأخته الوحيدة هي كل ما له في هذه الدنيا. هذا الأمر جعله شديد الحساسية، لأنه لم يوجد من يمكن ان يثأر له من معذبيه. بالاضافة الى هذا، فقد اضطر أحد أصدقاء عقل تحت التعذيب، الى ذكر اسمه لمحققي «المجد». شعرت بالأسف لحاله، ولكن كيف يمكنني تقديم المساعدة له؟ فلم أكن سوى مجرد صبي لا سلطة بين يديه. وكنت أعلم أن والدي هو السبب الوحيد الذي يحميني من معاملة مماثلة.

كان يُسمح لعائلاتنا بزيارتنا مرة واحدة في الشهر. واذ خلق فينا مطبخ السجن الاسرائيلي رغبات دفينة لأشياء كثيرة، كنا نهلل عندما يُحضر أهلنا معهم بعض الأطايب المنزلية، والعديد من الحاجيات الشخصية. ولأن أهل عقل وأهلي من نفس المنطقة، كانوا يقومون بزيارتنا في اليوم نفسه.

بعد تقديمهم الطلبات اللازمة، كان عناصر من منظمة الصليب الأحمر يجمعون الأهلين الذي يتبعون لمنطقة معينة، وينقلونهم في باصات الى سجن «مجدّو»، في رحلة تستغرق حوالي ساعتين. وبسبب اضطرار الباصات للتوقف عند كل الحواجز، وخضوع الركاب للتفتيش الدقيق، كان أهلنا يستيقظون عند الرابعة فجراً، لكي يتمكنوا من الوصول الى سجن مجدّو عند الظهيرة.

في احدى المرات، وعقب زيارة سعيدة قضاها برفقة أخته، عاد عقل الى القسم الخامس وهو يحمل كيس الطعام الذي أحضرته له. كان فرحاً جداً، ولم يكن يعلم ما كان في انتظاره. كان خالي ابراهيم قد جاء لالقاء محاضرة، وهو أمر كان يُعتبر على الدوام نذير شؤم. وقد علمت أنه دعا الجميع خلال عظته لتقديم المساندة التي تحتاجها «المجد»، عندما تقوم بالتحقيق مع أحد. هذه المرة، كان عقل هو هذا الأحد. فأخذ عناصر «المجد» منه هدايا أخته، واقتادوه الى احدى الخيام. ومع اختفائه خلف الستائر، صارت الكوابيس الليلية التي طالما ارتعب منها، واقعاً

يختبر فظاعته وهو في وعيه الكامل، مع صراخ شديد.

نظرت الى خالي متسائلاً في نفسي عن السبب في عدم محاولته ردع هؤلاء الرجال عن فعل ما فعلوه. فهو يعرف الرجل تماماً، كما أنه كان شريك سجنه مرات عدة، وعانى معه مرارة الاعتقال، فيما كان المسكين يطهو له الطعام ويعتني به. فهل لأن عقل فقير ومزارع من القرى، وهو من سكان المدن، لم يحرّك خالي ساكناً لمساعدته؟

مهما كانت الأسباب، فقد جلس ابراهيم أبو سالم مع عناصر «المجد»، يضحكون ويأكلون الطعام الذي جلبته الأخت لأخيها القابع في السجن. وبقربهم، كان رفاق عقل في حركة حماس، رفاقه في العروبة، رفاقه في الجنسية الفلسطينية، رفاقه في الاسلام، يعملون على غرز الأبر تحت أظافره.

في الأسابيع التي تلت، رأيت عقل مرات قليلة. كان حليق الذقن والرأس، وعيناه مثبتتان في الأرض، وهو مصاب بالهزال كرجل واقف على أبواب الموت.

فيما بعد، تسلمت ملف عقل لأنسخه، فكان يحتوي على اعترافات بمضاجعته كافة نساء القرية، بالاضافة الى بعض الحمير والحيوانات الأخرى. كنت أعلم أن كل كلمة في الملف انما هي كذب وافتراء، ولكنني نسخته، وأرسلته «المجد» الى قريته. فتبرّأت منه أخته، وأنكره جيرانه أجمعون.

برأيي، كانت «المجد» أسوأ من أي متعامل مع اسرائيل. ولكنهم كانوا أقوياء وأصحاب نفوذ داخل السجن. وافتكرت أنه بامكاني استغلالهم للوصول الى أهدافي الخاصة.

كان «أنس رصرص» مقرباً جداً من الجهاز الأمني والعسكري لحركة حماس. والده كان أستاذاً في احدى كليّات الضفة الغربية، وصديقاً حميماً لخالي ابراهيم. بعد وصولي الى سجن «مجدّو»، طلب خالي منه مساعدتي على التكيّف مع وضعي الجديد، وتعلم كل ما أحتاج الى معرفته. كان «أنس» من مدينة الخليل، وهو في حوالي الأربعين من العمر، شديد التكتم، حاد الذكاء، وكثير الخطورة. وقد كان خاضعاً لمراقبة الشين بيت لحظة بلحظة، عندما كان خارج السجن. أصدقاؤه كانوا قلة، وهو لم يشترك شخصياً في أعمال تعذيب المشتبه بهم. هذا الأمر جعلني أكن له الاحترام وأضع ثقتي به، فأطلعته على حقيقة موافقتي على التعامل مع الاسرائيليين، كي أصبح عميلاً مزدوجاً، فأحصل على أسلحة حديثة،

أقتلهم بها من الداخل. وسألته ان كان بامكانه مساعدتي. فقال: «دعني أفحص الأمر. لن أخبر أحداً بهذا، وسأرى ما بامكاني عمله».

«ماذا تقصد بأنك سترى؟ هل تستطيع مساعدتي أم لا؟».

كان يجب أن أكون أكثر دراية، فلا أضع ثقتي في هذا الرجل. فهو بدل أن يحاول مساعدتي، عمد للتوّ الى افشاء سرّي الى خالي ابراهيم وعدد من قادة «المجد».

في صباح اليوم التالي، جاء خالي لرؤيتي. وحالما ظهرت أمامه قال: «ماذا تظن أنك تفعل؟».

«لا تضطرب. لم أفعل شيئاً. لدي مخطط، وليس عليك أن تكون جزءاً منه».

«هذا خطير جداً، مصعب، لسمعتك وسمعة والدك والعائلة كلها. هذا العمل ليس لك. انه لأشخاص آخرين».

وبدأت الأسئلة تنهال عليّ: هل أعطاك الشين بيت اسم عميل تتصل به داخل السجن؟ هل قابلت شخصاً اسرائيلياً محدداً أو ذلك العنصر الأمني؟ ماذا قيل لي؟ ماذا قلت للآخرين؟ وكلما طال التحقيق، زاد غضبي أكثر، حتى انفجرت في وجهه أخيراً قائلاً: «لماذا لا تلتزم بشؤونك الدينية وتترك الموضوع الأمني جانباً؟ كل هؤلاء الأشخاص يعذبون الناس بلا سبب. لا يملكون أدنى فكرة عما يقومون به. أنظر، ليس لديّ ما أضيفه. سأفعل ما يحلو لي، وأنت افعل ما يحلو لك».

عرفت أن الأمور اتخذت منحىً سيئاً، مع أنني كنت متأكداً أنهم لن يعملوا على تعذيبي أو التحقيق معي، وذلك من أجل والدي. ومع هذا، كان بامكاني ملاحظة أن خالي ابراهيم لم يكن متأكداً من أنني أقول الحق أو لا. وعند هذه النقطة، لم أكن أنا نفسي متأكداً مما قلت.

أدركت أن وضع ثقتي في «المجد» كان عملاً غبياً. فهل وضع ثقتي في الاسرائيليين أيضاً كان مجرد عمل أحمق؟ فانهم الى الآن لم يقولوا لي شيئاً. لم يخبروني عمّن يمكنني الاتصال به. فهل هي لعبة يمارسونها معي؟

ذهبت الى خيمتي، يرافقني شعور بأنني على شفير الانهيار العقلي والعاطفي. فلم أعد أثق بأحد على الاطلاق. لاحظ السجناء أنني لست على ما يرام، لكنهم لم يعرفوا شيئاً عن أسباب ذلك. ومع ان «المجد» احتفظوا بأقوالي لأنفسهم، الا أنهم أخضعوني لمراقبة شديدة. فكان الجميع يشككون فيّ، وكنت أنا، بدوري،

أشكك في الجميع. كنا نعيش معاً في قفص مكشوف على الهواء الطلق، فلم يكن لدينا مكان آخر نقصده، أو نهرب اليه، او نختبىء فيه.

كلما كان الوقت يمر، كانت الشكوك تتزايد. وفي كل يوم كنت تسمع صراخاً، وفي كل ليلة كنت تشهد عملية تعذيب. حماس كانت تمارس التعذيب بحق شعبها. وبقدر ما كنت أرغب، كنت، ببساطة، عاجزاً عن تبرير ما يحدث.

لم يطل الأمر حتى ساءت الأمور أكثر. فبدلاً من شخص واحد، أصبح يخضع للتحقيق ثلاثة أشخاص معاً. عند الرابعة من فجر أحد الأيام، خرج رجل وهو يركض في أرجاء القسم، ثم دفع بنفسه الى السياج الشائك، وفي خلال عشرين ثانية كان قد اصبح خارج المخيم، وهو ممزق الثياب والدماء تسيل من كافة أنحاء جسده. وعندما رآه حارس البرج الاسرائيلي، صوّب نحوه استعداداً لاطلاق النار. فصرخ الرجل: «لا تطلق النار، لا تطلق النار. أنا لا أحاول الهرب. أنا أحاول التخلص منهم». وأشار بيده الى مجموعة عناصر «المجد» الذين كانوا يلهثون وراءه في الجهة المقابلة للسياج. وما هي الا لحظات، حتى هرع الجنود الاسرائيليون الى خارج البوابة، فطرحوا الرجل الى الأرض، وأجروا له تفتيشاً دقيقاً قبل ان يحملوه معهم بعيداً.

هل هذه هي حماس؟ هل هذا هو الاسلام؟

الفصل الرابع عشر

شغب

١٩٩٧

والدي كان الاسلام بالنسبة لي. اذا أردت أن أقيّمه بميزان الله، فسيزن أكثر من جميع المسلمين الذين عرفتهم في حياتي. فهو لم يغفل عن وقت صلاة. حتى عندما كان يأتي الى المنزل متأخراً ومتعباً، كنت دائماً أسمعه يصلي ويصرخ الى اله القرآن في منتصف الليل. كان متواضعاً ومحباً ومتسامحاً مع والدتي وأولاده، وحتى مع الذين لا تربطه بهم أية علاقة.

لم يكن والدي مدافعاً فقط عن القرآن، بل كان يعيشه كمثل لما يجب أن يكون عليه المسلم. كان يعكس جانب الاسلام الجميل، وليس الجانب الذي يتطلب من أتباع الاسلام قهر الأرض واستعبادها.

ومع ذلك، فقد رأيته خلال السنوات العشر التي أعقبت سجني، يعاني من صراع داخلي غير منطقي. فمن ناحية، لم يكن يرى في قتل المسلمين للمستوطنين والجنود الاسرائيليين والنساء والأطفال الأبرياء أية مشكلة. فهو كان يؤمن أن ما يفعلونه هو وصية الهية تجب عليهم طاعتها. ومن ناحية أخرى، لم يكن بامكانه أن يفعل هو شخصياً هذه الأعمال الرهيبة. شيء ما في نفسه كان يحمله على

رفض القيام بها. وما لم يكن يجيزه لنفسه، كان يعتبره حقاً للآخرين أن يفعلوه.

كطفل صغير، لم أكن أرى الا الفضائل في والدي، فكنت أظن أنها من ثمار ايمانه. ولأنني كنت أرغب في أن أكون مثله تماماً، آمنت بكل ما يؤمن به دون مناقشة. وما لم أكن أعلمه في ذلك الوقت، هو أنه مهما كان ثقلنا في ميزان الله، فان كل أعمالنا البارة والحسنة ما هي الا خرق نجسة أمامه.

ومع هذا، لم يكن المسلمون الذين رأيتهم في سجن «مجدّو» يشبهون والدي في شيء، بل حكموا على الناس وكأنهم أعظم من الله نفسه. كانوا مجبولين باللؤم والحقارة، وفي نفس الوقت يغطون شاشة التلفزيون لحفظنا من رؤية ممثلة مكشوفة الرأس. كانوا متزمّتين ومرائين، يعذبون من يمتلىء سجلهم بالنقاط الحمراء بحسب تقييمهم، مع العلم أن هؤلاء الضحايا لم يكونوا سوى من المساكين والبسطاء. فالسجناء الذين كان لديهم من يدعمهم، كانوا في دائرة الحفظ والصون، حتى ولو اعترف واحد منهم بتعامله مع الاسرائيليين، كابن الشيخ حسن يوسف.

للمرة الأولى في حياتي أطرح أسئلة حول أشياء طالما آمنت بها.



"ثمانمئة وثلاثة وعشرون».

انه موعد محاكمتي، بعد ستة أشهر أمضيتها في السجن. في القدس، حيث نقلني جيش الدفاع الاسرائيلي، طلب المدّعون من القاضي اصدار حكمه بسجني ستة عشر شهراً.

ستة عشر شهراً!! لقد كان وعد ضابط الشين بيت لي بالبقاء فترة قصيرة في السجن. ماذا فعلت لكي أستحق هذه الحكم الجائر؟ آه، نعم. لقد كان لديّ فكرة حمقاء، وقمت بشراء بعض الأسلحة. ولكنها كانت أسلحة بالية لا تعمل.

«ستة عشر شهراً».

حسمت المحكمة فترة الأشهر الستة التي قضيتها في السجن، وأمرت باعادتي الى «مجدّو» لتمضية الأشهر العشرة المتبقية. في مناجاتي لله قلت: «حسناً، أستطيع تمضية عشرة أشهر أخرى، ولكن أرجوك، ليس هناك. ليس في الجحيم».

ولكن لم يكن هناك مَن أشكو له أمري. وبالتأكيد لم أكن لأفعل هذا مع رجال الأمن الاسرائيلي، الذين جندوني للعمل معهم، ثم تركوني وشأني.

كان مسموحاً لي أن أرى عائلتي مرة واحدة في الشهر على الأقل. فكانت أمي تقوم بهذه المهمة الشاقة الى «مجدّو» كل أربعة أسابيع. وكان مُصرّحاً لها بأن تحضر ثلاثة فقط من أخوتي معها. فكانوا يأتون لزيارتي بحسب أدوارهم. وفي كل مرة، كانت والدتي تحضر معها فطائر السبانخ اللذيذة، وحلوى البقلاوة.

لم تهمل عائلتي زيارتي ولا مرة واحدة. فكان وجود أهلي بقربي مصدر عزاء وراحة، على رغم أنني لم أكن قادراً على مشاركتهم أخبار السجن، وما يجري داخل الشريط الشائك وخلف ستائر الخيم. وكانت رؤية أهلي لي تخفف عنهم آلامهم الى حد ما. فقد كنت بمثابة الوالد لأخوتي وأختاي الأصغر مني. كنت أطهو لهم الطعام، وأنظف المكان عندما ينتهون من الأكل، كما كنت أساعدهم في الاستحمام وألبسهم ثيابهم، وآخذهم الى المدرسة وأرجعهم الى البيت. وفي السجن، كنت لهم بمثابة بطل المقاومة، فكانوا فخورين بي جداً.

في احدى الزيارات، أخبرتني والدتي ان السلطات الفلسطينية أطلقت سراح والدي. واذ كنت أعلم أن رغبة شديدة كانت لديه للقيام بفريضة الحج الى مكة، قالت لي أمي أنه سافر فعلاً الى السعودية، بعد وقت قصير من الافراج عنه. فالحج هو الركيزة الخامسة من ركائز الاسلام، وكل مسلم قادر جسدياً ومادياً، كان واجباً عليه القيام برحلة الحج الى مكة، مرة واحدة على الأقل في حياته. فكان يزورها مليونا شخص كل عام.

الا أن الفرصة لم تسنح لوالدي هذه المرة للحج. ففيما كان يحاول عبور جسر اللنبي بين اسرائيل والأردن، في طريقه الى السعودية، تم اعتقاله مرة جديدة، وهذه المرة من قبل الاسرائيليين.



بعد ظهر أحد الأيام، سلمت حركة حماس المسؤولين الاسرائيلين في سجن «مجدّو» لائحة مطالب غير ذات قيمة، وطلبت منهم تنفيذها في غضون أربع وعشرين ساعة، تحت طائلة القيام بأعمال شغب في حال التخلف. ولكنه غنيّ عن القول ان مسؤولي السجن لا يرغبون برؤية انتفاضة يقوم بها السجناء، لأن أعمال الشغب يمكن أن تؤدي الى اطلاق رصاص يودي بحياة سجناء، والحكومة البيروقراطية في القدس كانت بغنى عن مشاكل يمكن أن تثيرها منظمات الصليب

الأحمر وحقوق الانسان، في ما لو حصلت مثل هذه الأحداث، التي لن تكون في مصلحة أي من الطرفين. فطلب الاسرائيليون الاجتماع مع الشاويش، الذي هو ممثل حماس في قسمنا، وقالوا له: «لا يمكننا العمل بهذه الطريقة. أعطنا بعض الوقت، وسنرى ماذا يمكننا عمله».

فأجابهم الشاويش باصرار شديد: «لا. ليس أمامكم الا اربعاً وعشرين ساعة».

بالطبع، لا يمكن للاسرائيليين الاذعان وكأنهم صاغرون. وأنا أقول بصدق أنني لم أر موجباً للقيام بهذه الفتنة. فمع أننا كنا بحالة يُرثى لها في السجن، الا أنه مقارنة بالسجون الأخرى التي سمعت عنها، كان «مجدّو» يُعتبر سجناً بخمس نجوم. فالمطالب بدت لي سخيفة وغير ذات هدف، كأن يُعطى السجناء فترة أطول للتحدث على الهاتف، أو يُسمح لأهلهم بساعات زيارة أكثر، وهكذا.

خلال النهار، كنا نعدّ الساعات فيما كانت الشمس تسير متباطئة نحو الغروب. وعندما انتهت مهلة الانذار، طلبت منا حماس الاستعداد للقيام بأعمال الشغب. فسألنا عما هو مفترض بنا أن نفعله. فأجابنا المسؤولون: «فقط قوموا بأعمال التخريب والعنف. انزعوا أرضية المكان وارشقوا الجنود بقطعها. أرموهم بقطع الصابون وبالمياه الساخنة. أرموا باتجاههم كل ما بامكانكم حمله».

ملأ بعض الشبان أوعية بالماء، حتى اذا ما رمى الجنود باتجاهنا القنابل المسيلة للدموع، يمكننا حملها وتغطيسها، فنبطل مفعولها. ثم بدأنا بتحطيم غرفة التمارين الرياضية. وللحال، أطلقت جميع صفارات الانذار، وبدت الأمور على درجة كبيرة من الخطورة. فيما هرع مئات جنود مكافحة الشغب الى داخل المخيم، موجهين فوّهات بنادقهم باتجاهنا من خلال الشريط الشائك.

الشيء الوحيد الذي بقي يجول في خاطري هو التساؤل عن مدى الجنون الذي يحصل، والغاية من فعل ما نفعله. وقلت في نفسي: «هذا جنون. وكل هذا بسبب ذلك الشاويش المعتوه». لم أكن جباناً، ولكن ما يحصل كان من دون هدف. كان الاسرائيليون على درجة عالية من التسلح ومحصّنين جداً، فيما نحن نرميهم بقطع الاسفلت.

حالما أعطت حماس شارة الانطلاق، بدأ السجناء في كل الأقسام برمي قطع الخشب والحجارة والصابون. وفي ثوان قليلة، تطايرت مئات القنابل المسيلة للدموع الى داخل الأقسام، حيث انفجرت وملأت المكان بالدخان الأبيض الكثيف. لم

أقدر على رؤية شيء. كما أن الرائحة الكريهة التي لا توصف عبقت في الأجواء، فانبطح الرجال أرضاً لاستنشاق الهواء النقي.

حدث كل هذا في دقائق ثلاث فقط، كانت مجرّد البداية للاسرائيليين. فقد وجّه الجنود باتجاهنا خراطيم ضخمة، أطلقوا منها أكياساً من الغاز الأصفر. هذه الأكياس لا تنتشر في الهواء كالغاز المسيل للدموع، انما تسقط لثقلها على الأرض، وتفرغ المنطقة المحيطة من الأوكسجين. وقد أصيب عدد من السجناء بالاغماء بسببها.

كنت أحاول التقاط أنفاسي عندما شاهدت النيران.

كانت خيمة الجهاد الاسلامي في المربع الثالث تحترق. وفي خلال ثوان، تصاعدت شهب النار عشرين قدماً في الجو. كانت الخيم معالجة بنوع من المواد العازلة التي يدخل النفط في تصنيعها، فتحترق بسرعة هائلة. أعمدة الخيمة وهيكلها الخشبي، والأسرّة والخزائن، أكلتها النيران، التي انتشرت بمساعدة الهواء الى خيم فتح والمنظمة الشعبية والمنظمة الديمقراطية لتحرير فلسطين، التي استسلمت للنار وتحولت الى رماد في خلال ثوان عشر.

النار المستعرة كانت تتجّه نحونا بسرعة هائلة، في الوقت الذي تطاير جزء كبير من خيمة مشتعلة وحط على الشريط الشائك. واذ أحاط بنا الجنود، لم يكن أمامنا طريق للهرب الا من خلال ألسنة النار، فما كان لنا خيار آخر الا أن نبدأ بالركض.

وضعت منشفة على رأسي ووجهي وعدوت مسرعاً باتجاه المطبخ. لم يكن هناك سوى عشرة أقدام تفصل خيمة تحترق عن حائط السياج. وكان أكثر من مئتي رجل يحاولون عبور هذه الفسحة في وقت واحد، فيما كان الجنود الاسرائيليون لا يزالون يقذفون الأكياس الصفراء في أرض القسم.

خلال دقائق، اختفى نصف عدد الخيم في القسم الخامس، مع أشيائنا القليلة التي تحولت الى رماد.

سجناء عديدون أصيبوا بجروح، تم نقلهم للمعالجة بسيارات الاسعاف التي هرعت الى المكان. وكانت لنا بمثابة أعجوبة أن أحداً لم يُقتل. وبعد انتهاء أعمال الشغب، تم نقل السجناء الذين احترقت خيامهم الى مكان آخر. أما أنا فقد تم نقلي الى خيمة حماس الوسطى في المربع الثاني.

الحسنة الوحيدة التي حصدناها من الشغب الذي حدث في سجن «مجدّو»، هي توقف أعمال التعذيب التي كان يمارسها قادة حماس. ومع أن عمليات الاستقصاء والتحري تواصلت، الا أننا شعرنا براحة أكثر، وتعاطينا مع الأمور بقلة اكتراث. بعد هذا، أقمت صداقة مع اثنين من السجناء، شعرت أنني أستطيع الثقة بهما، على رغم أنني كنت أقضي الساعات وحيداً، أتجول في أرجاء المخيم يوماً بعد يوم، دون القيام بأي عمل.



"ثمانمئة وثلاثة وعشرون».

في الأول من أيلول العام ١٩٩٧، أعاد أحد الحرّاس أغراضي الشخصية، والنقود القليلة التي كانت بحوزتي حين اعتقالي، ثم كبّلني، وأصعدني الى باص صغير يستقله عدد من الجنود. عند اقترابهم من أول حاجز تابع للسلطة الفلسطينية، في مدينة جنين بالضفة الغربية، أوقفوا الباص وفتحوا الباب وحلوا قيودي، ثم قال لي واحد منهم: «أنت حر. يمكنك الذهاب». ثم قفلوا عائدين في الطريق التي أتينا منها، تاركين أياي وحيداً على قارعة الطريق.

لم أقو على تصديق ما حصل. كم كان رائعاً السير في العراء. كنت متحرّقاً لرؤية أمي وأخوتي، الذين كانوا على بعد ساعتين من المكان الذي أنا فيه. ومع هذا، فقد سرت على مهل، لكي أتلذذ بطعم الحرية.

تدرّجت في السير مسافة ميلين، كنت خلالهما أملأ رئتي بالهواء المنعش، وأمتع أذنيّ بالهدوء العذب. واذ بدأت أشعر بكوني انساناً من جديد، استقليت سيارة أجرة نقلتني الى وسط المدينة، ثم أخذت سيارة ثانية نقلتني الى نابلس، فرام الله، فالمنزل.

عندما كانت السيارة تخترق شوارع رام الله، وأنا أنظر الى الناس والمحال التجارية المألوفة، تمنيت لو بامكاني القفز واطلاق العنان لنفسي للتمتع بكل شيء. وقبل أن أخرج من السيارة التي توقفت عند مدخل المنزل، ألقيت نظرة خاطفة على والدتي التي كانت واقفة عند الباب. بدأت الدموع تنهاز غزيرة على خدّيها عندما نادتني، وركضت باتجاه السيارة وأحاطت بي بذراعيها. واذ كانت ملتصقة بي، بدأت تربّت على ظهري وكتفيّ، وتمسح وجهي ورأسي بيديها، فشعرتُ وكأن كل

الآلام التي عانت منها على مدى سنة ونصف السنة، قد انزاحت عن صدرها في تلك اللحظات. ثم قالت لي: «كنا نحسب الأيام بانتظار عودتك. وكنا نخشى أن لا نراك مرة ثانية. نحن فخورون بك جداً، مصعب. أنت بطل حقيقي».

كما كان يحصل مع والدي، لم يكن بامكاني اخبار والدتي و أخوتي عن المعاناة التي عشتها في السجن، لأن ذلك سيؤلمهم جداً. كنت عندهم بطلاً كان معتقلاً في السجون الاسرائيلية مع بقية الأبطال، وها أنا اليوم قد عدت الى البيت. وكانوا ينظرون الى الأمر على اعتباره تجربة مفيدة، شكلت براءة عبور لي الى عالم الرجال. هل علمت أمي بموضوع الأسلحة؟ نعم. هل افتكرت بأن هذا العمل كان غبياً؟ ربما. ولكن، تحت شعار المقاومة، كان كل ما يحصل يلقى التفهم والقبول، ويتم التغاضي عنه.

أمضينا بقية النهار نحتفل بعودتي، متلذذين بأطايب الطعام الذي أعدّته والدتي، ومطلقين النكات، ومستذكرين الأحداث المضحكة التي كانت تحصل معنا، كما كنا نفعل دائماً. فامّحت من ذاكرتي فترة اعتقالي، بحيث شعرت أنها لم تكن أصلاً. وخلال الأيام القليلة التالية، زار منزلنا العديد من أصدقائي وأصدقاء والدي لتهنئتنا ومشاركتنا هذه الفرحة.

لازمت المنزل طوال أسابيع، كنت خلالها أنهل من نبع المحبة التي سكبها عليّ الجميع، وألذذ نفسي بمأكولات أمّي. بعدها، بدأت بالخروج للتمتع بالمناظر والأصوات والروائح التي افتقدتها لزمن طويل. وفي الأمسيات، كنت أقصد مع رفاقي أسواق المدينة، لنأكل الفلافل في مطعم ميس الريم، ونحتسي القهوة في مقهى الكيت كات مع صاحبها بسّام حوري. وفيما أنا أجوب الشوارع مع أصدقائي، كنت استنشق مع هوائها سلام وبساطة الحرية.

في الفترة ما بين اطلاق سراح والدي من سجن السلطة الفلسطينية، واعادة اعتقاله من قبل الاسرائيليين، حملت والدتي مرة جديدة بطفل في أحشائها. كان هذا الأمر مفاجئاً لوالديّ، اللذين كانا قد اتفقا على عدم انجاب المزيد من الأطفال، بعد ولادة أختي أنهار منذ سبعة أعوام. عند خروجي من السجن، كانت والدتي في شهرها السادس، والجنين في بطنها يكبر باضطراد. ثم ما لبثت أن كسرت رجلها عند الكاحل، فاستغرقت عملية شفائها وقتاً طويلاً، لأن أخينا الجنين كان يستهلك كل الكالسيوم الذي لديها. لم يكن لدينا كرسي خاص بالمعوّقين،

فكنت أضطر لحملها الى المكان الذي تريده. كانت تتألم كثيراً، وتكسر قلبي لرؤيتها على هذه الحال. فلما حصلت على رخصة قيادة، صرت أخرجها معي للتفسّح وشراء البقالة التي نحتاجها. وعندما ولد «نصر الله»، أخذت على عاتقي مهمة اطعامه واستحمامه وتغيير الحفاضات له. فبدأ حياته وهو يظن بأنني والده.

لا حاجة للقول أن الامتحانات المدرسية قد فاتتني، فلم أتخرّج من الثانوية العامة. ومع هذا، عُرض علينا كطلاب معتقلين اجراء الامتحانات في السجن، لكنني الوحيد الذي رسبت فيها. ربما لن أفهم هذا الأمر أبداً، لأن ممثلين من وزارة التعليم حضروا الى السجن، ووزعوا أوراق الاجابات الصحيحة على الطلاب قبل اجراء الامتحان. كان هذا ضرب من الجنون. فقد نجح كل الطلاب، ومن بينهم شخص أميّ يناهز الستين من العمر، كان قد طلب من أحدهم كتابة الأجوبة له. أما أنا، ومع وجود ورقة الاجابات معي أيضاً، وقد ذهبت الى المدرسة على مدى اثنتي عشرة سنة، وكنت مُلمّاً بالمنهاج الدراسي، فلم أنجح. الفكر الوحيد الذي راودني عن السبب في ذلك، هو أن الله لا يريدني ان أنجح عن طريق الغش.

عندما عدت الى المنزل، بدأت بحضور صفوف ليلية في مدرسة «الأهلية» الكاثوليكية في رام الله، حيث كان أكثر الطلاب من المسلمين التقليديين، لأنها كانت المدرسة الأفضل في المدينة. دراستي الليلية أفسحت لي المجال للعمل خلال النهار، في محل «تشيكرز» لبيع ساندويشات الهامبرغر، ما أعانني على دعم عائلتي مادياً.

حصلت على درجة اربعة وستين في المئة في امتحاناتي النهائية، كانت كافية لنجاحي. لم أصرف جهداً كبيراً في الدراسة، لأنني لم أكن منجذباً للموضوع، فلم أهتمّ. كنت شاكراً أنني تخطيت هذه المرحلة، فرميتها خلفي الى الأبد.

الفصل الخامس عشر

طريق دمشق

١٩٩٧ ـ ١٩٩٩

كان قد مرّ حوالي شهرين على اطلاق سراحي، عندما رن هاتفي الخليوي يوماً. حالما وضعته على أذني، سمعت من الطرف الآخر شخصاً يقول بالعربية: « مبروك ».

عرفت من لكنته أنه ضابط الشين بيت « الصادق »، لؤي.

« نحب أن نراك. ولكن لا يمكننا التحدث طويلاً على الهاتف. هل يمكن أن نتقابل؟ ».

« بالطبع ».

ثم زوّدني برقم هاتفي، وكلمة سرّ، وبعض التوجيهات، فشعرت بأنني جاسوس حقاً. وطلب مني الذهاب الى مكان معيّن، ثم الى آخر، على أن أهاتفه من هناك.

اتبعت التعليمات كما أعطاها لي، واتصلت به، فزوّدني بتوجيهات اضافية. مشيت حوالي عشرين دقيقة، الى أن مرّت سيارة وتوقفت بالقرب مني. طلب مني السائق الصعود الى جانبه، فصعدت. وبعد أن أجرى لي تفتيشاً، طلب مني الانحناء الى أسفل السيارة، ثم وضع فوقي ملاءة لتغطيتي.

انطلقت السيارة في رحلة استمرت ساعة تقريباً، كنا صامتين خلالها تماماً، ثم توقفت أخيراً في مرآب منزل أحد الأشخاص. كنت سعيداً أنه لم يكن في احدى القواعد العسكرية، او المستوطنات. وحالما دخلت المنزل تمّ تفتيشي ثانية، ولكن بأكثر دقة، قبل أن أخطو الى غرفة جلوس تحتوي على أثاث أنيق. جلست هناك للحظات قبل أن يدخل لؤي، الذي صافحني وتقدم وضمني الى صدره.

« كيف حالك؟ كيف كانت تجربتك في السجن؟ ».

أجبته بأنني بخير، وأن تجربة السجن لم تكن جيدة، خاصة وأنّ وعده لي كان بقضاء فترة قصيرة فيه.

« أنا متأسف. كان علينا القيام بهذا من أجل حمايتك ».

طرأت على رأسي الكلمات التي قلتها « للمجد »، حول نيّتي بأن أكون عميلاً مزدوجاً، وتساءلت ما اذا كان لؤي على علم بها. فلكي أحمي نفسي من احتمال معرفته بهذا الأمر، قلت له: « أنظر، كانوا يعذبون الناس هناك، ولم يكن من خيار أمامي الا أن أخبرهم بأنني وافقت على العمل معك. كنت خائفاً. فأنت لم تحذرني مما كان يجري في السجن. كما أنك لم تنبّهني لكي أحذر من أبناء شعبي. أنت لم تدرّبني، وأنا كنت مرتعباً. لذلك، أخبرتهم بأنني وعدتك بالعمالة، على أن أصبح عميلاً مزدوجاً، فأقتلكم ».

دُهش لؤي مما قلته، لكنه لم يغضب. فمع ان الشين بيت لا يمكنهم منع أعمال التعذيب في السجن، الا أنهم بالتأكيد يعلمون بها، وقد فهموا لماذا كان عليّ أن أشعر بالخوف.

اتصل لؤي بالمسؤول الأعلى منه ونقل اليه ما اعترفت به. ولكن بما أنه كان من الصعب جداً على اسرائيل تجنيد أي من عناصر حماس، أو ربما لأنني كنت ذا قيمة كبيرة لديهم، على اعتباري ابن الشيخ حسن يوسف، تم تجاهل الأمر.

لم يكن الاسرائيليون كما كنت أتوقعهم.

ناولني لؤي عدة مئات من الدولارات، وطلب مني أن أشتري بعض الثياب، وأن أهتمّ بنفسي، وأستمتع بحياتي. وأضاف: « سنعود للتواصل لاحقاً ».

ماذا؟ لا مهمّات سريّة؟ لا رموز شيفرة؟ لا سلاح؟ فقط رزمة من المال وضمة الى الصدر؟ لم يكن هناك أي منطق معقول في هذا بالنسبة لي.

بعد أسبوعين تقابلنا مجدداً، وهذه المرة في منزل أحد عناصر الشين بيت في

قلب مدينة القدس. كل المنازل كانت مفروشة على أحدث طراز، ومليئة بأجهزة الانذار والحراس، ويسودها التكتم الشديد، حتى أن أقرب الجيران لا يعلمون البتة ماذا يجري في داخلها. معظم الغرف جُهّزت لتكون صالات اجتماع. ولم يكن مسموحاً لي التنقل بين الغرف من دون مرافق، ليس لأنهم لا يثقون بي، بل لأنهم لا يريدونني أن أظهر أمام عملاء آخرين للشين بيت. فقد كان هذا تدبيراً أمنياً اضافياً.

خلال اللقاء الثاني هذا، كان عناصر الشين بيت ودودين للغاية. كانوا يتكلمون العربية بطلاقة، وكان واضحاً أنهم يعرفونني ويعرفون عائلتي وثقافتي. لم يكن لدي معلومات لأدلي بها، وهم لم يسألوني عن أي شيء محدّد. لقد تحدثنا ببساطة عن شؤون الحياة العامة.

لم يكن هذا ما كنت أتوقعه البتة. كنت حقاً أريد معرفة ما الذي يريدون مني فعله. وفي نفس الوقت، كنت خائفاً الى حد ما أن يطلبوا مني مضاجعة أختي أو احدى الجارات، وأن أجلب لهم الشريط المصوّر. ولكن، لم يكن شيء من هذا على الاطلاق.

بعد اللقاء الثاني، أعطاني لؤي ضعف كمية المال الذي أعطاني اياه في اللقاء الأول. وفي خلال شهر واحد، كنت قد استلمت منه مبلغ ثمانمئة دولار، وهو مبلغ طائل يحصّله شاب في العشرين من العمر. ومع هذا، لم يطلب مني أحد بعد أن أعطي شيئاً مقابل هذا المال. وفي الحقيقة، في أشهري الأولى كعميل للشين بيت، تعلمت أشياء كثيرة تفوق بأضعاف ما قدمته لهم.

عملية تدريبي بدأت ببعض القواعد الأساسية. لم يكن مسموحاً لي ارتكاب الفواحش، خشية افتضاح أمري، أو احتراقي. وفي الحقيقة، قيل لي بألا أقيم أي نوع من أنواع العلاقات الغرامية أو الزوجية، مع فلسطينيات أو اسرائيليات، طوال الفترة التي كنت أعمل فيها معهم، تحت طائلة انتهاء أمري. وكان عليّ أن لا أخبر أحداً عن قصة العمالة المزدوجة تلك.

مع كل لقاء، كنت أتعلم شيئاً جديداً عن الحياة والعدالة والأمن. لم تحاول الشين بيت اجباري على عمل أشياء سيئة. بل على العكس، كانوا يعملون جاهدين على بناء شخصيتي بما يجعلني أكثر قوة وحكمة.

مع مرور الأيام، بدأت أناقش نفسي في الأفكار التي كانت لديّ حول قتل

اسرائيليين. لقد كانوا لطفاء جداً معي، وأبدوا اهتماماً حقيقياً بي. فلماذا أريد قتلهم؟ كم اندهشت عندما لم أعد أفكر بالأمر في ما بعد.

الاحتلال لم ينته. والمدافن في البيرة كانت لا تزال تستقبل كل يوم جثث الرجال الفلسطينيين والنساء والأطفال الذين كانوا يُقتلون على أيدي الجنود الاسرائيليين. كما أني لم أنس الضرب المبرّح الذي تلقيته في الطريق الى السجن، أو الأيام التي قضيتها مقيّداً الى الكرسي الصغير.

وفي نفس الوقت، تذكرت الصراخ المنبعث من خيام التعذيب في «مجدّو»، والرجل الذي هشّم جسده على الشريط الشائك في محاولته النجاة من جلادي حماس. وها أنا الآن أنمو في المعرفة والحكمة. ومن هم مرشديّ؟ انهم أعدائي. ولكن، هل هم حقاً كذلك. أو أنهم يُظهرون لي المحاسن لكي يعملوا على استغلالي في ما بعد؟ هذه التساؤلات زادت حيرتي أكثر من ذي قبل.

في أحد اللقاءات، قال لؤي: «منذ بدأت العمل معنا ونحن نفكر في اطلاق سراح والدك، وهكذا تكون أنت قريباً منه، وتعلم بكل شيء يجري في الأراضي الفلسطينية». لم أعرف ما اذا كان هذا الامر ممكناً، ولكنني كنت فرحاً باستعادتي والدي مجدداً.

في السنوات التالية، كنت واياه نتبادل الملاحظات حول اختباراتنا. لم يكن هو يرغب في الدخول بتفاصيل الآلام التي اجتاز فيها، لكنه أرادني أن أعرف بأنه أصلح العديد من الأمور خلال وجوده في سجن «مجدّو». وأخبرني أنه كان يشاهد التلفزيون في احدى المرات، عندما أسقط أحدهم لوحاً خشبياً أمام الشاشة، فقال للأمير: «انني لن أشاهد التلفزيون مرة أخرى ان واصلت تغطية الشاشة بهذا اللوح». فتم انزال اللوح، وكانت المرة الأخيرة التي يستخدمونه فيها. وعندما تمّ نقله الى السجن في المخيم، كان قادراً أيضاً على وضع حدّ لعمليات التعذيب التي كانت تجري. كما أنه أمر «المجد» بتسليمه كافة الملفات للاطلاع عليها، فوجد أنّ ما لا يقلّ عن ستين في المئة من المتهمين بالتعامل مع اسرائيل، كانوا أبرياء. فكان حريصاً على أن يتمّ اعلام أهالي هؤلاء وسكان بلداتهم ببُطلان التهم الموجّهة اليهم. واحد من هؤلاء الأبرياء كان «عقل سرور». شهادة البراءة التي أرسلها والدي الى قريته، لم يكن بامكانها محو الآلام التي عاناها، ولكنها على الأقل جعلته يعيش بسلام وشرف.

بعد اطلاق سراح والدي من السجن، جاء خالي ابراهيم لزيارتنا. فأراد والدي لنسيبه أن يعلم بأنه أنهى عمليات التعذيب في سجن «مجدّو»، وأن معظم الرجال الذين تهدّمت حياتهم وحياة عائلاتهم بسبب «المجد» كانوا أبرياء. فتظاهر خالي بالصدمة لسماعه هذه الأخبار. وعندما أخبره والدي عن «عقل»، قال خالي انه حاول الدفاع عنه، واقناع «المجد» بأنه لا يمكن أن يكون متعاملاً مع اسرائيل، وقال: «الحمد لله لمساعدتك اياه».

لم يكن بامكاني تحمل مراءاته، فتركت الغرفة وخرجت.

أخبرني والدي أيضاً أنه سمع من «المجد» بقصتي عن العمالة المزدوجة، خلال وجوده في سجن «مجدّو». لم يغضب مني، ولكنه قال لي ان قيامي باخبارهم من الأصل كان عملاً متهوراً. فقلت له: «أعلم يا أبي. لا تقلق بشأني. أستطيع الاهتمام بنفسي».

«حسن أن أسمع منك هذا. أرجوك أن تكون حذراً من الآن فصاعداً. لا يوجد أحد في الدنيا أثق به أكثر منك».

عندما التقينا ذلك الشهر، قال لؤي: «انه الوقت للبدء في العمل. هذا ما نريدك أن تقوم به». فقلت في نفسي: «أخيراً». لكن لؤي أكمل حديثه قائلاً: «مهمتك أن تذهب الى الكلية، للحصول على شهادة البكالوريوس». وفيما هو يسلمني مغلفاً مليئاً بالنقود، أضاف: «هذا ينبغي ان يغطي مصاريف الكليّة ومصاريفك الخاصة. فاذا احتجت للمزيد، رجاءً، دعني أعلم».

كُدت لا أصدّق. أما بالنسبة للاسرائيليين، فالأمر في غاية المنطق. فتحصيلي العلمي، والعلاقات التي أقيمها داخل وخارج الكليّة، كانت بالنسبة لهم استثماراً مُهماً. فلم يكن أمراً مفيداً للأمن القومي التعامل مع غير المثقفين والذين لا يُرجى منهم شيء. وبالنسبة لي، كان ظهوري بمظهر الخائب المتسكع على الطرقات يشكل خطراً عليّ، لأن المفهوم الشائع لدى الناس في الأراضي الفلسطينية، ان المتسكعين والخائبين فقط، هم عرضة لأن يُغرّر بهم فيعلقون في شباك التعامل مع اسرائيل. ولكن هذا المفهوم لم يكن له مكان عند اسرائيل، التي ترى انه لا يمكن الاستفادة من الخائبين بشيء.

تقدمت بطلب انتساب الى جامعة «بير زيت»، الا انهم رفضوني بسبب تدني مستوى العلامات التي حصلت عليها في الثانوية العامة. شرحت لهم أنني مررت

بظروف استثنائية، وأنني كنت مسجوناً، وحاولت اقناعهم بأنني شاب ذكي، وسأكون تلميذا ممتازاً، الا أنهم رفضوا تدبير الأمر استثنائياً. فلم يكن أمامي سوى خيار وحيد، وهو الانتساب الى جامعة القدس المفتوحة، والدراسة في المنزل.

تفوقت في الدراسة هذه المرة، لأنني كنت على درجة أعلى من الحكمة، وكان هناك ما يدفعني الى طلب العلم. وللمفارقة، كان عدوّي هو مَن كان عليّ أن أشكر لأجل هذا الفضل.

في كل مرة التقيت فيها ضباط الشين بيت، كانوا يقولون لي: «اذا احتجت الى شيء دعنا نعلم. يمكنك الوضوء والصلاة. لا داعي لأن تكون خائفاً». كان الطعام والشراب الذي يقدمونه لي مطابقاً للشريعة الاسلامية. وقد حرص هؤلاء الضباط على عدم التصرف بأي شكل يعلمون أنه يسبب اساءة لي. فلم يكونوا يلبسون السراويل القصيرة، أو يرفعوا أرجلهم الى المكتب الذي يجلسون عليه ويلوّحوا بأقدامهم في وجهي. كانوا يتعاملون معي باحترام شديد. من أجل هذا، كنت أرغب بتعلم المزيد منهم. لم يكونوا يتصرفون كآلات عسكرية. لقد كانوا بشراً، وعاملوني كانسان. ويمكنني القول أنه في كل مرة التقيت بهم، كان ينهار حجر من حجارة الأساس الذي بنيت عليه نظرتي للعالم.

ثقافتي، وليس والدي، هي من علمتني أن جيش الدفاع الاسرائيلي والشعب الاسرائيلي هما أعدائي. لم يكن ينظر والدي الى الجنود كجنود، بل كان يراهم أفراداً يقومون بما يؤمنون أنه من مسؤوليتهم القيام به كجنود. لم تكن له مشكلة مع الناس، ولكن مع القناعات التي كانت تحرك الناس وتقودهم.

لؤي كان شبيهاً بوالدي أكثر من أي فلسطيني عرفته. فهو لم يكن يؤمن بالله، ولكنه كان يحترمني في كل الأحوال. اذاً، من هو عدوّي الآن؟

تحدثت مع الشين بيت عن أعمال التعذيب في «مجدّو». فقالوا انهم يعرفون كل شيء عنها. كانوا يعلمون بكل عمل يقوم به السجناء، ويسجلون كل كلمة يقولها أحد منهم، ولم تخفَ عنهم الرسائل السريّة في كرات العجين، وخيم التعذيب، والممرّ السرّي عبر الأسلاك المقطعة في السياج.

«لماذا لم تعملوا على ايقافها؟».

«أول كل شيء، لا نقدر على تغيير هذا النوع من العقلية. كما أنه لم يكن من مهماتنا تعليم حماس كيف يحبون بعضهم بعضاً. لا يمكننا الدخول الى

الخيم والقول: هاي، لا تعذبوا أو تقتلوا بعضكم بعضاً، واعملوا كل شيء حسناً. ثانياً، حماس تقوم بهدم نفسها من الداخل، أكثر مما تستطيع اسرائيل أن تفعل من الخارج. فماذا نريد أكثر؟».

العالم الذي كنت أعرفه بدأ يتآكل وينهار، ويظهر مكانه عالم آخر بدأت أستوعبه للتو. ففي كل مرة التقي بالشين بيت، أتعلم شيئاً جديداً عن حياتي وعن الآخرين، لم أكن على دراية به. لم يكن ما يحصل معي نتيجة عملية غسل دماغ تتمّ عن طريق التكرار، او الحرمان من الطعام والنوم. ما كنت أتعلمه من الاسرائيليين كان أقرب الى المنطق والى الحقيقة، أكثر من أي شيء سمعته في حياتي من أبناء شعبي.

لم يعلمني والدي أيّاً من هذه المفاهيم، لأنه كان دائم المكوث في السجن. وأقول بصدق، أنني أشكك بأنه كان سيعلمني شيئاً منها في كل الأحوال، لأنه هو نفسُه لا يعلم شيئاً عنها.



من بين البوّابات القديمة السبع في الأسوار التي تشكل المعابر الى داخل مدينة القدس القديمة، توجد واحدة مزخرفة أكثر من البوابات الأخرى، هي بوابة دمشق، التي بناها سليمان العظيم منذ ما يربو على الخمسمئة عام تقريباً، وتقع في منتصف السور الشمالي. وفي دلالة ذات مغزى، يَعبر الناس من خلال هذه البوابة الى المدينة القديمة، بمحاذاة الحدود التي تجمع بين الحيّ الاسلامي التاريخي والحيّ المسيحي.

في القرن الأول الميلادي، عَبر شخص يُدعى شاول الطرسوسي هذه البوابة في حالتها الأصلية باتجاه دمشق، حيث كان يقود حملة وحشية لقمع طائفة يهودية جديدة كان يعتبرها هرطوقية. أهداف حملة الأضطهاد هذه أصبحوا يعرفون بالمسيحيين. لكن لقاءً مُفاجئاً وغير مُتوقع جرى مع شاول، لم يحمله فقط على التراجع عن تحقيق هدفه، بل غيّر مجرى حياته الى الأبد.

مع كل التاريخ الذي يعبق في جو هذه البقعة القديمة، لم يكن عليّ ربما أن أتفاجأ بلقاء غير متوقع يجري معي، ويغيّر مجرى حياتي أنا أيضاً. فكما جرى مع شاول، كنت أعبر يوماً مع صديقي المفضل جمال بوابة دمشق، عندما سمعت

فجأة صوتاً يناديني قائلاً: «ما اسمك؟». كان شاباً في حوالي الثلاثين من عمره، يطرح الأسئلة باللغة العربية، مع أنه لم يكن عربياً.

«اسمي مصعب».

«الى أين أنتم ذاهبون، مصعب».

«ذاهبون الى المنزل. نحن من رام الله».

«أنا من المملكة المتحدة». قال هذه العبارة باللغة الانكليزية، ثم واصل الكلام بلكنة ثقيلة كان صعباً عليّ فهمها. بعد أخذ وردّ، فهمت أنه يتحدث عن شيء يختص بالمسيحية، وعن مجموعة تدرس الكتاب المقدس في «واي أم سي آي» (جمعية الشبان المسيحيين) في فندق الملك داود في القدس الغربية.

كنت أعرف المكان. ولأنني أشعر ببعض الملل، افتكرت أنه ربما يكون مثيراً أن أذهب وأتعلم شيئاً عن المسيحية. فاذا كان بامكاني التعلم من الاسرائيليين، لعل «كفاراً» آخرين يمكن أن يكون لديهم شيء ذو فائدة أتعلمه أيضاً. الى جانب هذا، فقد اختبرت في حياتي التعامل مع جميع أنواع البشر، من مسلمين عاديين ومتعصبين الى ملحدين ومثقفين وأميين ويمينيين ويساريين ويهود وأمم، ولم أعد ذلك الشخص الأنوف والحريص على اختيار الأشخاص الذين يتحدث أو يتعامل معهم. وقد بدا لي هذا الشاب بسيطاً، يدعوني للاقبال والتحدث، وليس للتصويت ليسوع في الانتخابات المقبلة.

سألت جمال: «ما رأيك؟ هل يجب أن نذهب؟».

كنت وجمال من أصدقاء الطفولة. كنا نذهب الى المدرسة معاً، ونرمي الحجارة معاً، ونقصد المسجد معاً. كان وسيماً بطوله الذي يربو على ستة أقدام وثلاثة انشات، ولكنه لم يكن كثير الكلام. فقد ندر أن بدأ بمحادثة، الا أنه كان مستمعاً رائعاً. ولم نكن نتجادل البتة.

بالاضافة الى أننا نشأنا سوية، كنا معاً أيضاً في سجن «مجدّو». بعد احتراق القسم الخامس خلال أعمال الشغب، تمّ نقل جمال وابن عمي يوسف الى القسم السادس، حيث تم اطلاق سراحه من هناك.

غيّر السجن كثيراً في جمال. فلم يعد يقيم الصلاة أو يذهب الى المسجد، كما أنه ابتدأ بعادة التدخين. كان دائم الاكتئاب، فلازم المنزل وأمضى معظم أوقاته في مشاهدة برامج التلفزيون. فعندما كنت أنا في السجن، تمسكت بمبادىء الايمان.

أما هو، فكان من عائلة علمانية لم تمارس الاسلام عملياً، فكان ايمانه ضعيفاً لم يقدر على ابقائه متماسكاً وسط الظروف الصعبة.

نظر اليّ جمال، وفي نفسه أنه يريد تلبية الدعوة الى درس الكتاب المقدس. فقد كان فضولياً ويشعر بالملل مثلي. لكن شيئاً في داخله كان يقاوم الفكرة. فقال لي: «اذهب من دوني، واتصل بي حالما تصل الى المنزل».

تلك الليلة، اجتمعت مع حوالي خمسين شخصاً داخل متجر قديم، كانوا في أكثرهم من الطلاب المتعددي الخلفيات العرقية والدينية، وفي مثل سني. وكان شخصان يقومان بترجمة المداخلات من الانكليزية الى كل من العربية والعبرية.

حين عدت الى المنزل اتصلت بجمال، فسألني عن الاجتماع. فقلت: «كان رائعاً. لقد أهدوني عهداً جديداً مكتوباً باللغتين العربية والانكليزية. كان الأمر مسلياً بوجود أشخاص جدد وثقافة جديدة». فأجاب: «لا أدري اذا كان الأمر مسلياً حقاً، مصعب. ربما يصبح الأمر خطيراً اذا اكتشف الناس انك أمضيت وقتك مع مجموعة من المسيحيين».

عرفت جيّداً ما قصده جمال. ولكنني لم أكن قلقاً. فوالدي كان يعلمنا دائماً أن نكون منفتحي الذهن ومحبين للجميع، حتى أولئك الذين لا يؤمنون بما نؤمن. نظرت الى الكتاب المقدس الذي على حضني، وتذكرت ان والدي يملك كتاباً مقدساً أيضاً في مكتبته الضخمة التي تحتوي على خمسة آلاف كتاب. عندما كنت صبياً صغيراً، كنت أقرأ المقاطع الجنسية في كتاب نشيد الأنشاد الذي لسليمان، الا أنني لم أتقدّم أكثر. وفي كل الاحوال، فان الكتاب المقدس هذا هو هدية لي. وكعادة العرب بتقدير الهدايا التي تقدم لهم، اعتبرت ان قراءة هذا الكتاب هو أقل ما يجب عليّ أن أفعله به.

بدأت القراءة من الصفحة الأولى. وعندما وصلت الى الموعظة على الجبل، افتكرت بكم كان هذا الشاب يسوع مؤثراً. فكل ما يقوله جميل جداً. لم أقو على طرح الكتاب جانباً. فكل عدد بدا وكأنه يلمس جرحاً عميقاً في حياتي، وكان بمثابة رسالة شديدة البساطة، ومع هذا، فقد كان فيه القوة لشفاء نفسي وتزويدي بالرجاء.

ثم قرأت هذا: «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوّك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا الى مبغضيكم. وصلوا لأجل

الذين يسيئون اليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات» (متى ٥ : ٤٣–٤٥).

«وجدتها!!!». هكذا صرخت بعد أن صعقتني هذه الكلمات. فأنا لم أسمع بحياتي مثلها. وعلمت أن هذه هي الرسالة التي كنت أبحث عنها طوال عمري.

لقد جاهدت سنوات كثيرة لكي أعرف مَن كان عدوّي، وكنت أبحث عن الأعداء خارج الاسلام وفلسطين. وفجأة، أدركت أن الاسرائيليين لم يكونوا أعدائي، ولا حماس أو خالي ابراهيم أو الشاب الذي ضربني بعقب بندقية الأم ١٦، ولا أيضاً الحارس الشبيه بالقرد في مركز الاعتقال. فرأيت أن الأعداء لا يمكن تعريفهم من خلال قوميتهم أو ديانتهم أو لونهم. وفهمت أننا جميعاً نواجه أعداء مشتركين: الطمع، الكبرياء، وكل الأفكار السيئة وظلمة الشر التي تعيش في دواخلنا.

لقد عنى لي هذا أنه يمكنني أن أحب الجميع. العدو الوحيد الحقيقي كان العدو الذي في داخلي.

أكثر من كونها اعلاناً من الله، جاءت هذه الكلمات أيضاً في توقيته المناسب تماماً لي. فلو أني قرأتها منذ خمس سنوات، لكنت اتهمت يسوع بأنه معتوه، ورميت الكتاب جانباً. ولكن اختباراتي مع جارنا الجزار المجنون، وأعضاء العائلة والقادة الدينيين الذين ضربوني عندما كان والدي في السجن، وكذلك الوقت الذي قضيته في «مجدّو»، عملت جميعها معاً لتهيئتي كي أتقبّل قوة وجمال هذا الحق. كل ما بامكاني التفكير به كجواب على هذه الكلمات: «يا لهذه الحكمة التي كانت عند هذا الرجل».

قال يسوع: «لا تدينوا لئلا تدانوا» (متى ٧ : ١). يا للفرق الشاسع بينه وبين اله الاسلام. فهذا الأخير كان دياناً بشكل فظيع، والمجتمع العربي جعله قائداً له.

افتكرت بخالي عندما قرأت كيف وبّخ يسوع المرائين من الكتبة والفريسيين، وتذكرته عندما تلقى مرة دعوة لحضور مناسبة خاصة، وكيف استشاط غضباً لأنه لم يُعط المكان الأرفع للجلوس فيه. فكان يسوع وكأنه يتكلم لابراهيم وكل شيخ وامام في الاسلام.

كل كلمة قالها يسوع في هذا الكتاب كانت منطقية جداً بالنسبة لي. فبدأت بالبكاء لشدة التأثر بها.

استخدم اللّٰه الشين بيت ليُريني أن اسرائيل ليست عدوّتي، وها هو الآن يجيب على بقيّة أسئلتي، من خلال هذا العهد الجديد الصغير الذي أمسكه بيدي. ولكن فهمي للكتاب المقدس استغرقني وقتاً طويلاً. لقد تعلم المسلمون ان يؤمنوا بكل كتب اللّٰه، بما فيها التوراة والانجيل. ولكننا تعلمنا أيضاً ان الكتاب المقدس قد تحرّف، ولم يعد موثوقاً به، وأن القرآن هو كلمة اللّٰه النهائية والمعصومة كما قال محمد. فماذا أعمل لكي آخذ من تعاليم هذين الكتابين ما يفيدني في حياتي؟ كان عليّ اولاً تجاهل فكرة ان الكتاب المقدس قد تحرّف، ثم ايجاد معادلة أستطيع معها الايمان بما جاء في القرآن والأنجيل معاً. ولكن، هل يمكن أن يكون هذا التحدي بسيطاً، وأنت تحاول مصالحة ما لا يمكن مصالحتهما؟

في الوقت الذي بدأت أقتنع بتعاليم يسوع، لم أكن أتواصل معه على اعتباره اللّٰه. ومع هذا، فقد تغيّرت قناعاتي ومبادئي بشكل جذريّ، لأنني بدأت باستلهام تعاليم الكتاب المقدس وليس القرآن.

واصلت قراءة العهد الجديد الذي معي، وكذلك حضور اجتماعات درس الكتاب المقدس. فكنت أحضر خدمات كنيسة المسيح العالمية، وأقارن بينها وبين الديانة المسيحية التي كنت أراها في رام اللّٰه، فلم تكونا متشابهتين. المسيحيون الذين كنت أعرفهم لا يختلفون بشيء عن المسلمين العاديين. كانوا منتسبين الى ديانة، ولكنهم لم يكونوا يعيشونها.

بدأت أصرف المزيد من الوقت مع الأشخاص الذين يحضرون درس الكتاب المقدس، ووجدت نفسي أنني فعلاً أتمتع بالشركة معهم. فكنا نقضي أوقاتاً سعيدة نتحدث فيها عن حياتنا وخلفياتنا ومعتقداتنا. كانوا دائماً يُظهرون احتراماً شديداً لثقافتي وتراثي الاسلامي. فوجدت أنه بامكاني أن أكون على سجيّتي بينهم، دون تصنع أو تكلف.

كم عانيت وأنا أخبرهم عما كنا نتعلمه في ثقافتنا، لأنني وجدت أن معاناتنا لم تكن بسبب الاحتلال. كانت مشاكلنا أكبر بكثير من جيوش وسياسات.

سألت نفسي عما يمكن للفلسطينيين ان يفعلوه، لو أن اسرائيل اختفت من الوجود، ولو عاد الزمن ليس فقط الى عام ١٩٤٨، بل الى ما قبل بكثير، ولو أن اليهود تجاهلوا الأرض المقدسة وتشتتوا من جديد؟ ولأول مرة أعرف الجواب: سنبقى نحارب، من أجل لا شيء، من أجل فتاة لا تغطي رأسها، من أجل اثبات

من هو أقوى وأهم، من أجل من يفرض القوانين، ومن يحظى بالمكان الأرفع للجلوس فيه.

في نهاية العام ١٩٩٩، كنت في الحادية والعشرين من العمر. حياتي بدأت تتغير. وبقدر ما كنت أتعلم، كنت أزداد حيرة.

«يا الله، ايها الخالق، أرني الحق. أنا حائر، أنا ضائع. ولا أدري أي طريق أختار للسلوك فيه».

الفصل السادس عشر

الانتفاضة الثانية

خريف العام ٢٠٠٠

حماس التي كانت يوماً القوة الفلسطينية الصاعدة، أصبحت في حال الترنح. فها هو المنافس الشديد لهذه الحركة المهشمة، والذي استحوذ على القلوب والعقول، قد صار في مركز السلطة المطلقة.

فمن خلال التآمر وعقد الصفقات، حققت السلطة الفلسطينية ما عجزت اسرائيل عن صنعه بواسطة القوة الخالصة. فدمّرت الجناح العسكري لحماس، وزجّت بقياداتها ومسلحيها في غياهب السجن. وحتى بعد اطلاق سراحهم، لازم عناصر حماس منازلهم، ولم يقوموا بمزيد من الأعمال ضد السلطة الفلسطينية او الاحتلال. فالفدائيون الشباب كانوا مُرهقين، فيما كان قادتهم منقسمين ويشككون ببعضهم البعض.

هذه الأمور جعلت والدي يعتزل العمل السياسي، فعاد الى مزاولة عمله في المسجد ومخيمات اللاجئين. وعندما كان يَخطب في الجموع، كان يتكلم باسم الله، وليس كقائد في حركة حماس.

أما وقد فصلت بيننا سنوات طويلة من السجن، فقد اغتنمت كل فرصة متاحة

لأسافر مع والدي وأقضي أوقاتي معه مرة أخرى. لقد اشتقت الى تبادل الأحاديث التي كانت تطول عن الحياة والاسلام. مواصلة القراءة في الكتاب المقدس، وصرف الأوقات في تعلم المسيحية، جعلاني انجذب بشدة الى النعمة والمحبة والتواضع التي تكلم عنها يسوع. وللمفاجأة، كانت هذه هي السمات التي طبعت شخصية والدي، الذي كان من أكثر المسلمين الذين عرفتهم التزاماً، وجعلت معظم الناس ينجذبون اليه.

أما عن علاقتي بالشين بيت، فمع خروج حماس عملياً من المشهد، ومحافظة السلطة الفلسطينية على هدوء الأوضاع، لم يكن هناك من عمل أقوم به معهم سوى أن نبقى اصدقاء. فكانوا مستعدّين للاستغناء عن خدماتي في أي وقت، أو السماح لي بالاستقالة من العمل ساعة أشاء.

قمة كامب دايفد التي جمعت ياسر عرفات، والرئيس الاميركي بيل كلينتون، ورئيس الوزراء الاسرائيلي ايهود باراك، انتهت في الخامس والعشرين من تموز العام ٢٠٠٠. خلال المحادثات، عرض باراك على عرفات ٩١ في المئة من الضفة الغربية، وكامل قطاع غزة، والقدس الشرقية كعاصمة للدولة الفلسطينية. وبالاضافة الى هذا، تم الاتفاق على تأسيس صندوق دولي لتعويض الفلسطينيين عن الممتلكات التي خسروها. عَرْضُ «الأرض مقابل السلام» هذا شكل فرصة تاريخية لانهاء معاناة الشعب الفلسطيني الطويلة، في الوقت الذي لم يكن أحد من الفلسطينيين يجرؤ حتى على الحلم بامكان حصولها. ومع هذا، لم يكن العرض كافياً لعرفات.

جمع ياسر عرفات ثروة طائلة كرمز عالمي لشعب كان ضحية بأكمله. فلم يكن مستعداً للتخلي عن هذه الرتبة، والعمل بمسؤولية لبناء مجتمع منتج. فأصرّ على حق عودة جميع اللاجئين الى أراضيهم المحتلة قبل العام ١٩٦٧، عالماً أن اسرائيل سترفض هذا الشرط بالتأكيد.

على رغم أن رفض عرفات لعرض باراك أسّس لكارثة تاريخية لشعبه، الا أنه عاد الى مؤيديه كبطل قارع رئيس الولايات المتحدة، ولم يتراجع عن مطالبه أو يقبل بأقل منها، وكزعيم تمكن من الصمود في وجه العالم كله.

ظهر عرفات على شاشات التلفزة، وتكلم أمام كل العالم عن المحبة التي يُكنها للشعب الفلسطيني، والأسى الذي يشعر به تجاه ملايين العائلات التي تعيش في المخيمات القذرة. واذ كنت أرافق والدي لحضور الاجتماعات مع عرفات، رأيت

بنفسي كم كان الرجل يعشق اهتمام وسائل الاعلام به، ويتلذذ بتصويره وكأنه تشي غيفارا الفلسطينيين، أو زعيم على مستوى الملوك والرؤساء ورؤساء الوزراء.

كان واضحاً أن عرفات يريد ان يكون بطلاً يُكتب عنه في كتب التاريخ. ولكن كلما عرفته أكثر، كلما اقتنعت بأن كتب تاريخنا ستكتب عنه بالتأكيد، ولكن ليس كبطل، بل كخائن باع أبناء شعبه ليتسلق على اكتافهم لتحقيق مآربه. وعلى عكس روبن هود، فهو نهب الشعب الفقير ليصبح غنياً. وكخنزير سافل، اشترى مركزه على حساب دماء الفلسطينيين.

كنت متشوقاً لمعرفة رأي الذين أتواصل معهم في المخابرات الاسرائيلية بعرفات. سألني يوماً ضابط في الشين بيت: «ماذا يفعل هذا الرجل؟ لم يخطر ببالنا أن يعرض زعماؤنا على عرفات هذا العرض السخي، أبداً. وهو قال لا؟».

بالفعل، تم تسليم عرفات مفاتيح السلام في الشرق الاوسط، مع فرصة حقيقية لاقامة وطن للشعب الفلسطيني، الا أنه ألقى بها بعيداً. ونتيجة لذلك، تواصل الفساد المستتر، الا أنه لم يبق متستراً لوقت طويل. فعرفات، كان يرى ان استمرار نزف الفلسطينيين يشكل فرصة لمزيد من الربح. وعليه، فان انتفاضة جديدة كانت بالتأكيد ستؤدي الى المزيد من سفك الدماء، والى عودة كاميرات الأخبار الغربية للعمل مرّة جديدة.

الرأي الذي كان متداولاً بين حكومات العالم ووكالات الأنباء، يقول ان الانتفاضة الدموية المعروفة بالانتفاضة الثانية، كانت انفجاراً مفاجئاً أطلقت شرارته زيارة الجنرال ارييل شارون لما يسميه الاسرائيليون مُجمّع جبل الهيكل. وكالعادة، كان هذا الرأي خاطئاً.



في مساء السابع والعشرين من ايلول، قرع والدي باب غرفتي وسألني اذا كان ممكناً أن أقله الى منزل مروان البرغوتي، بعد صلاة الفجر في صباح اليوم التالي.

مروان البرغوتي، الأمين العام لمنظمة فتح، كبرى فصائل الجناح السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، كان قائداً شاباً محبوباً، ومن أشد المدافعين عن اقامة الدولة الفلسطينية. وكان أيضاً من ألد أعداء الفساد وأعمال انتهاك حقوق الانسان، التي كانت تقوم بها السلطة الفلسطينية وقوات الأمن التابعة لعرفات. كان البرغوتي

القصير القامة، والبسيط المظهر بسروال الجينز الأزرق الذي كان يرتديه أكثر الاوقات، المرشح الأبرز ليكون الرئيس الفلسطيني المقبل.

سألت والدي عمّا يجري، فقال: «في جدول أعمال شارون زيارة سيقوم بها الى المسجد الاقصى غداً، والسلطة الفلسطينية تعتقد أنها ستكون فرصة مناسبة لتفجير انتفاضة.

كان شارون، زعيم حزب الليكود المحافظ، والخصم السياسي لرئيس الوزراء ايهود باراك، زعيم حزب العمال اليساري، يخوض حملة سياسية ضده بهدف اسقاطه وتسلم رئاسة الحكومة الاسرائيلية بدلاً منه.

انتفاضة؟ هل كانوا جادّين؟ قادة السلطة الفلسطينية الذين زجّوا بوالدي في السجن، صاروا الآن يطلبون منه المساعدة في بدء انتفاضة جديدة. كان أمراً مثيراً للغضب، مع انه لم يكن صعباً فهم مسألة التقرّب من والدي لتنفيذ الخطة. فقد كانوا يعلمون أن الناس يحترمون ويحبون والدي، بمقدار ما كانوا يكرهون ولا يثقون بالسلطة الفلسطينية، اذا لم يكن أكثر، وكانوا مستعدين للسير وراء والدي الى أي مكان يقودهم اليه.

كان قادة السلطة الفلسطينية يعلمون أيضاً أن حماس قد أصبحت كملاكم وقع الى الأرض بالضربة القاضية، ولن يتمكن من القيام قبل انتهاء الحكم من عملية العدّ التنازلي. فأرادوا من والدي انتشالها، ورشّ الماء على وجهها، وارسالها في دورة ملاكمة جديدة، حتى يتسنى للسلطة الفلسطينية ضربها من جديد أمام الجماهير الهاتفة والمشجعة. حتى زعماء حماس أنفسهم، المنهكون بسبب سنوات طويلة من الصراع، طلبوا من والدي أن يأخذ حذره مما يجري، وقالوا له: «عرفات يريد أن يستخدمنا كوقود لأتونه السياسي. فلا تتورط في احداث انتفاضة جديدة يريدك أن تشعلها لحسابه».

لكن والدي كان يدرك أهمية أن يُظهر تعاوناً مع السلطة الفلسطينية، لأنه اذا لم يفعل، فستتوجّه أصابع اللوم نحو حماس لتخريبها عملية السلام.

كنت شديد القلق حيال مشروع انتفاضة جديدة، لأنه بغضّ النظر عما كنا سنفعل، كنا في وضع الخاسر بكل الأحوال. واذ شعرت بحاجة والدي الى القيام بعمل ما طلب منه، أخذته في صباح اليوم التالي الى منزل مروان البرغوتي. وعندما قرعنا على الباب، لم نحصل على جواب فوري، ثم قيل لنا انه لا يزال في الفراش.

«انه كالآخرين»، هكذا حدثت نفسي، مقتنعاً بأن منظمة فتح ورّطت والدي في مشاريعها الغبية، وها ان أحد مسؤوليها لا يُكلف نفسه عناء النهوض من الفراش للتشاور في كيفية وضعها موضع التنفيذ. فقلت لوالدي: «لا تشغل بالك ولا تنزعج. استقلّ السيارة وسآخذك الى القدس».

بالطبع، كان نقل والدي الى الموقع الذي سيزوره شارون يحمل الكثير من المخاطرة، لأن سيارات الفلسطينيين كانت ممنوعة من دخول القدس. ففي الأحوال العادية، اذا ألقت الشرطة القبض على سائق فلسطيني، ستفرض عليه غرامة معينة. ولكن أذا تم توقيفنا، وعرفت الشرطة هويتنا الحقيقية، فسيتم اعتقالنا للحال. فكنت حريصاً للغاية، وآثرت سلوك الطرق الفرعية، واثقاً من أن الشين بيت سيهرعون لمساعدتي اذا لزم الأمر.

مسجد الأقصى وقبة الصخرة بُنيا على أنقاض بقايا هيكلين يهوديين قديمين: هيكل سليمان من القرن العاشر قبل الميلاد، وهيكل هيرودس الكبير الذي كان على أيام المسيح. فقد كان هذا سبباً جوهرياً لأن يصف البعضُ هذه التلة الصخرية بأنها أكثر خمسة وثلاثين فداناً متفجراً على الأرض. فالمكان يُعتبر مقدساً عند أتباع الديانات الثلاث الأكبر التي تؤمن بالاله الواحد. كما أنه من وجهة النظر العلمية والتاريخية، يُعتبر أيضاً موقعاً مميزاً للآثار، حتى عند أشدّ الناس الحاداً.

خلال الأسابيع التي سبقت زيارة شارون الى الموقع، عمد الوقف الاسلامي، وهو الهيئة الحكومية الفلسطينية المعنية بادارة شؤون الأماكن المقدسة، الى منع سلطات الآثار والتنقيب الاسرائيلية من الاشراف على الأعمال التي يقوم بها في منطقة جبل الهيكل. وقد استخدم الوقف آليات ضخمة لازالة الأنقاض والأتربة، من موقع يجري فيه بناء مساجد جديدة تحت الأرض. وكانت شاشات التلفزة الاسرائيلية تنقل كل مساء صوراً للجرافات والحفارات والشاحنات وهي تعمل في الموقع. وفي خلال أسابيع، نقلت هذه الشاحنات حوالي ثلاثة عشر ألف طن من الأنقاض من مجمع جبل الهيكل الى مركز لتجميع النفايات. التقارير الاخبارية عرضت مشاهد لعلماء آثار يُعبّرون من خلال ايماءات رؤوسهم عن عدم تصديقهم لما يجري، وهم يحملون في أيديهم قطعاً أثرية انتشلوها من بين الأنقاض، يعود تاريخها الى زمن الهيكلين الأول والثاني.

كان واضحاً لكثير من الاسرائيليين أن هدف الفلسطينيين هو تحويل كامل

مجمع الفدادين الخمسة والثلاثين الى موقع اسلامي بحت، عن طريق محو كل علامة أو آثار تشير الى تاريخها اليهودي، بما في ذلك اتلاف المكتشاف الأثرية التي تشكل دليلاً على هذا التاريخ.

زيارة شارون للموقع هدفت الى توجيه رسالة صامتة ولكن واضحة للناخبين الاسرائيليين، تقول: «سأضع حداً لذلك الاتلاف المتعمّد لآثارنا». وعند اجراء ترتيبات الزيارة، تلقى رجال شارون تأكيدات من رئيس جهاز الأمن الفلسطيني جبريل الرجوب، بأنها لن تتسبب بأية مشكلة، طالما ان شارون لن يطأ حرم المسجد الأقصى.

وصلت ووالدي الى موقع الحرم قبل دقائق قليلة من وصول شارون، حيث تجمّع في ذلك الصباح الهادىء حوالي مئة فلسطيني أو أكثر للصلاة. كان برفقة شارون الذي حضر الى المكان في دوام السياحة العادي، وفد من حزب الليكود، وحوالي ألف من عناصر مكافحة الشغب. عندما وصل، ألقى نظرة في المكان، وغادر، دون أن يتفوّه بكلمة، ولم تطأ قدماه أرض المسجد الحرام. لم يتخلل الزيارة أو يعقبها أي حادث يذكر. وفي طريق العودة الى رام الله سألت والدي: «أين هي المشكلة الكبيرة في ما جرى اليوم؟ ماذا حصل؟ فأنت لم تشعل انتفاضة».

أجابني والدي: «ليس بعد. ولكنني اتصلت ببعض النشطاء في حركة الطلاب الاسلامية، وطلبت منهم ملاقاتي لتنظيم تظاهرة».

قلت: «لم يحدث أي شيء في القدس، وأنت تريد ان تتظاهر في رام الله؟ هذا جنون».

أجاب: «يجب ان نقوم بما يجب علينا القيام به. الأقصى هو مسجدنا، وليس لشارون أي عمل هناك. لا يمكننا السماح بهذا».

تساءلت ما اذا كان والدي يحاول اقناعي أو اقناع نفسه بهذا الكلام.

يمكن وصف التظاهرة في رام الله بأي شيء، ما عدا كونها انتظمت بطريقة عفوية. كان النهار لا يزال في بدايته، والناس يتجولون في أحياء المدينة كعادتهم، عندما بدأوا يتساءلون عن السبب الذي حمل هؤلاء الطلاب التابعين لحركة حماس على التظاهر، فيما كان يبدو عليهم أنهم لا يعرفون السبب الذي من أجله يتظاهرون.

وقف عدد من الخطباء يتحدثون عبر مكبرات الصوت، فيما كانت الجماعة

الصغيرة من الفلسطينيين الذين تجمعوا بالصدفة، تقاطعهم من حين لآخر بالهتاف والأناشيد. أما الآخرون من الذين يسيرون في الشارع، فلم يظهر عليهم ما يشير الى اهتمامهم بما يجري. لقد كان الهدوء يسود الأجواء في الأراضي الفلسطينية، فيما الاحتلال ورؤية الجنود الاسرائيليين بشكل يومي كان أمراً معتاداً، وكان مصرّحاً للفلسطينيين بالعمل والتعلم داخل اسرائيل، ورام الله تتمتع بالازدهار ولياليها تعج بالحياة. فكان صعباً تصوّر ما يريد هؤلاء من تظاهرتهم.

على قدر القلق الذي ساورني، بدت هذه التظاهرة كغيرها من الأحداث التي لا طائل منها. فاتصلت بعدد من اصدقائي في درس الكتاب، وتوجّهنا للتخييم على ضفاف بحيرة الجليل. واذ كنا لا نهتم بسماع الأخبار، لم أعلم أنه في صباح اليوم التالي تظاهر عدد كبير من رماة الحجارة الفلسطينيين، واصطدموا مع شرطة مكافة الشغب الاسرائيلية بالقرب من المكان الذي قصده شارون. رشق الحجارة تطور ليصبح قذفاً لقنابل المولوتوف، واطلاقاً للرصاص من بنادق الكلاشنيكوف. استخدم رجال الشرطة العيارات المطاطية، الا أن بعض التقارير ذكرت أنه تم استخدام الرصاص الحي لتفريق الجموع. النتيجة كانت مقتل أربعة متظاهرين، واصابة حوالي مئتين آخرين بجروح، بالاضافة الى جرح أربعة عشر من رجال الشرطة. هذا تحديداً ما كانت السلطة الفلسطينية تخطط لحدوثه.

في اليوم التالي، تلقيت اتصالاً من الشين بيت.

«أين أنت؟».

«أنا مخيّم في الجليل مع بعض الأصدقاء».

ابتدأ لؤي بالضحك وهو يقول: «الجليل ماذا؟ هل أنت مجنون؟ أنت غير معقول. الضفة الغربية تنقلب رأساً على عقب وأنت تتمتع بصحبة أصدقائك المسيحيين؟».

عندما أخبرني ما يجري، قفزت الى السيارة حالاً وعدت الى المنزل.

قصد ياسر عرفات وقادة السلطة الفلسطينية اشعال انتفاضة جديدة، فبدأوا التخطيط لها قبل أشهر، على رغم اجتماع عرفات برئيس الوزراء باراك والرئيس الأميركي بيل كلينتون في كامب دايفد. لقد كانوا ببساطة ينتظرون الذريعة لاطلاق شرارة الانتفاضة، فكانت زيارة شارون سبباً مناسباً للضغط على الزناد. فبعد محاولتين فاشلتين، أصبحت انتفاضة الأقصى حدثاً حقيقياً، وكانت تحتاج

الى تأجيج عواطف الناس في الضفة الغربية وغزة من جديد، وخاصة في قطاع غزة.

نظمت حركة فتح تظاهرات في القطاع، أدّت في ما أدّت الى ما عرضته وكالات الأنباء حول العالم، عن مقتل الطفل الفلسطيني محمد الدرة عن اثني عشر عاماً. الطفل ووالده جمال حوصرا على خط النار بين الفلسطينيين والاسرائيليين، فاحتميا وراء ساتر اسمنتي، الا أن رصاصة طائشة أصابت الطفل في مقتل وهو بين يدي والده. المشهد المأساوي التقطه مصور فلسطيني يعمل لصالح التلفزيون الفرنسي. وخلال ساعات، انتشر هذا المشهد حول العالم، ما أثار غضب الملايين ضد الاحتلال الاسرائيلي.

وخلال الأشهر التالية، بقي هذا الحدث مثار جدل حول العالم. ففيما أكدت بعض المواقع أن مقتل الطفل جرى على أيدي الفلسطينيين، أصرّ آخرون على اتهام الاسرائيليين بهذا العمل. وكان هناك من يقول أيضاً ان الشريط المصور كان دعاية ملفقة، لأن الصور لم تظهر الولد وهو يُصاب بالرصاصة القاتلة، أو المكان الذي أصيب به في جسده. واشتبه آخرون بأن يكون الشريط مجرد خديعة تريد منظمة التحرير الفلسطينية استغلالها لصالحها. فاذا كان الهدف الذي أرادت المنظمة الوصول اليه هو المسألة، فان الفكرة كانت ذكية جداً وأدت الغاية منها.

مهما كانت الحقيقة، فأنا وجدت نفسي فجأة، وبشكل غير ملائم، عالقاً وسط حرب كان والدي القائد الأساسي لها. الا أنه كان قائداً رغماً عنه، لا يملك أية فكرة عن ماذا يقود، أو الى أين ستودي به هذه الحرب. فقد كان، بكل بساطة، خاضعاً لاستغلال عرفات وفتح، اللذين استخدماه لاثارة القلاقل، وهو الأمر الذي زوّد السلطة الفلسطينية بأوراق مساومة، حصلت من خلالها على علفها المطلوب من الدعم المالي.

في هذه الأثناء، عاد الموت ليحصد أرواح الناس مرة أخرى على حواجز التفتيش. وقد مات الكثير من الأطفال في تلك الفترة، لأن جميع الأطراف كانت تطلق النار بشكل عشوائي. وفي وسط الدماء التي كانت تهرق يوماً بعد يوم، وقف ياسر عرفات أمام عدسات التلفزيون العالمية دامعاً، ينفض يديه، ويُنكر مسؤوليته عن أعمال العنف التي تحصل، ومشيراً باصبع الاتهام نحو والدي ومروان البرغوتي والناس في مخيمات اللاجئين. واذ أكد للعالم أنه يفعل كل ما بوسعه

لوقف الانتفاضة، كان في الوقت نفسه يُحكم اثبات اصبعه الآخر على الزناد.

اكتشف عرفات سريعا أنه أطلق جنياً رهيباً من قمقمه. فهو حرّك الشعب الفلسطيني بقوة لاقامته من غفوته، وقاده لخدمة أغراضه الخاصة، الا أنه لم يمض وقت طويل حتى خرجت الأمور عن سيطرته. فمع رؤيتهم لجيش الدفاع الاسرائيلي يقتل آباءهم وأمهاتهم وأولادهم أمام عيونهم كل يوم، أصيب الشعب بفورة غضب عارم، ولم يعد يسمع للسلطة الفلسطينية او لأي سلطة أخرى.

اكتشف عرفات أيضا أن الملاكم المنهك عاد للوقوف على رجليه، وظهرت فيه صلابة وقوة لم يكن ليتصوّرها احد. فقد كانت الشوارع هي البيئة الطبيعية لحماس، حيث كانت بداية ظهور الملاكم، وظهور قوته أيضاً.

سلام مع اسرائيل؟ كامب دايفد؟ أوسلو؟ نصف القدس؟ هذه الأمور صارت حلماً بعد عين، وكل الأمال بحصولها تبخرت في أتون الصراع. وعاد الفلسطينيون الى عقليتهم السياسية القديمة بالحصول على الكل او على لا شيء، وصارت حماس الآن، وليس عرفات، هي من تؤجج النيران.

سياسة الضربة مقابل الضربة، أو العين بالعين والسن بالسن، أدّت الى تصاعد أعمال العنف. وفي كل يوم كان يمر، كانت لائحة المآسي والآلام تطول لدى الجانبين، حتى فاضت خزاناتهما بها.

في الثامن من تشرين الاول عام ٢٠٠٠، هاجم رعاع يهود الفلسطينيين في الناصرة، فقتلوا شخصين عربيين، وجرحوا عشرات آخرين.

في طبريا، هدم اليهود مسجداً يعود تاريخه الى مئتي عام.

في الثاني عشر من تشرين الاول، قتل غوغائي فلسطيني جنديين اسرائيليين في رام الله. ثارت اسرائيل، وردّت بقصف غزة ورام الله واريحا ونابلس.

في الثاني من تشرين الثاني، قتلت سيارة مفخخة اسرائيليين اثنين بالقرب من سوق ماهاني يهودا في القدس، وأصيب عشرة آخرون بجراح.

الخامس من تشرين الثاني كان هو اليوم الثامن والثلاثون للانتفاضة. فقد كان مميزا مع الاعلان عن مقتل اكثر من مئة وخمسين فلسطينياً.

الحادي عشر من تشرين الثاني، طائرة مروحية اسرائيلية تفجّر قنبلة كانت مزروعة في سيارة ناشط في حماس.

العشرون من تشرين الثاني، انفجار عبوة ناسفة على جانب طريق في باص

اسرائيلي يُقلّ أطفالا الى المدرسة. قتل اثنان وجُرح تسعة أخرون، بينهم خمسة أطفال.

لم أصدق ما كنت أراه بعينيّ. فكان لا بدّ من حصول شيء يؤدي الى وقف هذا الجنون المستمر. وأيقنت أنه الوقت لي لبدء العمل مع الشين بيت. فذهبت للقيام بهذا العمل من كل قلبي.

الفصل السابع عشر

سرّي

٢٠٠١

ما أنا بصدد الكشف عنه، كان حتى الآن مخفياً عن الجميع، ما عدا قلة قليلة من عناصر المخابرات الاسرائيلية. وأنا أدلي بهذه المعلومات على أمل أن تلقي الضوء على عدد من الأحداث الهامة، التي بقيت لزمن طويل في طيات الكتمان.

في اليوم الذي اتخذت فيه القرار، قرار القيام بكل ما يمكنني عمله لوقف الجنون، ابتدأت بجمع المعلومات عن نشاطات وخطط مروان البرغوتي وقادة حركة حماس. واذ نقلت حصيلة ما جمعته الى ضباط الشين بيت، لم يوفر هؤلاء جهداً للبحث عنهم.

أطلقت عليّ الشين بيت اسماً مرمّزاً سرّياً هو «الأمير الأخضر». كلمة «أخضر» كانت تشير الى لون علم حماس. أما كلمة «الأمير» فكانت تشير الى مكانتي كابن لحسن يوسف، الذي يُعتبر ملكاً داخل حماس. وهكذا، أصبحت وأنا لا أزال في الثانية والعشرين من العمر، أول عميل للشين بيت داخل الحركة، يمكنه جمع المعلومات الاستخبارية اللازمة لوقف أعمال القتل.

هذه المسؤولية لم تكن الوحيدة الملقاة على عاتقي. فقد أصبح واضحاً لي الآن أن الله وضعني بصورة خاصة، ولهدف معين، في قلب حماس والقيادة الفلسطينية، وفي الاجتماعات مع ياسر عرفات ومع وكالة الأمن الاسرائيلي. فكنت في وضع فريد يساعدني على انجاز مهمتي، وكان بامكاني الشعور بأن الله كان معي.

أردت الدخول الى الأعماق، بهدف معرفة كل ما يجري في الخفاء. لقد كنت في قلب الأحداث خلال الانتفاضة الأولى، محاطاً بأعمال العنف من كل جهة. والمدافن التي كنت ألعب كرة القدم فيها وأنا ولد صغير، امتلأت بجثث القتلى حتى لم يعد مكان. لقد رميت الحجارة، وخرقت حظر التجول، الا أنني لم أفهم لماذا يلجأ شعبنا الى العنف. والآن أردت أن أعرف لماذا نريد أن نعيد الكرّة من جديد. كنت بحاجة الى أن أفهم كل شيء.

من وجهة نظر ياسر عرفات، لم تكن الانتفاضة الا مسألة تتعلق بالسياسة والمال والنفوذ. فهو كان انتهازياً، وبمثابة محرك للدمى الفلسطينية. فعندما يظهر أمام عدسات الأخبار، كان يدين حماس بسبب الهجمات التي تشنها ضد المدنيين داخل اسرائيل، ويصرّ على التذكير بأن الحركة لا تمثل السلطة الفلسطينية أو الشعب الفلسطيني. ومع أنه لم يفعل شيئاً لوقف العنف، لكنه أراد لحماس ان تستمر في أعمالها المشينة، فتحصد ردود الفعل الساخطة من المجتمع الدولي. كان عرفات سياسياً عتيقاً ومحنكاً، يعلم ان ليس بامكان اسرائيل ايقاف الهجمات ضدها من دون التعاون مع السلطة الفلسطينية. فكان يرى أنه كلما ازدادت الهجمات، كلما اضطرت اسرائيل للقبول بالجلوس الى طاولة المفاوضات معه، فيستغل الأمر لمساومتها.

في تلك الأيام، ظهرت على مسرح الأحداث مجموعة تطلق على نفسها «كتائب شهداء الأقصى»، كانت تستهدف جنود جيش الدفاع والمستوطنين الاسرائيليين في هجماتها. لم يعلم أحد مَن هم هؤلاء، ومن أين أتوا. ومع انهم كانوا من المتدينين، الا ان أحداً في حماس أو الجهاد الاسلامي لم يعرف عنهم شيئاً البتة. ولم يكن ما يشير الى تفرّع هذه المنظمة الجديدة عن السلطة الفلسطينية او حركة فتح.

الشين بيت كانت مربكة أيضاً كالآخرين، ولم تكن تملك تصوّراً عمّن يكون هؤلاء، الذين كانوا يهاجمون سيارات وباصات المستوطنين مرة أو مرتين في

الأسبوع، ويخلفون وراءهم قتلى وجرحى. ولم يكن حتى للجنود الاسرائيليين المدججين بالسلاح ما يفعلونه لدرء خطرهم.

اتصل بي لؤي يوماً وقال: «لدينا تقارير عن أشخاص مجهولي الهوية يزورون «ماهر عودة»، ونريد منك معرفة مَن هم، وما هي علاقتهم به. أنت الوحيد الذي نستطيع الثقة بأنه لن يفسد عملية التحري هذه».

كان ماهر عودة من قادة حماس الكبار، ومن أهم المطلوب القبض عليهم من قبل الشين بيت. كان يترأس الجناح الأمني لحماس حسب النظام المعمول به في السجن، وكنت أعلم أنه مسؤول عن عمليات تعذيب كثيرة حصلت هناك. واشتبهت بأن يكون هو أيضاً الموجّه والمحرك الرئيسي الذي يقف خلف العمليات الانتحارية. وكان عودة رجلاً متكتماً، الأمر الذي صعّب جداً على الشين بيت جمع الأدلة الضرورية التي تساعدها في القبض عليه.

في مساء ذلك اليوم من شهر رمضان، تجولت بسيارتي في أحياء مدينة رام الله الخالية، حيث ان الشمس قد غربت، وجميع الناس في منازلهم يتهيأون للافطار. ثم دخلت الى أحد المواقف، وركنت سيارتي بقرب المبنى الذي يقطن ماهر عودة احدى شققه. ومع أنني لم أكن متدرّباً على هكذا نوع من العمليات، الا أنني كنت أعرف المبادىء الأساسية الكافية للقيام بالعمل. بحسب الأفلام السينمائية، يجلس العملاء بسياراتهم في الشارع المقابل لمنزل المطلوب مراقبته، ويجرون مسحاً للمنطقة بألات تصوير مميزة ومعدات تجسس أخرى. ومع أن الشين بيت تملك المعدات التقنية العالية الكفاءة، الا أنني لم أحصل منها على شيء، وكان كل ما بحوزتي لتنفيذ مهمتي، سيارتي وعيناي. لقد كان مطلوباً مني مراقبة المبنى وكل من يدخل اليه أو يخرج منه.

بعد حوالي نصف ساعة من المراقبة، غادر عدة رجال مسلحين المبنى المؤلف من طبقتين، واستقلوا سيارة شيفروليه خضراء جديدة، تحمل لوحة اسرائيلية. بدا المشهد لي غريباً. فأول كل شيء، لا يحمل أعضاء حماس أسلحتهم بصورة علنية، وخاصة المنتمون منهم الى الجناح العسكري للحركة. وثانياً، لا يجالس أشخاص نظير ماهر عودة رجالاً مسلحين.

أدرت محرّك سيارتي، وانتظرت حتى مرّت سيارتان، قبل أن انطلق وراء سيارة الشيفروليه. وبعد فترة قصيرة على تعقبها في الشارع الرئيسي المتجه نحو بيتونيا،

حيث يعيش والداي، اختفت السيارة عن ناظريّ، ولم أعرف أي اتجاه سلكت فيه.

غضبت من نفسي ومن الشين بيت. فلم يكن الأمر كما في الأفلام السينمائية. لقد كنا على أرض الواقع. وفي الحياة الحقيقية، يمكن أن يؤدي التجسس الى مقتلك. فاذا كانوا يريدونني تعقب رجال مسلحين كهؤلاء، وخاصة في الليل، عليهم أن يرسلوا لي بعض المساعدة. هذا النوع من العمل لا يقوم به شخص بمفرده، انما أشخاص عديدون معاً. كنت أتخيّل على الدوام ان عمليات كهذه تتطلب تزويد منفذيها بوسائل اتصال عبر الأقمار الصناعية ومعدات تقنية حديثة. ولكنني كنت بمفردي، بحيث كان ممكناً للحظ أن يحالفني، أو لرصاصة ان تقتلني. أما في هذه العملية، فلم يحصل معي أي من الأمرين. فعدت أدراجي الى المنزل خائباً، وكمن يشعر بخسارة صفقة تجارية بمليون دولار.

استيقظت في صباح اليوم التالي مصمماً على ايجاد تلك السيارة. ولكن بعدما تجولت في المدينة لساعات عدة، رجعت الى المنزل خالي الوفاض. واذ شعرت بالاحباط مرة جديدة، استسلمت، وقررت أن أروّح عن نفسي بغسل سيارتي. وللمفاجأة، وجدت في مغسل السيارات ذات السيارة الشيفروليه الخضراء، مع ذات الأشخاص، وذات الأسلحة.

هل كان ذلك حظاً، أو تدخلاً الهياً، أم ماذا؟

كان الوقت نهاراً، فرأيت المسلحين بشكل أفضل، وكنت أقرب اليهم أكثر مما كنت ليلة الأمس. ومن خلال بذلاتهم الأنيقة، وبنادق الآي كاي ٤٧ والأم ١٦ التي كانوا يحملونها، عرفت للحال أنهم من عناصر القوة ١٧، وهي وحدة كوماندوس تضم نخبة رجال الأمن الفلسطينيين. تأسست هذه الوحدة في العام ١٩٧٠، وعناصرها يشكلون الحرس الخاص لياسر عرفات، الذين يؤمنون له الحماية ايضاً من مجموعة كبيرة من الانتهازيين والاستغلاليين.

شيء ما في المشهد بدا لي وكأنه ليس في مكانه الصحيح. فتساءلت: «يمكن ان يكون هؤلاء الأشخاص غير الذين كانوا في منزل ماهر عودة أمس. أليس الأمر محتملاً؟ ماذا يفعل ماهر عودة مع أشخاص مسلحين؟ فهو لا عمل له مع عرفات؟ أليس كذلك؟». لم يكن في المشهد ما رأيته منطقياً.

بعد رحيلهم عن المكان، سألت صاحب المغسل عمّن يكون هؤلاء، فلم يتفاجأ بسؤالي لأنه كان يعرف أنني ابن الشيخ حسن يوسف. فقال لي انهم من عناصر

القوة ١٧، ويسكنون في بيتونيا. هذه المعلومات جعلتني متحيراً أكثر من ذي قبل. فلماذا يسكن هؤلاء في مكان لا يبعد أكثر من دقيقتين عن منزل والديّ، وليس في المجمّع الذي يسكن فيه عرفات؟

قصدت العنوان الذي أعطاني اياه صاحب المغسل، فرأيت السيارة نفسها تقف أمام المنزل. فعدت مسرعاً الى مركز الشين بيت، وأخبرت لؤي بما اكتشفته. فاستمع اليّ بانتباه شديد، الا أن المسؤول الأعلى منه استمر بمساءلتي في شأن هذه المعلومات قائلاً: «لا يوجد أي منطق في هذا الأمر. لماذا يعيش حراس عرفات خارج المجمّع؟ يبدو أن استنتاجك مغلوط». فأجبت بحدة: «استنتاجي ليست مغلوطاً». ومع علمي أن الحدّة لن تغير من الأمور، شعرت بالاحباط لأنني لم أستطع تفسير المعطيات التي رأيتها، وهذا الرجل يتهمني بأنني لم أر شيئاً. فقلت له: «الوضع كله يبدو مغلوطاً. لا يهمّني اذا كان الأمر منطقياً عندك أم لا. أنا متأكد مما رأيت».

اغتاظ الرجل من الأسلوب الذي حدثته به، فخرج من الغرفة مسرعاً. أما لؤي، فطلب مني تهدئة أعصابي واعادة ذكر المعلومات بتفاصيلها مرة جديدة، حيث بدا أن سيارة الشيفروليه ليس لها مكان بحسب المعلومات التي يملكها عن كتائب شهداء الأقصى. فقد كانت السيارة مسروقة من اسرائيل، وكان شباب السلطة الفلسطينية يقودونها، الا أننا لم نتمكن من معرفة علاقة هذه السيارة بهؤلاء الشباب والمنظمة الجديدة.

سألني لؤي: «هل أنت متأكد من أنها شيفروليه خضراء؟ ألم تر سيارة بي أم دبليو؟».

كنت متأكداً أنها شيفروليه خضراء. ولكنني عدت الى الشقة لمزيد من التدقيق، فرأيتها متوقفة في نفس المكان. الا أنني رأيت سيارة أخرى أمام الشقة، وهي مغطاة بملاءة بيضاء. تسللت بحذر الى جانب المبنى، ورفعت طرف الغطاء قليلاً، فاذا هي سيارة بي أم دبليو فضية اللون، صنع العام ١٩٨٢.

«أوكي، لقد تمكنا منهم». هذا ما قاله لؤي عندما اتصلت به لأنقل اليه اكتشافي الجديد. فسألته: «عمّ تتحدث؟».

«عن حراس عرفات».

فأجبت بتهكم: «ماذا تعني؟ ظننت أن معلوماتي كلها خطأ».

« كلا. أنت محق تماماً. فقد تم استخدام تلك البي أم دبليو في كل عمليات اطلاق النار، التي حصلت في الضفة الغربية خلال الشهرين الماضيين».

ثم بدأ يشرح لي كيف أن المعلومات التي زوّدته بها كانت اختراقاً مهماً، لأنها شكلت الدليل الأول على أن «كتائب شهداء الأقصى» لم يكونوا الا حرس ياسر عرفات الخاص، الذين كان يموّلهم شخصياً، من أموال دافعي الضرائب الأميركيين والواهبين الدوليين.

اكتشاف هذا الرابط كان خطوة جبارة باتجاه وضع حد لهذه السلسلة الرهيبة من التفجيرات التي أودت بحياة مدنيين أبرياء. وفيما بعد، استخدمت الشين بيت هذا الدليل الذي وفرته لها، لادانة عرفات أمام مجلس الأمن الدولي. بعد ذلك، لم يبق امامنا الا القبض على عناصر هذه الخلية الجديدة، أو قطع رأس الحية كما يحلو للاسرائيليين التعبير.

بعد اجراء التحريات اللازمة، اكتشفنا أن أخطر عنصرين في هذه المجموعة هما أحمد غندور، مؤسس هذه الفصائل، ومهند أبو حلاوة، أحد الضباط التابعين له، اللذان أدّت أعمالهما الى مقتل العشرات من الأشخاص. ولم يكن صعباً وضح حد لأعمال هذين الشخصين، لأننا كنا نعرفهما، ونعلم أين يسكنان. والأهم من هذا، هو أنهما لم يعلما بأننا اكتشفنا أمرهما.

أرسل جيش الدفاع الاسرائيلي طائرة استطلاع من دون طيار، لاستكشاف المنطقة المحيطة بالشقة المستهدفة. وبعد يومين، نفذت «الفصائل» هجوماً داخل اسرائيل، قرر الاسرائيليون الردّ عليه. فأرسلوا دبابة الميدان من نوع ميركافا التي تزن ستة وخمسين طناً، وقصفوا مبنى «الفصائل» بعشرين قذيفة مدفع من عيار مئة وعشرين مليمتراً. وللأسف، لم يكلف أحد نفسه عناء التأكد من معلومات طائرة الاستطلاع، وما اذا كان العناصر المستهدفون متواجدين داخل الشقة، لأنهم لم يكونوا فيها.

الأسوأ من هذا، هو ادراك هؤلاء أنهم أصبحوا ملاحقين، فلم يكن مفاجئاً اتخاذهم من مجمّع عرفات ملجأ لهم. ومع علمنا أنهم هناك، الا أنه كان مستحيلاً القبض عليهم. وأما هم، فقد زادوا من معدل هجماتهم وفظاعتها.

أحمد غندور كان على رأس لائحة المطلوبين، كونه المؤسس والقائد لكتائب «شهداء الأقصى». فبعد لجوئه الى داخل مجمّع عرفات، تراءى لنا أن القبض

عليه أصبح من المستحيلات. الا أننا تخلصنا منه، دون أن نفعل شيئاً، لأنه أودى بحياته بنفسه.

فقد كنت أسير يوماً في الشارع القريب من مدافن البيرة، عندما شاهدت جنازة عسكرية. دفعتني الحشرية لأسأل عمّن يكون المتوفي، فقال لي أحدهم: «انه شخص من الشمال. لا أظن أنك تعرفه».

«ما اسمه؟».

«اسمه أحمد غندور».

حاولت اخفاء مشاعر الاثارة التي غمرتني عند سماع هذا الاسم، فقلت: «ماذا جرى له؟ أظن أنني سمعت بهذا الاسم من قبل». فأجاب: «لم يكن يعلم ان مسدسه كان محشواً، فأطلق النار على رأسه بالخطأ. ويقولون ان دماغه لصق بسقف الغرفة».

اتصلت بلؤي وقلت له: «ودّع أحمد غندور. لأن أحمد غندور مات».

«هل قتلته أنت؟».

«وهل أعطيتني مسدساً؟ لا، لم أقتله أنا. هو قتل نفسه. لقد انتهى».

لم يصدق لؤي الخبر، فقلت له: «الرجل قد مات، وأنا الآن في جنازته».



خلال السنوات الأولى لانتفاضة الأقصى، كنت أرافق والدي الى كل مكان يذهب اليه. ولكوني ابنه البكر، كنت المحامي عنه، وحارسه الشخصي، وموضع ثقته، وتلميذه وصديقه. وكان هو بالنسبة لي كل شيء، ومثالي الكامل عن كل ما تعنيه الرجولة. ومع أن قناعاتنا الفكرية لم تعد متطابقة، كنت أعلم أن قلبه مستقيم، ودوافعه نقية. فمحبته للمسلمين من شعبه لم تفتر يوماً، وكذلك تكريسه لله. فقد عانى الأمرّين ليرى السلام يعمّ بين أبناء شعبه، حيث أمضى حياته بكاملها يعمل من أجل هذا الهدف.

الانتفاضة الثانية كانت حدثاً جرت فصوله بأكثرها في الضفة الغربية. فقد سارت بعض التظاهرات في غزة، وأشعل مقتل الطفل محمد الدرّة الغضب في النفوس، الا ان حماس هي من أضرمت نار الجحيم في كامل الضفة الغربية.

في كل قرية وبلدة ومدينة، حصلت مواجهات بين الجموع الغاضبة والجنود

الاسرائيليين. وكل حاجز تفتيش تحول الى ساحة حرب دامية. وفي تلك الأيام، كان من الصعب جداً ايجاد فلسطيني واحد لم يدفن أصدقاء له أو أعضاء من عائلته.

في هذه الأثناء، كان يجتمع الى عرفات يومياً، كل قادة الفصائل والمنظمات الفلسطينية والشخصيات الرفيعة، لتنسيق استراتيجياتهم. فكان والدي ممثلاً لحماس، التي أصبحت مرة جديدة المنظمة الأكبر والأكثر أهمية بين جميع الفصائل. وبالاضافة الى هذه اللقاءات، كان والدي ومروان البرغوتي يجتمعان بعرفات أسبوعياً، من دون سائر القادة. وفي مناسبات عديدة سنحت، لي الفرصة لأرافق والدي الى تلك الاجتماعات الخاصة.

كنت أحتقر عرفات بسبب ما كان يفعله بحق الشعب الذي أحببت. ولكوني أعمل لصالح الشين بيت، لم يكن من الحكمة اظهار مشاعري الحقيقية تجاه ما يجري. ومع هذا، ففي احدى المناسبات التي قبّلني فيها عرفات، مسحت خدّي بطريقة لا ارادية، فلاحظ الأمر وشعر بالاهانة من الحركة التي قمت بها. أصيب والدي بالحرج، وكانت المرة الأخيرة التي يصطحبني فيها الى تلك الاجتماعات.

كان كل واحد من قادة الانتفاضة يصل الى الاجتماعات اليومية بسيارته التي لا يقل سعرها عن سبعين ألف دولار، ترافقه سيارات أخرى مليئة بالحراس الشخصيين. أما والدي، فكان يصل بسيارته الأودي الكحلية موديل ١٩٨٧، بدون حراس شخصيين، الا أنا.

تلك الاجتماعات كانت بمثابة المحرك الذي أبقى الانتفاضة حية. ومع أنني صرت أجلس خارج قاعة الاجتماعات، لكنني بقيت على معرفة بكافة تفاصيل المناقشات، لأن والدي كان يسجل الملاحظات على دفتره الخاص، فكنت أقرأها وأطبع نسخاً منها.

لم تكن المعلومات حساسة جداً أو فائقة السرية، مثل مَن وأين ومتى ستتم أي عملية عسكرية، بل كان القادة يتحدثون عن أساليب وتوجهات عامة، كتركيز الهجمات في داخل اسرائيل، او استهداف المستوطنين وحواجز التفتيش.

مع هذا، كانت الملاحظات تذكر الزمان الذي ستنظم فيه تظاهرة معينة. فاذا قال والدي ان تظاهرة يجب خروجها غداً عند الساعة الواحدة في وسط مدينة رام الله، كان السعاة ينطلقون بسرعة الى المساجد ومخيمات اللاجئين والمدارس،

لاعلام عناصر حماس بضرورة التواجد في المكان والزمان المُحدّدين. فكان الجنود الاسرائيليون يظهرون أيضاً في نفس الوقت. وفي المحصّلة، كان مسلمون ولاجئون وطلاب مدارس يقتلون في ذلك النهار.

في الحقيقة، كانت حماس قبل الانتفاضة الثانية على فراش الموت، وكان على والدي ان يتركها لمصيرها. أما الآن، فان كافة الشعوب العربية صارت ترى وجهه كل يوم، وتسمع صوته من شاشة تلفزيون الجزيرة، لأنه أصبح القائد المرئي للانتفاضة. هذا الأمر جعله مشهوراً ومهماً جداً على مستوى العالم الاسلامي، بينما كانت تنظر اليه اسرائيل على اعتباره رجلاً شريراً من الطراز الأول.

ومع نهاية كل يوم، لم يكن حسن يوسف يشعر بالانتفاخ والعُجبْ، بل كان يعتبر نفسه أنه أكمل مشيئة الله المطلوبة منه بكل تواضع.

كنت أتصفح ملاحظات والدي ذات صباح، عندما قرأت عن تظاهرة تم الاعداد لتنفيذها. في اليوم التالي، سرت وراءه على رأس تظاهرة صاخبة باتجاه حاجز تفتيش اسرائيلي. وقبل الوصول اليه بحوالي مئتي متر، انفصل القادة عن المتظاهرين، ولجأوا الى تلة مجاورة للاحتماء. أما الآخرون من الشباب وطلاب المدارس فأكملوا مسيرتهم، وبدأوا برشق الحجارة على الجنود الاسرائيليين المدججين بالسلاح، والذين لم يتوانوا عن الرد باطلاق النار عليهم.

في الحالات المماثلة، حتى الرصاصات المطاطية يمكن أن تكون قاتلة، خاصة لتلاميذ المدارس الذين هم أولاد في أكثرهم، لأن اطلاقها من مسافة تقل عن أربعين متراً، تؤدي الى اصابات قاتلة طبقاً لبيانات جيش الدفاع الاسرائيلي.

لقد شاهدنا من مراكز اختبائنا كيف كان القتلى والجرحى يسقطون في كل مكان. وقد عمد الجنود الاسرائيليون أيضاً الى اطلاق النار على سيارات الاسعاف التي حضرت لنقل المصابين، فقتلوا عددا من السائقين والمسعفين. على رغم هذا الرد الوحشي، أمطر المتظاهرون الحاجز الاسرائيلي بالحجارة، واندفع الآلاف باتجاه السواتر لاقتحامها وتخطي الجنود، تحثهم فكرة واحدة هي محاولة الوصول الى مستوطنية بيت ايل، وتدمير كل ما فيها، وقتل كل من يجدونه في طريقهم. فكانوا كمجانين غاضبين أثارتهم رؤية أحبائهم يسقطون بين جرحى وقتلى، وكذلك رائحة الدم التي انتشرت في المكان.

عندما أصبحت الفوضى خارج نطاق السيطرة، تحركت دبابة ميركافا بمحركها

الديزل ذي الألف ومئتي حصان باتجاه الجموع. وفجأة، بدأت باطلاق قذائفها التي مزقت الهواء والآذان بصوتها المرعد.

ازاء هذا المشهد، يبدو أن عناصر قوى السلطة الفلسطينية فقدوا رشدهم، فبدأوا باطلاق النار على المدنيين من شعبهم. واذ سارع الحراس الشخصيون لابعاد القادة عن المكان، كانت أشلاء القتلى تطير في الهواء، بحيث اضطررت الى دوس بعضها بقدميّ، فيما كنت أحاول نقل والدي الى السيارة. وفي لحظات، انطلقنا مسرعين في طريق العودة الى رام الله، وتوجّهنا الى المستشفى التي كانت تغص بالجرحى والقتلى، حتى لم يعد مكان. وقد حاول مسعفو الهلال الأحمر الفلسطيني يائسين معالجة الجرحى الذين كانوا ينزفون حتى الموت عند المدخل الخارجي، لعدم وجود أمكنة لهم في الداخل.

تلطخت جدران المستشفى بالدماء التي جرت غزيرة على أرضها أيضاً، فكان الناس يتزحلقون عليها وهم يعبرون الممرات، فيما الأزواج والآباء والزوجات والأمهات والأطفال يئنون من الألم والحزن الشديد، ويصرخون غضباً مما جرى.

العجيب، أنه في وسط ألمهم وحزنهم وغضبهم، أعرب الناس عن امتنانهم الشديد وتقديرهم العظيم للقادة الفلسطينيين، كوالدي الذي حضر لمشاركتهم في مصابهم الأليم، على رغم أن هؤلاء هم مَن قاد أبناءهم كقطعان الماعز الى الذبح، ثم اختبأوا في أماكن آمنة لمشاهدة ما يجري من مسافة بعيدة. آلمني هذا أكثر مما فعلته بي مشاهد الدماء.

هذه كانت تظاهرة واحدة فقط. ففي كل مساء، كنا نشاهد نشرات الأخبار تفتتح وتقفل على أخبار القتلى. عشرة في هذه المدينة. خمسة في تلك. عشرون أضافيون هنا.

شاهدت تقريراً عن شاب يدعى «شحاده»، وهو من عمال البناء، كان يستخدم مثقباً لاحداث فتحة في جدران أحد الأبنية، على مقربة من احدى التظاهرات. واذ رآه رامي القذائف في دبابة اسرائيلية، ظن أنه يحمل بندقية، فرماه بقذيفة مدفعية فصلت رأسه عن جسده.

ذهبت ووالدي الى منزل الشاب المذبوح للتعزية، فعرفنا أنه عريس جديد ترك خلفه أرملة شابة لا حول لها ولا قوة. ولكن أسوأ ما في الأمر، ان القادة الفلسطينيين الذين توافدوا للتعزية، تشاجروا فيما بينهم أمام الجميع، على أحقيّة

القاء كلمة في جنازة شحادة، وتقبّل التعازي مع العائلة على مدى الأيام الثلاثة المقبلة، والاشراف على اعداد الطعام للعائلة. فكانوا جميعهم يطلقون عليه عبارة «ابننا»، مدّعين بأنه كان منتسباً لمنظمتهم التي تساهم في دعم الانتفاضة أكثر من الباقين.

لقد وصل التنافس بين الفصائل الى درجة منحطة، فأصبحت تتناحر على جثة ميت. وفي أكثر الأحيان، لم يكن للقتلى أي علاقة بتلك المنظمات، بل كانوا مجرّد ضحايا، وآخرون مثل «شحادة» وافتهم المنيّة لأنهم كانوا في المكان الخطأ في التوقيت الخطأ.

وكما في كل مرة، أحرق العرب حول العالم الأعلام الاميركية والاسرائيلية، وتظاهروا، وبعثوا بمليارات الدولارات الى الاراضي الفلسطينية، بهدف دحر الاحتلال. ففي أول سنة ونصف السنة من الانتفاضة الثانية، دفع صدام حسين مبلغ خمسة وثلاثين مليون دولار لعائلات الشهداء الفلسطينيين، عشرة آلاف دولار لكل عائلة فقدت شخصا كان يحارب اسرائيل، وخمسة وعشرين ألفاً لعائلة مَن قام بعملية انتحارية.

يمكنكم قول الكثير عن هذه المعركة الجنونية فوق قطعة من الارض. ولكن لا يمكنكم أبداً القول ان الحياة كانت رخيصة.

الفصل الثامن عشر

أخطر المطلوبين

٢٠٠١

لم يعد الفلسطينيون ينحون باللائمة على ياسر عرفات أو حماس في معاناتهم، بل حمّلوا اسرائيل كامل المسؤولية عن مقتل أبنائهم. ومع هذا، لم أكن أستطيع التغاضي عن سؤال جوهري لازمني دائماً وهو: «لماذا كان هؤلاء الأبناء أصلاً في الأماكن التي كانت تحصل فيها أعمال العنف؟ أين كان آباؤهم وأمهاتهم؟ ولماذا لم يُلزموهم بالبقاء في المنزل؟». فلقد كان على هؤلاء الأولاد أن يكونوا متواجدين على مقاعد الدراسة، لا أن يركضوا في الشوارع، ويرشقوا الجنود الاسرائيليين بالحجارة.

في نهاية أحد الأيام الدموية سألت والدي: «لماذا عليكم ارسال الأطفال ليموتوا؟».

فأجاب: «نحن لا نرسل الأطفال. هم يريدون الذهاب. أنظر الى اخوتك».

أحسست بقشعريرة تلف جسدي عند سماعي هذا الردّ. فصحت غاضباً: «اذا سمعت يوماً بأن أحد أخوتي ذهب لرمي الحجارة، فسأكسر له ذراعه، لأن الأفضل له أن يتألم بسبب الكسر على أن يلاقي حتفه».

فأجاب والدي بشكل عفوي: «حقاً؟ لا أدري اذا كان يهمّك معرفة أنهم كانوا يلقون الحجارة أمس».

لم أقوَ على تصديق أن هذه الأعمال أصبحت بكل بساطة جزءاً من حياتنا اليومية.

أربعة من أخوتي في ذلك الوقت كانوا عبروا مرحلة الطفولة الى مرحلة الشباب. سهيب كان في الحادية والعشرين من العمر، وسيف كان في الثامنة عشرة، أي أنهما بالغان بما يكفي لسجنهما في حال الضرورة. أما أويس ومحمد، وهما في السادسة عشرة والرابعة عشرة على التوالي، فكانا بالغين بما يكفي لاصابتهما خلال عمليات اطلاق النار، وقد كان عليهم جميعاً ادراك هذه الحقائق. وعندما وجّهت لهم الأسئلة، أنكروا جميعاً قيامهم برشق الحجارة.

قلت لهم: «اسمعوا. أنا جدّي جدّاً في هذه المسألة. لم أتعامل معكم بالضرب منذ وقت طويل، لأنكم أصبحتم بالغين. ولكنني سأبدّل رأيي اذا سمعت أنكم تشاركون في هذه الأعمال».

فاعترضني محمد بالقول: «أنت ووالدي كنتما في التظاهرة أيضاً».

«نعم كنا هناك، ولكننا لم نرشق الحجارة».

وسط كل هذا، وخاصة مع تدفق شيكات المال السخية من الطاغية العراقي الهمجي صدام حسين، وجدت حماس نفسها أنها لم تعد تحتكر العمليات الانتحارية وحدها. فقد أصبح هناك انتحاريون لدى منظمتي الجهاد الاسلامي وكتائب شهداء الأقصى، والعلمانيين والشيوعيين والملحدين. وكانوا جميعاً يتنافسون في مَن يمكنه قتل مدنيين اسرائيليين أكثر.

الدماء الكثيرة التي أهرقت جعلت النوم يطير من عينيّ، ولم أعد حتى راغباً في تناول الطعام. فأنا لم أعد أنظر الى أعمال العنف من خلال عيون مسلم أو فلسطيني أو حتى ابن لحسن يوسف فقط. بل صرت أنظر اليها أيضاً بعيون شخص اسرائيلي. والأكثر أهمية من هذا، أنني صرت أنظر الى أعمال القتل البربرية من خلال عيني يسوع، الذي كان يتألم لخسارة تلك النفوس. فكلما قرأت الكتاب المقدس، كلما توضح لي هذا الحق الوحيد، وهو أن محبة الأعداء والمغفرة لهم هما الطريق الوحيد لايقاف عمليات سفك الدماء.

مع أن اعجابي بشخصية يسوع كان يتزايد يوماً فيوماً، الا أنني كنت أرفض

تصديق أصحابي المسيحيين عندما يحاولون اقناعي بأن المسيح هو الله. فاله المسلمين كان الهي. ولكنني من حيث أدري أو لا أدري، كنت أعتنق المبادىء التي علم بها يسوع، وأرفض تلك التي علم بها اله المسلمين. وما ساعدني على الاسراع في عملية تحوّلي من الاسلام، هو المراءاة التي كنت أراها حولي. فالاسلام يعلم أن خادم الله الأمين الذي يصبح شهيداً، يذهب مباشرة الى الجنة، دون المرور بامتحان الملائكة الغريبة، او تذوّق عذاب القبر. واكتشفت فجأة أن كل من يُقتل على أيدي الاسرائيليين، اذا كان مسلماً عادياً أو شيوعياً، وحتى لو كان ملحداً، كان يُعامل على أنه شهيد بار. وكان الأئمة والشيوخ يقولون لعائلات القتلى: «ان نصيب أحبائكم هو الجنة».

بالطبع، لم يكن القرآن يوافق على هذا الخطاب المضلل. فهو واضح لناحية مَن يستحق الذهاب الى الجنة أو الخلود في نار جهنم. الا أن رجال الدين لم يبالوا بهذه الحقيقة. فلم يكن الأمر بالنسبة لهم متعلقاً بالحق أو بعلم اللاهوت، بل كانوا يكذبون على الناس من أجل مصالح استراتيجية وسياسية ملائمة لهم. فكان القادة المسلمون يخدّرون شعبهم بالأكاذيب، لحملهم على نسيان آلامهم ومعاناتهم التي تسبب بها هؤلاء القادة أنفسهم.

كانت الشين بيت تكشف لي عن معلومات سريّة من حين لآخر، جعلتني أصاب بالدهشة من مدى معرفتها بظروف الأشخاص الذين يدورون في فلك حياتي. فقد أخبروني عن بعض أصدقاء الطفولة الذين أصبحوا أفراداً خطرين للغاية، وعن آخرين تبوّأوا مراكز قيادية في الجناح العسكري لحماس. أحد هؤلاء الأشخاص كان يدعى «ضياء محمد حسين الطويل»، وهو شاب أنيق شغل عمّه مركزاً قيادياً في حماس.

خلال كل السنوات التي عرفته فيها، لم يكن ضياء يتصرف بدوافع دينية. في الحقيقة، كان والده شيوعياً، فلم تكن له أية علاقة بالاسلام، ووالدته كانت مسلمة بالمعنى الثقافي للكلمة، ولم تكن متطرفة بأي شكل من الأشكال. أما أخته، فصحافية مجازة من جامعات الولايات المتحدة، وقد حصلت على الجنسية الأميركية، فكانت امرأة عصريّة لا تضع غطاء على رأسها كباقي المسلمات. كانت هذه العائلة تعيش في منزل جميل، وأفرادها على درجة عالية من الثقافة. فضياء درس الهندسة في جامعة بير زيت، حيث كان في طليعة تلاميذ صفه. وبحسب

معلوماتي، فأنه لم يشارك البتة في أي من التظاهرات التي كانت تنظمها حماس.

استعرضت هذه المعلومات لأبيّن مدى عنف الصدمة التي شعرت بها، عندما سمعت بخبر تفجير ضياء نفسه بالاسرائيليين عند مفترق التلة الفرنسية في القدس، في السابع والعشرين من آذار العام ٢٠٠١. لم يُقتل أحد غير ضياء في هذه العملية، الا أن تسعة وعشرين اسرائيلياً أصيبوا بجروح.

لم يكن ضياء ولداً غبياً يمكنك بسهولة حمله على القيام بمثل هذا العمل. كما أنه لم يكن لاجئاً يتمرّغ بالفقر، وليس لديه ما يخسره. فهو لم يكن يحتاج مالاً. فما الذي دفعه لتفجير نفسه؟ لم يتمكن أحد من فهم هذا اللغز. لقد صَعق الخبر والديه، وصعقني أنا كذلك. كما أن المخابرات الاسرائيلية لم تقدر على اكتشاف الأسباب التي دفعت ضياء للقيام بهذا العمل.

تلقيت اتصالاً من الشين بيت يدعوني لاجتماع طارىء. وعندما حضرت، أعطوني صورة لشخص مقطوع الرأس، وسألوني اذا كنت أعرف الرجل. فأكدت لهم انه ضياء. وفي طريق عودتي الى المنزل كنت أسأل نفسي مراراً وتكراراً، لماذا؟ لا أظن أن أحداً يمكنه الاجابة عن هذا السؤال. فلم يكن أحد يتوقع حصول هذا الأمر، ولا حتى عمّه المسؤول في حماس.

ضياء كان الانتحاري الأول الذي يفجر نفسه في انتفاضة الأقصى، ما أوحى بوجود خليّة عسكرية، كان يبدو أنها تعمل منفردة انطلاقاً من مكان ما. فقررت الشين بيت العثور على هذه الخلية قبل تنفيذها هجوماً انتحارياً آخر.

أطلعني لؤي على لائحة بعدد من المشتبه بهم، فكانت الأسماء الخمسة الأولى على رأس اللائحة مألوفة لديّ. فقد كانوا من عناصر حماس الذين أطلقت السلطة الفلسطينية سراحهم من السجن، قبل بدء الانتفاضة. عرفات كان يعلم أنهم خطرون جداً، ولكن بسبب احتضار حماس، لم ير سبباً للاحتفاظ بهم لوقت أطول.

لقد كان مخطئاً.

المُشتبه الرئيسي فيه كان محمد النتشة، الذي شارك في تأسيس حماس مع والدي، وأصبح في ما بعد على رأس الجناح العسكري للحركة في الضفة الغربية. كان النتشة من العائلة الأكبر في الأراضي الفلسطينية، فلم يكن يهاب شيئاً أو أحداً. وكانت كل بوصة في طوله الذي يربو على ستة أقدام، تظهره محارباً صلباً

وقوياً وذكياً. وباستثناء الكراهية الشديدة التي يكنها لليهود، كنت أعرف أنه رجل يهتم بالذين حوله.

صالح تلحمي، اسم ثان على اللائحة، كان مهندساً كهربائياً، حاد الذكاء وعلى مستوىً علمي رفيع. ولم أكن أعلم أننا في يوم من الأيام سنصبح من أعزّ الأصدقاء.

ابراهيم حامد كان على اللائحة أيضاً. وهو ترأس جهاز أمن حماس في الضفة الغربية. هؤلاء الثلاثة، كان يعاونهم شخصان آخران، هما «سيّد الشيخ قاسم» و «حسنين رمانة».

«سيّد» كان تابعاً أميناً، رياضياً، غير متعلم ومطيعاً. أما «حسنين» فكان من الناحية الثانية شاباً وسيماً وفناناً، وناشطاً فعّالاً في حركة الطلاب الاسلامية، خاصة في أثناء الانتفاضة الأولى، عندما كانت حماس تحاول اثبات نفسها في الشوارع على اعتبارها قوة لا يستهان بها. وكقائد في حماس، بذل والدي جهداً كبيراً في سبيل اطلاق سراحهم واعادتهم الى عائلاتهم. وفي اليوم الذي سمح لهم عرفات بالمغادرة، أقليتهم ووالدي من السجن، وانطلقنا بهم في السيارة الى شقة في الحجل بمدينة رام الله، استقرّوا فيها.

عندما أراني لؤي اللائحة، قلت له: «احزر ماذا؟ أنا أعرف جميع هؤلاء الأشخاص. وأعرف أين يسكنون. فأنا الذي نقلتهم بسيارتي الى المنزل الذي يختبئون فيه».

فقال لي وقد عقد حاجبيه: «هل أنت جاد؟ هيّا بنا الى العمل».

عندما نقلت ووالدي هؤلاء الأشخاص من السجن، لم تكن لديّ أية فكرة عن مدى خطورتهم، وكم من الاسرائيليين قتلوا في عملياتهم. وها أنا الآن، واحد من أشخاص قليلين جداً في حماس، يعرفون مكان اقامتهم.

زوّدتني الشين بيت بأحدث أجهزة التجسس، بحيث كان بامكاني تصوير كل حركة وتسجيل كل كلمة تقال، ثم توجّهت الى منزل هؤلاء المشتبه فيهم لزيارتهم. وعندما ابتدأت بالحديث معهم، بدا واضحاً لي أنهم لن يفصحوا عن أية معلومات ذات قيمة.

تساءلت ما اذا كان هؤلاء هم الأشخاص الذين نسعى وراءهم. فقلت للؤي: «شيء ما يبدو لي وكأنه خطأ. فهؤلاء الأشخاص لم يعطوني أية معلومات. هل

يُعقل أنها خلية أخرى؟».

فأقرّ بامكانية وجود احتمال كهذا وقال: «يمكن. ولكن تاريخ هؤلاء حافل بالأحداث. يجب أن نبقى على مراقبتنا لهم، حتى نحصل على ما نريد».

بكل يقين، كان تاريخ هؤلاء حافل بالأعمال الارهابية، الا أن التاريخ وحده لا يكفي لتوقيفهم. كنا بحاجة الى أدلة قاطعة. فواصلنا بصبر جمع المعلومات. لم نكن نريد الوقوع في خطأ جسيم، فنمسك بالأشخاص الخطأ، ونترك الارهابيين الحقيقيين أحراراً في تفجير قنبلتهم التالية.

لا أعلم ما اذا كانت حياتي غير معقدة بما فيه الكفاية، أو ربما بدت لي فكرة جيدة في ذلك الوقت، عندما قبلت العمل ذلك الشهر في مكتب الاستيعاب والأبنية التابع للوكالة الأميركية للتنمية الدولية، برنامج مياه الشرب والصرف الصحي، الذي كان يتخذ من البيرة مركزاً له. عنوان كبير! أعلم. ولكنه كان مشروعاً مهماً للغاية. ولأنني لم أكن حاصلاً على شهادة الكليّة، بدأت العمل كموظف استقبالات.

بعض المسيحيين الذين كنت أحضر معهم دروس الكتاب المقدس، كانوا قد عرّفوني على أحد المدراء الأميركيين للمشروع، الذي أعجب فيّ وعرض عليّ الوظيفة للحال. ورأى لؤي ان هذا العمل سيكون بمثابة غطاء مهم لي، على اعتبار ان هويتي الجديدة المختومة من السفارة الأميركية، ستسمح لي بالتجوّل بحرّية بين اسرائيل والأراضي الفلسطينية. كما أن هذه الوظيفة ستزيل أي شك يمكن أن يكون لدى الأشخص الذين يلاحظون عليّ الاسراف في صرف المال.

أما والدي، فقد رأى في وظيفتي الجديدة فرصة عظيمة، وكان شاكراً ومقدّراً للولايات المتحدة تزويدها شعبه مياهاً صالحة للشرب، وامكانية للتخلص من المياه المبتذلة. وفي الوقت نفسه، لم يكن لينسى أن الأميركيين هم الذي يزوّدون اسرائيل بالأسلحة التي تقتل الفلسطينيين بها. كان هذا الموقف يجسد التناقض الذي يشعر به معظم العرب تجاه الولايات المتحدة.

سنحت لي الفرصة كي أرتقي في عملي فأصبح جزءاً من أكبر مشروع تموله أميركا في المنطقة. كانت وسائل الاعلام تركز في تغطيتها على المفاوضات المثيرة المتعلقة بالأرض والاستقلال واعادة التقسيم. ولكن المياه هي الموضوع الأهم في الشرق الأوسط، بحيث ان الشعوب لا تزال تتصارع بسببها، منذ الخلاف

الذي نشب بين رعاة ابراهيم ورعاة ابن أخيه لوط. مصدر المياه الرئيسي لاسرائيل والأراضي المحتلة هو بحر الجليل، المعروف ببحيرة جنيسارت أو طبرية، التي هي من أكثر مواضع المياه العذبة انخفاضاً عن سطح البحر في العالم.

كانت المياه دائماً من المواضيع المعقدة والشائكة في أراضي الكتاب المقدس. وفي اسرائيل الحديثة، حيوية المياه تغيرت مع تغيّر حدود البلاد. فمثلاً، من النتائج التي أسفرت عنها حرب الأيام الستة في العام ١٩٦٧، سيطرة اسرائيل على هضبة الجولان السورية، الأمر الذي سمح لها بالسيطرة على كامل بحر الجليل، وعلى كامل نهر الأردن والمنابع التي تتفرع منه. وفي خرق للقانون الدولي، حوّلت اسرائيل كمية كبيرة من مياه نهر الأردن والضفة الغربية وقطاع غزة، على اعتبارها خزانات المياه الوطنية، ووزعتها على المواطنين الاسرائيليين والمستوطنين، فزوّدتهم بأكثر من ثلاثة أرباع مياه الضفة الغربية. وقد انفقت الولايات المتحدة مئات ملايين الدولارات، لحفر الآبار وتأمين مصادر مياه مستقلة لأبناء شعبي.

لم تكن الوكالة الأميركية للتنمية الدولية مجرّد غطاء لي فقط، بل صار الرجال والنساء الذين يعملون فيها من أصدقائي. علمت أن الله هو الذي أعطاني هذه الوظيفة. فقد كانت سياسة الوكالة تمنع توظيف أي ناشط سياسي، فكيف بشخص يقود والده منظمة ارهابية كبيرة. ولكن لسبب من الأسباب، قرر المسؤول عني الابقاء على خدماتي، ولم يكن يعلم انه سيجني ثمار لطفه الذي بسطه لي بطريقة غير متوقعة.

كانت الانتفاضة سبباً لمنع حكومة الولايات المتحدة موظفيها من الدخول الى الضفة الغربية الا في ساعات النهار، ومن أجل العمل فقط. وهذا يعني أنه كان عليهم اجتياز حواجز التفتيش الخطرة بشكل دائم. ففي هذه الحالة، كان السكن في الضفة الغربية أكثر أماناً من تحدّي عبور الحواجز كل يوم، بسيارات أميركية رباعية الدفع، تحمل لوحات اسرائيلية صفراء. فالفلسطينيون العاديون لم يكونوا يميزون بين من يأتي لمساعدتهم ومن يأتي لقتلهم.

كان جيش الدفاع الاسرائيلي يطلب من الوكالة الأميركية اخلاء مراكزها، عندما يقوم بعملية عسكرية يمكن أن تشكل خطراً عليهم. ولكن الشين بيت لم تكن تصدر مثل هذه التحذيرات. فطبيعة العمل تتطلب منا السرية الكاملة. فاذا علمنا بهرب مطلوب من رام الله الى جنين مثلاً، كنا نطلق عملية بحث عنه دون

تحذير مسبق لأي كان.

رام الله كانت مدينة صغيرة. وفي خلال تلك العمليات، كان عناصر الأمن الاسرائيلي يركضون في كل اتجاه، بينما كان الناس يسدون الشوارع بالسيارات والشاحنات، ويشعلون النار في الاطارات المطاطية. فكان الدخان الأسود يعبق في الأجواء، والمسلحون المنحنون يركضون من مخبأ الى آخر، وهم يطلقون النار على كل ما يعترض طريقهم، فيما الشباب يقومون برمي الحجارة. فكنت ترى الأطفال يبكون في الشوارع، وصفارات سيارات الاسعاف تختلط بعويل النساء وأصوات الطلقات النارية.

كنت موظفاً حديث العهد مع الوكالة الأميركية، عندما أخبرني لؤي ان قوات الأمن ستأتي الى رام الله في اليوم التالي. فاتصلت بمديري الأميركي وحذرته من المجيء الى المدينة، وطلبت منه اعلام جميع الموظفين بضرورة ملازمة منازلهم. وقلت له انه لا يمكنني اطلاعه على كيفية حصولي على المعلومات، ولكنني شجعته على الثقة بي. ففعل. وربما ظن أن معرفتي بما سيجري ناجم عن كوني ابن حسن يوسف.

في اليوم التالي، كانت رام الله تشتعل. كان الناس يركضون في الشوارع، ويطلقون النار على كل شيء. وكانت السيارات تحترق على جانب الطريق، فيما النوافذ المحطمة جعلت المحال التجارية تحت رحمة اللصوص. بعدما شاهد رئيسي نشرات الأخبار، قال لي: «من فضلك، مصعب، عندما تعلم أن شيئاً مماثلاً سيحصل في المستقبل، دعني أعلم به».

فقلت له: «أوكي، بشرط واحد. لا تطرح علي الأسئلة. اذا قلت لك لا تأت. فلا تأت».

الفصل التاسع عشر

حذاء

٢٠٠١

تواصلت الانتفاضة الثانية يوماً بعد يوم، ولم تتوقف حتى من اجل التقاط أنفاسها. في الثامن والعشرين من آذار العام ٢٠٠١، قتل انتحاري اثنين من المراهقين في محطة محروقات.

في الثاني والعشرين من نيسان، قتل انتحاري نفسه وشخصاً آخر، وجرح حوالي خمسين آخرين في موقف للباصات.

في الثامن عشر من أيار، قتل خمسة مدنيين وجرح أكثر من مئة آخرين، بتفجير انتحاري خارج احد المراكز التجارية في نتانيا.

في الأول من حزيران، عند الحادية عشرة وستة وعشرين دقيقة مساءً، كانت مجموعة مراهقين يتحدثون ويضحكون وهم ينتظرون دورهم بشوق للدخول الى ديسكو مشهور في تل أبيب معروف باسم « دولفين ». أكثر هؤلاء الشبان كانوا من الاتحاد السوفياتي السابق، وقد هاجر أهلهم الى اسرائيل منذ فترة قصيرة. كان بين الواقفين مع هذه المجموعة فلسطيني يدعى سعيد الحوتري، أكبر منهم سناً بقليل، وكان يلفّ جسده بالمتفجّرات وقطع المعدن الصغيرة.

لم تطلق الصحف على تفجير «دولفين» اسم عميلة انتحارية، بل مجزرة. فقد مزقت الكرات الحديدية أجساد عشرات الشبّان بفعل قوة الانفجار. واحد وعشرون منهم قتلوا، وجرح مئة واثنان وثلاثون آخرون.

لم يقتل تفجير انتحاري عدداً من الأشخاص كما فعل هذا التفجير. فتقاطر جيران الحوتري في الضفة الغربية لتهنئة والده بهذا الانجاز. وفي احدى المقابلات مع وسائل الاعلام قال الوالد: «أتمنى لو أن أبنائي الثلاثة الباقين يقومون بمثل ما فعل أخوهم. حبذا لو أن جميع أفراد عائلتي، وكل الأقرباء، يموتون هكذا من أجل بلدي وأرضي».

هذا العمل زاد اسرائيل تصميماً أكثر من ذي قبل على قطع رأس الحية. وكان عليها أن تكون قد تعلمت حتى ذلك الحين، أنه ان كان سجن قادة الفصائل لم يضع حداً لسفك الدماء، فاغتيالهم أيضاً سيكون بلا فائدة على هذا الصعيد.

كان جمال منصور صحافياً، وواحداً من مؤسسي حركة حماس السبعة كوالدي. فكانا من أقرب الأصدقاء، وقد نفيا معاً الى جنوب لبنان، وفي كل يوم تقريباً كانا يتحادثان على الهاتف ويضحكان كثيراً. منصور كان أيضاً من أشد المؤيدين للعمليات الانتحارية، حيث أشاد بالانتحاريين أثناء مقابلة أجرتها معه مجلة «نيوزويك» في شهر كانون الثاني، ودافع عن قتل المدنيين العزّل من السلاح.

يوم الثلاثاء، في الحادي والثلاثين من تموز، واثر معلومات أفاد بها أحد العملاء، اقتربت طائرتا هليكوبتر من نوع أباتشي الهجومية من مكاتب الصحافة التابعة لمنصور في نابلس، وأطلقتا ثلاثة صواريخ موجهة باللايزر عبر نافذة مكتبه في الطبقة الثانية من المبنى، ما أدى الى احتراقه بكل محتوياته، ومقتل منصور وجمال سليم، أحد قادة حماس، وخمسة فلسطينيين آخرين. كما قتل في الهجوم طفلان في الثامنة والعاشرة من العمر، كانا في غرفة انتظار عيادة طبية في الطبقة الأولى، حيث قضيا تحت الأنقاض.

بدا الأمر جنونياً بالنسبة لي. فاتصلت بلؤي وقلت له: «ما الذي يحدث بحق السماء؟ هل أنت متأكد من أن هذين الشخصين ضالعان في التفجيرات الانتحارية؟ أعلم أنهما يدعمونها، ولكنهما كانا منتسبين الى الجناح السياسي لحماس، كوالدي، وليس للجناح العسكري».

فقال: «نعم. لدينا معلومات استخبارية تقول ان منصور وسليم كانا ضالعين

مباشرة في مجزرة الدولفين. فأيديهما ملطخة بالدماء. وكان علينا القيام بما فعلنا».

ماذا كان بامكاني أن أفعل؟ هل أتجادل معه وأخبره بأن معلوماته كانت خاطئة؟ وفجأة، خطر ببالي أن تكون الحكومة الاسرائيلية ربما أخذت قراراً باغتيال والدي أيضاً. فهو، وان لم يكن يخطط للعمليات الانتحارية، الا أن هذا لا يعفيه من المسؤولية عنها. أضف الى هذا، أن المعلومات التي يعرفها كانت ساهمت في انقاذ حياة الناس، لو أنه باح بها. فقد كان لديه تأثير على سير الأحداث، الا أنه لم يستثمره. وكان ممكناً أن يتدخل لوقف عمليات القتل، الا أنه لم يفعل. فهو كان يدعم حركة حماس ويشجع عناصرها على مواصلة مقاومتهم، حتى اجبار اسرائيل على الانسحاب. فقد كان بنظر الحكومة الاسرائيلية ارهابياً أيضاً.

مع استمرار قراءتي للكتاب المقدس، بدأت بمقارنة تصرفات وأعمال والدي مع تعاليم يسوع، لا تلك التي يعلم بها القرآن. فأصبحت صورته أمامي كبطل تتلاشى يوماً فيوماً، مما جعلني كسير القلب عليه. كنت أرغب باطلاعه على ما تعلمت من الانجيل، لكنني كنت أعلم مسبقاً أنه لن يعيرني أذناً صاغية. واذا استمر بالتعاون مع أولئك الذين في القدس، فلن يحظى والدي بفرصة لمعرفة كم كانت مضللة السبل التي قاده فيها الاسلام.

تعزيتي الوحيدة كانت معرفتي بأن والدي سيكون في مأمن من القتل، على الأقل في الفترة التي أتواصل فيها أنا مع الشين بيت. لقد أرادوا له أن يكون على قيد الحياة، بمقدار ما أردت أنا، ولكن لأسباب مختلفة جداً بالطبع. فهو كان بالنسبة لهم المصدر الرئيسي للمعلومات المتعلقة بنشاطات حماس. وطبعاً، لم يكن ممكناً شرح هذه الحقيقة لوالدي، في الوقت الذي كان ممكناً ان تشكل حماية الشين بيت له خطراً عليه شخصياً. ففي النهاية، كان الأمر سيثير الشكوك به، لو أن كافة القادة في حماس أجبروا على الاختباء، بينما والدي هو الوحيد الذي بقي يتجول بحرية في الشوارع. كنت أحتاج الى عمل شيء ما لأجل حمايته. فقمت للحال وذهبت اليه في مكتبه، وقلت له بأن ما جرى لمنصور يمكن بكل سهولة أن يحدث له أيضاً. وأضفت: «تخلص من كل الأشخاص الذين حولك، ومن حرسك الخاص. أقفل مكتبك، ولا تعد الى هنا مرة أخرى».

فكان جوابه كما توقعت: «سأكون بخير، مصعب. سأسدّ النوافذ بصفائح

حديدية ».

« هل أنت مجنون؟ أخرج من هنا حالاً. صواريخهم تخترق الدبابات والأبنية، وأنت تظن أنك ستكون بأمان خلف صفائح الحديد؟ اذا تمكنت من اقفال النوافذ، سيأتونك من السقف. هيا بنا نغادر المكان ».

لا يمكنك لوم والدي في هذا المجال. فهو كان قائداً دينياً وسياسياً، وليس عسكرياً. لم يكن يملك أية فكرة عن الجيش او عمليات الاغتيال. لم يكن يعرف شيئاً مما عرفت أنا. ولكنه أخيراً وافق على المغادرة معي، مع علمي بأنه لم يكن سعيداً بذلك.

لم أكن الوحيد الذي توصّل الى الاستنتاج بأن صديق منصور القديم، حسن يوسف، هو الهدف المنطقي التالي للاسرائيليين. فعندما نزلنا الى الشارع، رأيت القلق مرتسماً على وجوه الناس الذين كانوا يسيرون بالقرب منا. فكانوا يسرعون الخطى، وهم يسترقون النظر الى السماء باضطراب، محاولين الابتعاد عنا بأسرع ما يمكنهم. ولعلهم كانوا يصغون مثلي الى أصوات محتملة لطائرات هليكوبتر مقبلة، فلم يُرد أحد منهم الوجود في دائرة الخطر، فيما لو حصل ما كانوا يتوقعون حصوله لوالدي.

نقلت والدي الى فندق « سيتي ان »، وطلبت منه أن يبقى هناك، وقلت له: « حسناً، ان موظف الاستقبالات سيغيّر حجرتك كل خمس ساعات. استمع له، ولا تستقبل أحداً في الغرفة. لا تتصل الا بي، ولا تغادر المكان. وتفضل هذا الهاتف المأمون ».

حالما غادرت، أطلعت الشين بيت على مكان وجود والدي. فقالوا: « أوكي، جيد. أبقه هناك بعيداً عن المشاكل ».

لكي أتمكن من فعل هذا، كان عليّ أن أعرف بمكان وجوده لحظة بلحظة، وأن آخذ علماً بكل نفس يتنفسه. فتخلصت من كل حرسه الخاص، لأنني لم أعد أثق بأحد. كنت أريد لوالدي أن يعتمد عليّ كلياً، لئلا يرتكب خطأ ما يؤدي به الى التهلكة. فصرت له المساعد والحارس الخاص والبوّاب. وعملت الترتيبات اللازمة لكل ما يحتاج اليه. كما راقبت بعناية كل ما يجري حول الفندق. فكنت حلقة الوصل الوحيدة له مع العالم الخارجي، وبالعكس. هذه المهمة الجديدة ساعدتني كثيراً على حفظ نفسي بعيداً عن دائرة التشكيك فيّ كجاسوس من قبل حماس

والمنظمات الفلسطينية الأخرى.

بدأت أتصرف على اعتباري جزء من قيادة حماس. فحملت بندقية أم ١٦، التي أظهرتني بمظهر رجل مُعتبَر، كثير الارتباطات، وعلى درجة عالية من النفوذ. في تلك الأيام، كان مثل هذا السلاح مطلوباً بكثرة، ونادر الوجود (وصل سعر بندقية هجومية كالتي معي الى مبلغ عشرة آلاف دولار). وقد احتليت مركزاً مرموقاً في حركة حماس لسبب علاقتي بالشيخ حسن يوسف.

بدأ مسلحو حماس بمرافقتي حيثما ذهبت. واذ كانوا يظنون أنني على علم بأسرار المنظمة، فقد منحوني ثقتهم، وعرضوا عليّ مشاكلهم وما يعانونه من احباط، على أمل مساعدتهم في حلها.

أصغيت اليهم بانتباه شديد، فيما كانوا يجهلون أنني كنت أجمع المعلومات المتفرقة التي يدلون بها أمامي، لأشكل صورة كاملة عمّا يجري. هذه المعلومات سمحت للشين بيت بالقيام بعمليات رادعة كثيرة، لا يكفي كتاب واحد لذكر تفاصيلها. وما يمكنني تأكيده في هذا الاطار، هو ان أرواحاً بريئة كثيرة نجت من الموت، كنتيجة لتلك الأحاديث التي جرت بيني وبين مسلحي حماس. كما أن عدد الأرامل اليائسات والأيتام المحطمين تراجع كثيراً، بسبب العمليات الانتحارية العديدة التي تمكنا من احباطها.

في الوقت نفسه، كسبت ثقة واحترام الجناح العسكري لحماس، وأصبحت أيضاً الوسيط بينها وبين الفصائل الفلسطينية الأخرى. فكنت الشخص الذي ينتظرون منه تزويدهم بالمتفجرات، ويتواصلون معه لتنسيق العمليات مع حماس.

في أحد الأيام، طلب مني أحمد الفرنسي، وهو من مساعدي مروان البرغوتي، أن أحضر له بعض المتفجرات، لتجهيز عمليات انتحارية عديدة تنطلق من جنين. وعدته بتلبية الطلب، الا أنني اتبعت سياسة المماطلة، بهدف اماطة اللثام عن كافة الخلايا التي يعرفها في الضفة الغربية. كان هذا النوع من الألعاب السياسية يحمل في طياته مخاطرة كبيرة. ولكنني كنت أعلم أنني في مأمن من جوانب عدة. فكوني الابن البكر للشيخ حسن يوسف، نجوت من أعمال التعذيب التي كانت تنفذها حماس بالعناصر التابعة لها في السجن. وهويتي هذه حمتني أيضاً عندما كنت أعمل وسط الارهابيين. كما أن عملي مع الوكالة الأميركية للتنمية الدولية أمّن لي نوعاً من الحماية والحرية، فيما كانت الشين بيت على الدوام تؤمن

لي الحماية بطريقة سرية.

كان يمكن لأي خطأ، مهما كان طفيفاً، أن يكلفني حياتي، في الوقت الذي كنت أعتبر السلطة الفلسطينية مصدر تهديد مستمر بالنسبة لي. فجهاز المخابرات الأميركية سي آي اي كان قد زودها بمعدات تنصت الكترونية متطورة، استخدمتها في أحيان كثيرة للبحث عن الارهابيين، وأحياناً أخرى لاكتشاف المتعاملين. فكان عليّ أن أتخذ جانب الحيطة والحذر الشديدين، لئلا أقع في يدي السلطة الفلسطينية بشكل خاص، لأنني الأكثر معرفة بكيفية تنفيذ الشين بيت عملياتها بين كل العملاء.

كوني حلقة الاتصال الوحيدة مع والدي، صرت على اتصال مباشر مع قادة حماس في الضفة الغربية وقطاع غزة وسوريا. الشخص الآخر الوحيد الذي كان يتمتع بنفس مستوى الإتصالات في كافة أماكن تواجد قادة الحركة، هو خالد مشعل في دمشق، وهو من مواليد الضفة الغربية، الا أنه عاش معظم حياته في دول عربية أخرى. مشعل انتسب الى جماعة الأخوان المسلمين في الكويت، ودرس الكيمياء في جامعتها، قبل أن يترأس هناك فرع حركة حماس بعد تأسيسها. وبعد الغزو العراقي، انتقل الى الأردن، ثم الى قطر، قبل أن يستقرّ أخيراً في سوريا.

اتخاذ مشعل من دمشق مركزاً له، أعفاه من قيود السفر المفروضة على قادة حماس في الأراضي الفلسطينية. فأصبح بمثابة مسؤول ديبلوماسي، يمثل حماس في القاهرة وموسكو والجامعة العربية. وخلال أسفاره الكثيرة، كان يجمع الأموال، حتى أنه في شهر نيسان العام ٢٠٠٦ وحده، جمع مئة مليون دولار من قطر وايران فقط.

لم يكن مشعل كثير الظهور. فهو عاش في أماكن سرية، ولم يكن بامكانه العودة الى الأراضي المحتلة، خوفاً من الاغتيال. فهذا الأمر كان سبباً جوهرياً لكي يعيش حياته بحذر شديد.

في العام ١٩٩٧، كان مشعل لا يزال في الأردن، عندما دخل عنصران من المخابرات الاسرائيلية الى غرفة نومه، وحقناه في أذنه بمادة نادرة من السم، بينما كان نائماً. لاحظ حرّاسه هذين العميلين يخرجان من المبنى، فأسرع واحد منهم لتفقد مشعل في فراشه، فوجده منطرحاً على الأرض، دون قدرة على التكلم، الا أنه لم يكن ينزف دماً. طارد الحراس العميلين الاسرائيليين، ما أدى الى سقوط

أحدهما في حفرة لتصريف المياه، قبل أن تلقي الشرطة الأردنية القبض عليهما.

قبل هذا، كانت اسرائيل قد وقعت اتفاقية سلام مع الأردن، وتم تبادل السفراء بين البلدين، فأتى هذا الاعتداء ليشكل تهديداً للاتفاقية السياسية. كما أن حماس شعرت بالحرج الشديد، بسبب السهولة الفائقة التي وصل بها العملاء الى واحد من قادتها الرئيسيين. وهكذا، فقد شعر الطرفان بالمهانة التي سبّبها الاعتداء الفاشل، وحاولا التغطية عليه، الا أن وسائل الاعلام الدولية علمت بالخبر، وأذاعته على الملأ.

خرجت التظاهرات الغاضبة في الشارع الأردني، وطالب الملك حسين السلطات الاسرائيلية باطلاق سراح الشيخ أحمد اسماعيل ياسين (المرشد الروحي لحماس)، بالاضافة الى سجناء فلسطينيين آخرين، لمبادلة عميلي الموساد الخائبين. وبالاضافة الى هذا، كان على الموساد ارسال فريق طبّي الى الأردن بأسرع ما يمكن، لمعالجة مشعل بمضادات تبطل مفعول السم. فوافقت اسرائيل على مضض.

كان خالد مشعل يتصل بي مرة واحدة في الأسبوع على الأقل. ومرات كثيرة، كان عليه أن ينسحب من اجتماعات مهمة لكي يجيب على مكالماتي. وفي أحد الأيام، تلقت الشين بيت اتصالاً من الموساد يقول: «لدينا شخص خطير جداً من رام الله، يتحدث مع خالد مشعل أسبوعياً، الا أننا لم نتمكن من معرفته».

كانوا بالطبع يشيرون اليّ، فانفجرنا جميعاً بالضحك، فيما ترك عناصر الشين بيت عناصر الموساد للتخمين بشأني. كان يبدو أن هناك تنافساً بين وكالات الأمن في كل دولة، كمكتب التحقيقات الفدرالي، ووكالة المخابرات المركزية، ووكالة الأمن القومي في الولايات المتحدة.

في أحد الأيام، قررت استغلال علاقتي مع مشعل، فقلت له انني أملك معلومات مهمة لا يمكنني اطلاعه عليها عبر الهاتف. فسألني: «هل لديك طريقة آمنة لتوصيلها؟».

«طبعاً. سأتصل بك بعد أسبوع لاطلاعك على التفاصيل».

الاتصالات العادية بين الأراضي الفلسطينية ودمشق كانت تتم عن طريق رسائل ينقلها شخص ليس له اسم في سجلات الشرطة، ولا علاقة له بحماس. كانت الرسائل تكتب على أوراق رقيقة جداً، وتطوى لتصبح صغيرة الحجم، ثم يتم لفها بالنايلون لتصبح في حجم كبسولة دواء. وقبل عبوره الحاجز بين البلدين،

كان حامل الرسالة يبتلع الكبسولة، ثم يخرجها في الحمام على الطرف الآخر من الحدود. وفي مرات كثيرة، كان على حاملي الرسائل ابتلاع خمسين كبسولة في وقت واحد. وكان طبيعياً أن لا تكون لدى هؤلاء «البغال» أية فكرة عن محتواها.

قرّرت أيضاً ابتداع وسيلة جديدة، وفتح قناة سرية للاتصال بالقيادة الخارجية لحماس، بحيث أنتقل بهذه العلاقة من المستوى الشخصي، الى مستوىً حركي وأمني. لقيت الفكرة اعجاب الشين بيت. واذ ابتدأت بتنفيذها، طلبت من أحد عناصر حماس المحليّين ملاقاتي في «مدافني» القديمة عند منتصف الليل. ولكي أثير فيه انطباعاً جدياً، اجتمعت به وأنا أحمل بندقيتي أم ١٦ وقلت له: «أريدك القيام بارسالية بالغة الأهمية». فبدت عليه امارات الخوف والاثارة، وأنصت بكل جوارحه لكل كلمة ينطق بها ابن حسن يوسف. أضفت قائلاً: «لا يمكنك البوح بهذا لأي شخص، حتى لأفراد عائلتك، أو حتى لقائد حماس في منطقتك. على فكرة. من هو قائدك؟».

طلبت منه كتابة كل شيء عن تاريخه في حماس، وكل ما يعرفه عنها، قبل أن أخبره أكثر عن المهمة المطلوبة منه. فلم يتمكن من تدوين كل شيء على الورقة بالسرعة الكافية، بحيث أذهلتني كمية المعلومات التي ذكرها، بما فيها آخر التطورات عن كامل التحركات التي قامت بها حماس في منطقته.

التقينا مرة ثانية، وأعلمته بأنه سيتم ارساله الى خارج فلسطين. وحذرته قائلاً: «نفذ ما أقوله لك بحذافيره، ولا تطرح الأسئلة».

أخبرت لؤي بأن الرجل كان متورطاً بأعمال حماس حتى عنقه. فاذا قررت المنظمة اختباره قبل السماح له بالسفر الى الخارج، ستجد فيه عنصراً فعّالاً وكامل الولاء. أجرت الشين بيت تحرياتها الخاصة عن الرجل، ووافقت على قيامه بالمهمة، قبل أن تسهّل له عبور الحدود.

كتبت رسالة الى خالد مشعل أخبرته فيها أنني أملك كامل المفاتيح الى الضفة الغربية، وأنه يمكنه الاعتماد كلياً عليّ للقيام بمهمات خاصة ومعقدة، اذا كان لا يثق بقدرة حماس على تنفيذها من خلال قنواتها العادية. وقلت له أيضاً أنني جاهز لأوامره، مع ضمانات بالنجاح.

توقيت العمل الذي قمت به كان ممتازاً، حيث أن اسرائيل اغتالت أو اعتقلت معظم قادة حماس والناشطين في الحركة في ذلك الوقت. فكانت كتائب القسام

منهكة، بينما كان مشعل بأشد الحاجة الى المصادر البشرية.

لم أطلب من حامل الرسائل ابتلاعها. فقد أعددت مهمة أكثر تعقيداً، لأنها كانت مسلية أكثر. اكتشفت بأنني أهوى العمل الاستخباري، خاصة عندما تعبّد الاستخبارات الاسرائيلية الطريق أمامها.

اشترينا لحامل الرسائل بعض الثياب الجميلة والمتناسقة، لكي ينشغل بها دون الحذاء، الذي خبّأنا فيه الرسالة دون علمه.

لبس الرجل ثيابه الجديدة، وأعطيته كمية كافية من المال للقيام برحلته، وبعض المال الاضافي للتمتع بوقته في سوريا. وأخبرته بأن الشخص الذي سيلتقيه سيميّزه من حذائه فقط، فكان عليه انتعاله كل الوقت، لئلا يُشتبه بأنه رجل آخر، فيجلب على نفسه متاعب جدية وخطيرة.

بعد وصول حامل الرسائل الى سوريا، اتصلت بمشعل وطلبت منه توقع اتصال من الشخص المُرسَل قريباً. لو أن أحداً آخر طلب منه هذا، لشكك في الأمر حالاً، ورفض اللقاء به.

عندما التقيا معاً، طلب خالد من الرجل تسليمه الرسالة.

فأجاب الرجل: «أية رسالة؟».

لم يكن على علم بأن المفترض به نقل رسالة الى سوريا.

كنت قد أعطيت خالد اشارة الى مكان وجودها في احدى فردتي الحذاء. وهكذا، تم تأسيس قناة اتصال جديدة مع دمشق.

لم يكن مشعل يدرك أنه موصول على الدوام بخط الهاتف مع الشين بيت، التي كانت تستمع اليه.

الفصل العشرون

ممزق

صيف ٢٠٠١

في التاسع من شهر آب العام ٢٠٠١، في اللحظات التالية للساعة الثانية بعد الظهر، فجّر شاب في الثانية والعشرين من العمر نفسه في محلّ بيتزا سبارو المزدحم، على تقاطع شارعي الملك جورج ويافا. الانتحاري عز الدين سهيل المصري، كان من عائلة مرموقة في الضفة الغربية.

المتفجرة التي كانت تزن ما بين خمسة الى عشرة كيلوغرامات، تشظت بمحتوياتها من المسامير والقطع المعدنية الصغيرة على أجساد الجموع المزدحمة في الصيف، فقتلت خمسة عشر منهم، وجرحت مئة وثلاثين آخرين. هذا العمل الوحشي، بالاضافة الى تفجير «الدولفين» الذي سبقه بأشهر قليلة، أفقدا المواطنين الاسرائيليين صوابهم، وأغرقاهم بالحزن والغضب الشديدين. فكان يجب الكشف عن هوية المنظمة التي تقف خلف التفجيرات، والتصدّي لها قبل ازهاق المزيد من أرواح الأبرياء. والا، فان هذه العمليات بنتائجها المدمرة ستخرج عن السيطرة، وستخلف أعداداً من القتلى لم يسبق لها مثيل، وقلوباً محطمة في طول البلاد وعرضها.

وكما جرت العادة، أمعنت الشين بيت النظر في كل تفاصيل العملية الانتحارية، في محاولة لربطها بالأشخاص الخمسة المتواجدين في المنزل الآمن الذي دبّره والدي لهم: محمد النتشة، صالح تلحمي، ابراهيم حامد، سيّد الشيخ قاسم وحسنين رمانة. الا انها لم تعثر على دليل واحد يشير الى ضلوعهم في تفجيري الدولفين وسبارو.

من يمكنه صنع قنابل كهذه؟ باالتأكيد ليس طالباً في الكيمياء أو الهندسة. كنا نعرف كل واحد منهم، والعلامات التي حصل عليها، والطعام الذي تناوله عند الافطار.

كان لا بد لصانع هذه القنابل أن يكون خبيراً، لكنه لم يكن منتمياً الى احدى الفصائل الفلسطينية. وكان يعمل في الخفاء، بحيث أن الرادارات الاسرائيلية لم تتمكن من التقاطه. فكان علينا ايجاده مهما كلف الثمن، قبل أن يصنع المزيد من المتفجرات. فهذا الرجل كان خطيراً للغاية.

ما لم نعلم به في ذلك الوقت، هو تلقي جماعة عرفات اتصالاً من جهاز المخابرات الأميركية سي آي اي، بعد وقت قصير من تفجير سبارو، قالوا فيه: «نحن نعلم من هو صانع القنابل. اسمه عبدالله البرغوتي. وهو يعيش مع قريب له يدعى بلال البرغوتي. هذا هو عنوانه. اذهبوا وألقوا القبض عليه».

خلال ساعات، كان عبدالله وبلال قيد الاعتقال لدى السلطة الفلسطينية. لم تكن المسألة في أن هذه الأخيرة تريد اعتقالهما، بل في أن تبقي على الدعم المالي واللوجستي متدفقاً من واشنطن. عرفات كان يعلم أن على السلطة الفلسطينية اظهار أنها تقوم بدورها في سبيل المحافظة على السلام. أعتقد ان عرفات كان يفضل تقليد عبدالله البرغوتي ميدالية، بدل الحكم عليه بالسجن.

لم يكد عبدالله يحظى بالحجز الاحتياطي الآمن والمريح في مركز قيادة الأمن الفلسطينية، حتى ظهر برغوتي آخر، هو مروان، يطالب باخلاء سبيله. لم يكن بامكان السلطة الفلسطينية اطلاق سراح عبدالله، خاصة وأن السي آي اي وضعته في حضنها، وتوقع الأميركيون منها محاسبته على أفعاله. اسرائيل أيضاً توقعت محاكمته، تحت طائلة القيام بعمل حازم اذا تقاعست السلطة الفلسطينية عن مسؤوليتها. فزوّد مروان عبدالله بالأغذية والثياب والمال، وحفظه لديه وكأنه تحت الاعتقال المنزلي. فكان له مكتب أنيق، ليعمل ويدخن ويشرب القهوة ويتحادث

مع كبار ضباط الأمن فيه.

لم تكن تجمع مروان وعبدالله صلة قربى، الا أن التاريخ المثير لكل منهما كان متشابهاً. فالاثنان كانا على علاقة مع شاب معتوه بحق، في الثالثة والعشرين من العمر، يدعى مهند منيب أبو الحلاوة.

أبو الحلاوة كان قائد عمليات فتح، وعضواً في القوة ١٧. عندما تسمع عن قوات النخبة كالقوة ١٧ والحرس الشعبي لصدام حسين، لا بد أن تقفز الى مخيلتك صورة العنصر المنضبط، البارع، والحائز على أرفع مستويات التدريب. لكن أبو الحلاوة كان على النقيض تماماً. فهو كان جاهلاً وعصبي المزاج، يحمل سلاحاً رشاشاً ضخماً من النوع الذي يُنصب عادة على سيارات الجيب العسكرية. وكان يوزع البنادق على المتطرّفين الآخرين من ذوي الشخصيات المقيتة، الذين كانوا يستخدمونها لدى اقترابهم من حواجز التفتيش الاسرائيلية، مطلقين النار على الجنود والمدنيين من دون تمييز.

في أيار ذلك العام، على سبيل المثال، سلم أبو الحلاوة أحد الأشخاص بندقيّتي اي كي–٤٧ محشوّتين، وجعبة مليئة بالأعيرة النارية. وما هي الا أيام قليلة، حتى نصب هذا الشخص كميناً على الطريق المؤدية الى القدس، مع صديق له، وأفرغ ثلاث عشرة طلقة في جسد كاهن أورثوذكسي يوناني يدعى تسيبوكتساكيس جيرمانوس. كافأ أبو الحلاوة هذين القاتلين بمزيد من البنادق، للقيام بهجوم كان يخطط له ضد الجامعة العبرية على جبل المشارف (سكوبوس).

بعد وقت قصير، ضغطت اسرائيل على الشين بيت للتخلص من أبو الحلاوة بأسرع ما يمكن. وكان ذلك مفهوماً للغاية. كنت الشخص الوحيد في الشين بيت القادر على تحديد هويته. وكانت تلك المرة الأولى في حياتي أواجه فيها معضلة أخلاقية حقيقية. فقد منعني شيء في داخلي من قتل هذا الرجل، على رغم شره الكثير.

عدت الى المنزل، وأخرجت كتابي المقدس الذي أصبح الآن ممزقاً لكثرة الاستعمال، وأخذت أبحث وأبحث في طيّاته، فلم أجد ولا آية واحدة تجيز القتل. ومن ناحية ثانية، لم أستسغ فكرة أن تكون يداي ملطختين بالدماء، اذا ما تركنا هذا الرجل على قيد الحياة، يعبث في حياة الناس ارهاباً وقتلاً. فكنت في حيرة شديدة.

واصلت التفكير والصلاة للاله القدير، حتى صرخت في نهاية الأمر: « سامحني يا رب على ما أنا مزمع أن أفعله. سامحني. لا يمكن لهذا الرجل ان يبقى على قيد الحياة ».

عندما أخبرت لؤي بالقرار الذي اتخذته، قال: « هذا جيد. سننال منه. تأكد من أن مروان البرغوتي لن يكون معه في السيارة ».

لم يكن مروان شخصية فلسطينية مرموقة فقط، ولكنه كان ارهابياً على حسابه الخاص، وقد تلطخت يداه بالكثير من دماء الاسرائيليين. وعلى قدر ما كانت الشين بيت تكرهه، لم تكن تريد اغتياله، لئلا تصنع منه شهيداً مبجّلاً.

في الرابع من آب العام ٢٠٠١، كنت أجلس في سيارتي خارج مكتب البرغوتي، عندما شاهدت أبو الحلاوة يدخل اليه. بعد مرور ساعتين، خرج من المكتب، واستقل سيارته الفولكسفاغن غولف الذهبية، وانطلق بها. اتصلت بقوات الأمن، وأكدت لهم أن لا أحد يرافق أبو الحلاوة.

كان جنود جيش الدفاع الاسرائيلي يراقبون سيارته من داخل دبابة متمركزة على تلة قريبة، منتظرين وصوله الى مكان مكشوف خال من المدنيين، كي يطلقوا النار عليه. الصاروخ الأول المضاد للدروع اخترق الزجاج الأمامي. ويبدو أن أبو الحلاوة رآه مقبلاً اليه، لأنه فتح باب السيارة وحاول القفز منها، الا أنه لم يكن سريعاً بما فيه الكفاية، فانفجر الصاروخ ورماه خارجها. وسيارتي، التي كانت مركونة على بعد مئات قليلة من الأمتار، اهتزت بعنف جرّاء الانفجار. الصاروخ الثاني أخطأ الهدف، فانفجر وسط الشارع. احترقت سيارة الغولف، وكذلك أبو الحلاوة، الا أنه لم يمت. واذ راقبته وهو يركض في الشوارع صارخاُ من الألم، بينما النيران تلتهم جسده، بدأ قلبي يخفق بسرعة وكأنه سينزاح عن مكانه.

ماذا فعلنا؟

صرخ فيّ عميل الشين بيت عبر هاتفي المحمول، عندما رأى سيارتي على مقربة من مرمى الصواريخ: « ماذا تفعل؟ هل تريد ان تلقى حتفك؟ ابتعد من هناك ».

على رغم أنه ليس مفترضاً بي أن أكون على مقربة من موقع الهجوم، لكنني اقتربت بسيارتي لأشاهد ما سيحصل. شعرت بالمسؤولية وبضرورة أن أرى ما كنت شريكاً فيه. فعلاً، لقد كان عملاً غبياً. لو أن أحداً رآني في الموقع، لكان

لديه الكثير من المصادفات التي تصعّب عليه تصديق أنني لم أكن مشاركاً في محاول الاغتيال، ولكان افتضح أمري بلا شك.

في ذلك المساء، ذهبت برفقة والدي ومروان البرغوتي الى المستشفى لزيارة أبو الحلاوة. كان وجهه محترقاً بشكل مخيف، فلم أقوَ على النظر اليه. وبدا لي أن الرجل كان عصيّاً على الموت.

بعد اختبائه لعدة أشهر، سمعت أنه أطلق النار على نفسه عن طريق الخطأ، وأنه نزف الكثير من الدماء، ولكن ليس بالقدر الكافي ليموت. فاستمر في قتل الناس. وفي ذات يوم، اتصل بي لؤي وقال: «أين أنت؟».

«أنا في المنزل».

«أوكي. لا تتحرك من هناك».

لم أسأله عمّا يجري. فقد تعلمت أن أثق بتعليماته. بعد ساعتين، اتصل بي مجدداً. كان أبو الحلاوة يتناول الطعام مع أحد اصدقائه في مطعم للفراريج بالقرب من منزلي، عندما حدّد جاسوس اسرائيلي مكانه، وأكد على هويته. وعندما غادرا المطعم، هبطت طائرتا هليكوبتر من السماء، وأطلقتا صواريخهما، وانتهى الأمر.

بعد اغتيال أبو الحلاوة، زار عدد من عناصر شهداء الأقصى المطعم، حيث وجدوا شاباً في السابعة عشرة من العمر، كان آخر من رآه قبل صعوده الى سيارته. كان هذا الشاب يتيماً، ولم تكن له عائلة تقدم له الحماية. فعذبوه، حتى اعترف بتعامله مع الاسرائيليين. فأطلقوا النار عليه، وربطوا جثته خلف احدى السيارات، وجابوا بها شوارع رام الله، ثم علقوها على برج في ساحة المدينة.

في الوقت عينه، بدأت وسائل الاعلام ببث أخبار صاخبة عن محاولة اسرائيل قتل مروان البرغوتي، وهو أمر لم يكن صحيحاً بالطبع. كنت أعلم ان منظمة الشين تتحاشى قتله، الا أن الجميع صدّقوا أخبار الجرائد ومحطة الجزيرة. فقرر مروان استغلال الشائعة لزيادة رصيده السياسي، فأخذ يتباهى قائلاً: «نعم، لقد حاولوا اغتيالي، لكنني كنت أكثر ذكاءً منهم».

عندما سمع عبدالله البرغوتي هذه الأخبار من السجن، صدّقها أيضاً، فأرسل عدداً من قنابله المميزة الى مساعد مروان، للثأر من الاسرائيليين عبر تفجير أعمال عنف جديدة ضدهم.

أعرب مروان عن امتنانه الشديد لتصرف عبدالله، وشعر بأنه مدين له على ما

فعله لأجله.



وصول عبدالله أحدث تغييراً مأساوياً في الصراع الاسرائيلي الفلسطيني.

أولاً، كانت متفجراته أكثر تطوراً وتدميراً من كل ما سبقها، ما أضعف معنويات الاسرائيليين، ودفعهم الى زيادة الضغط على الحكومة من أجل وضع حد للارهابيين.

ثانياً، لم تعد انتقاضة الأقصى محصورة داخل فلسطين وحدها. فالبرغوتي كان على اتصال مع الخارج. ولك أن تتخيل مقدار التهديدات التي كان يمكن لاسرائيل ان تتعرض لها من وراء الحدود.

ثالثاً، لم يكن البرغوتي من الأشخاص الذين يسهل اقتفاء أثرهم. فلم يكن تابعاً لحماس، ولا للسلطة الفلسطينية. لم يكن سوى البرغوتي بنفسه، آلة القتل المستقلة والمجهولة الهوية.

بعد وقت قصير على اعتقال عبدالله، طلبت السلطة الفلسطينية من مروان التواصل معه لمعرفة ما اذا كان يعد لهجمات مستقبلية. فقال: «حسناً، سأطلب من حسن يوسف التحدث اليه».

كان مروان يعلم مدى انزعاج والدي من الفساد السياسي، كما أنه سمع عن محاولاته لاحلال السلام بين حماس والسلطة الفلسطينية. فاتصل به وطلب مه التكلم مع عبدالله، فوافق.

لم يكن والدي قد سمع بعبدالله البرغوتي من قبل، لأنه لم يكن عضواً في حركة حماس. فحذره قائلاً: «اذا كانت لديك مخططات لمزيد من التفجيرات، عليك أن تخبر السلطة الفلسطينية حتى تتمكن من ايقافها، فنخفف عنا الضغوط التي تمارسها اسرائيل ضدنا، أقله للأسابيع القليلة المقبلة. فاذا تمت عملية تفجيرية مماثلة لعملية الدولفين او سبارو، سيدخل الاسرائيليون الى الضفة الغربية بالقوة، وسيتعاملون بقسوة مع قادة السلطة الفلسطينية، وسيلقون القبض عليك».

اعترف عبدالله بأنه أرسل عدداً من القنابل الى نابلس، حيث يعمل المجاهدون على تفخيخ اربع سيارات بالمتفجرات، سيحاصرون بها موكب وزير الخارجية شيمون بيريس لدى مروره في الشارع، ويغتالونه. وكشف أيضاً عن عمليات

تخطط لها حماس في الشمال، لقتل عدد من النوّاب الاسرائيليين. وللأسف، لم يكن عبدالله يعرف الذين سيقومون بهذه التفجيرات، ولا الأهداف التي ينوون مهاجمتها، ولا الأشخاص الذين يخططون لاغتيال بيريس. لم يكن لديه سوى رقم هاتف يمكن أن يساعد في ايقاف كل هذه المخططات.

عندما وصل والدي الى المنزل، أطلعني على كل ما باح به عبدالله البرغوتي، فكان هذا بالنسبة لي تطوّر تقشعرّ له الأبدان. فقد أصبح بمتناولنا معلومات عن مؤامرة لاغتيال واحد من كبار رجال الدولة، الا وهو وزير الخارجية.

لم يكن لدينا ما يمكننا عمله الا الاتصال برقم الهاتف المتوفر. لكن مروان البرغوتي لم يُرد أن يستخدم عبدالله هاتفه، وكذلك فعل أبي. كنا جميعاً نعلم أن الاسرائيليين سينتصّتون على المكالمة، ولم يكن أحد منا يريد أن يرتبط اسمه بالعمليات الارهابية.

أرسلني والدي لشراء هاتف خليوي محدود الاستعمال، لاستخدامه في المكالمة قبل طرحه في سلة المهملات. اشتريت الهاتف، وسجّلت رقمه، ثم اتصلت بالشين بيت حتى يمكنها الدخول على الخط عند البدء بالمكالمة.

أجرى عبدالله الاتصال، وطلب من شخص عند الطرف الآخر أن يوقف كل ما هو مزمع أن يقوم به من عمليات، حتى يتلقى منه اتصالاً آخر. وحالما علمت الشين بيت بالمخططات، عمدت للحال الى اتخاذ اجراءات اضافية لحماية كل عناصر الكنيست والحكومة. وأخيراً، بعد حوالي الشهرين من التوتر، بدأت تسير الأمور قليلاً نحو التهدئة.

في هذه الأثناء، واصل مروان مساعيه لاطلاق سراح عبدالله، ليس لأنه زوّده بالمتفجرات، بل من أجل منحه الحرية لكي يتمكن من حصد المزيد من أرواح اليهود. فبالاضافة الى كونه واحداً من قادة الانتفاضة الثانية، كان الإرهابي البرغوتي مسئولاً عن إطلاق النار على مدنيين وغير مدنيين.

بعد حين، أطلقت السلطة الفلسطينية سراح عبدالله البرغوتي، فاستاءت الشين بيت للغاية من هذا الأمر.

ثم عادت الأمور لتأخذ مسارها الجنوني المعتاد.

الفصل الحادي والعشرون

اللعبة

صيف ٢٠٠١ ـ ربيع ٢٠٠٢

في السابع والعشرين من شهر آب العام ٢٠٠١، أطلقت طائرة هليكوبتر اسرائيلية صاروخين باتجاه مكتب أبو علي مصطفى، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فأصابه واحد منهما بشكل مباشر بينما كان جالساً وراء مكتبه.

في اليوم التالي، حضر جنازته الى جانب العائلة حوالي خمسين ألفاً من الفلسطينيين الغاضبين. كان مصطفى معارضاً لعملية السلام واتفاقية أوسلو. ومع هذا، فهو كان معتدلاً كوالدي، وكنا نذهب لسماع محاضراته من حين لآخر.

حمّلت اسرائيل أبو علي مصطفى المسؤولية عن تفجير تسع سيارات مفخخة، لكن هذه التهمة كانت باطلة. فهو كان قائداً سياسياً كوالدي، وليس قائداً عسكرياً. كما أن اسرائيل لم تكن تملك أي دليل يثبت تورّطه في هذه التفجيرات. كنت أعلم هذا يقيناً، لكن ذلك لم ينفع. على أي حال، تمّ اغتيال مصطفى ربما انتقاماً من مذبحة مطعم سبارو، أو من مجزرة الدولفين، أو ربما كان الاسرائيليون يريدون ببساطة توجيه رسالة الى ياسر عرفات. فبالاضافة الى

مركزه في الجبهة الشعبية، كان مصطفى عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية أيضاً.

بعد أسبوعين، وتحديداً في الحادي عشر من أيلول، قام تسعة عشر ارهابياً ينتمون الى تنظيم القاعدة، باختطاف أربع طائرات في الولايات المتحدة. اثنتان منهما ارتطمتا ببرجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، وواحدة استهدفت مبنى وزارة الدفاع الأميركية، البنتاغون، في واشنطن، والرابعة هوت في أحد حقول مقاطعة سومرست بولاية بنسلفانيا. أجمعت المصادر على أن عدد القتلى بلغ ٢٩٧٣، بالاضافة الى الارهابيين أنفسهم.

واذ كانت وسائل الاعلام تغطي بتقاريرها وصورها هذه الاعتداءات الفظيعة، كنت جالساً كباقي الأشخاص حول العالم، أشاهد المرة تلو الأخرى صور انهيار مبنيي التجارة العالمية، والغبار الكثيف يغطي شارع «الكنيسة»، وكأنه عاصفة ثلجية تضرب نيويورك في شهر شباط. وكم شعرت بالخزي والعار عندما رأيت الأطفال الفلسطينيين يرقصون في شوارع غزة ابتهاجاً.

هذا الهجوم الارهابي خفف من الاندفاع الفلسطيني لتنفيذ مزيد من التفجيرات أيضاً، وخاصة مع صراخ العالم بصوت واحد ضد الارهاب، أي ارهاب، ومهما كان الدافع اليه. في الأسابيع التي تلت، بدأت الشين بيت تستخرج العبر والدروس من تحت أنقاض ما بات يعرف باسم ٩\١١.

لماذ أخفقت أجهزة الاستخبارات الأمريكية وعجزت عن منع حصول هذه الكارثة؟ أحد الأسباب، هو عملها بطريقة مستقلة وبأسلوب تنافسي. سبب آخر، هو أنها كانت تعتمد كثيراً على التكنولوجيا، ونادراً ما تعاملت مع ارهابيين. ربما كانت هذه التكتيكات صالحة للعمل أيام الحرب الباردة، الا أنه من الصعب جداً مواجهة الأفكار المتطرفة بالتكنولوجيا.

فالاستخبارات الاسرائيلية تعتمد على المصادر البشرية. حيث أنها تستخدم أعداداً لا تحصى من الجواسيس في المساجد، والمنظمات الاسلامية والمراكز القيادية، ولا توجد لديها مشكلة حتى في تجنيد أكثر الارهابيين خطورة. وهم يعلمون أنهم بحاجة الى عيون وآذان تعمل من الداخل، والى عقول تتفهم الدوافع والمشاعر، ويمكنها تجميع النقاط والملاحظات لتكوين فكرة واضحة عما يجري في الخفاء.

لم يفهم الأميركيون الثقافة الاسلامية، ولا حتى فكرها (أيديولوجيتها).

هذا الأمر، مضافاً الى حدود مفتوحة وحراسة ضعيفة، جعل الولايات المتحدة هدفاً أسهل من اسرائيل. وعلى رغم أن عملي كجاسوس مع كثيرين غيري مكن اسرائيل من اخراج مئات الارهابيين من المعادلة، الا أننا لم نتمكن من وضع حد نهائي للأعمال الارهابية، حتى في دولة صغيرة جداً كاسرائيل.

بعد شهر تقريباً، أي في السابع عشر من تشرين الأول، دخل أربعة مسلحين من عناصر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الى فندق «هايات» على جبل المشارف (سكوبوس) في القدس، واغتالوا وزير السياحة الاسرائيلي رحبعام زئيفي. وبرّروا العملية بأنها ردّ على اغتيال أبو علي مصطفى. فعلى الرغم من تبوّئه منصباً سياسياً رفيعاً، كان زئيفي هدفاً للاغتيال، بسبب مطالبته علناً باعتماد سياسة تضييق على ثلاثة ملايين فلسطيني يعيشون في الضفة الغربية وغزة، كي يرحلوا طواعية الى دول عربية أخرى. وقد اختلطت عليه التعابير في اثناء مقابلة أجرتها معه وكالة الصحافة الفرنسية، عندما شبّه بعض الفلسطينيين بالقمل الذي يجب وضع حدّ له، لكي لا يتفشى كالسرطان فيما بيننا، كما قال.

تواصلت عمليات القتل المتبادل بين الاسرائيليين والفلسطينيين على قاعدة الفعل وردّ الفعل. ولم تنفع معادلة العين بالعين في وقف أعمال العنف، لأنه لم يكن هناك نقص في العيون.

عملت جاهداً على مدى سنوات عديدة في جمع المعلومات بتفاصيلها الصغيرة، بهدف مساعدة الشين بيت على وقف حمام الدم. داومنا على مراقبة محمد النتشة وصالح تلحمي والأشخاص الثلاثة الباقين، الذين خبأناهم في المنزل الآمن بعد اطلاق سراحهم من سجن السلطة الفلسطينية. واذ بدّلوا أماكن سكنهم مرات عدة، بقي صالح وحده على تواصل معي. غير أننا اقتفينا أثر الجميع من خلال الاتصالات التي كان أفراد عائلاتهم يقومون بها عبر الهاتف العمومي.

وضع صالح ثقته بي، فكان يطلعني على مكان سكناه، وقد وجّه لي دعوات متكررة لزيارته في المنزل. ومع ازدياد معرفتي به، وجدت أنني أحبه فعلاً. كان رجلاً مدهشاً، وباحثاً لامعاً، وقد تخرّج مهندساً كهربائياً بدرجة أوّل في دفعته. وبحسب سجلات جامعة بير زيت، كان هو من افضل الطلبة في تاريخها. وكنت أنا بالنسبة له ابن حسن يوسف، وصديقاً حميماً ومستمعاً جيداً. أمضيت أوقاتاً طويلة مع صالح وزوجته ماجدة وأطفالهما الخمسة (صبيّان وثلاث بنات). كان

اسم ابنهما البكر مصعب، كاسمي. وكانت ماجدة تأتي مع الأطفال من الخليل إلى رام الله ، لتمضية وقت مع صالح في شقته السرّية. في مساء أحد الأيام، التي كنت لا أزال أواصل دراستي فيها، سألني صالح عن أحوال المدرسة قائلاً: «هل توجد لديك مشكلة مع أي شيء؟». فأجبته: «نعم. في الاحصاء الاقتصادي».
«حسناً، أحضر الكتاب معك غداً، وسنجلس معاً للدرس. ستكون لنا حصّتنا الصغيرة الخاصة بنا».

عندما أخبرت لؤي وأشخاصاً آخرين في الشين بيت عن هذا الأمر، فرحوا جداً. واعتبروا أن جلسة الدراسة هذه ستشكل غطاءً جيداً يسمح لي باستقصاء المعلومات الاستخبارية بأمان.

لم تكن المسألة بالنسبة لي مجرد غطاء. فقد أصبحت وصالح صديقين حقيقيين. والدروس التي علمني اياها ساعدتني لاجتياز امتحانات خضعت لها بعد أسبوعين بنجاح كبير. لقد أحببته، وأحببت أطفاله، وتناولت الطعام مع عائلته، فتشكلت بيننا روابط قوية تشدنا الى بعضنا البعض. ولكنها كانت علاقة غريبة، لأنني علمت أن صالح أصبح الآن في غاية الخطورة، وكذلك أصبحت أنا.



في احدى ليالي شهر آذار من العام ٢٠٠٢، كنت في المنزل عندما وقف رجلان قريباً من الباب. فسألتهما بدافع الحشرية: «بماذا يمكنني أن أساعدكما؟».

«اننا نبحث عن الشيخ حسن يوسف. الأمر في غاية الأهمية».

«أخبراني ما هو المهم في الأمر؟».

فأوضحا أنهما ضمن مجموعة من خمسة انتحاريين، وقد وصلوا على التو من الأردن. وأضافا أنه تم اعتقال الوسيط الذي يتعاملون معه، وأنهم بحاجة الى مكان آمن للبقاء فيه.

فقلت: «حسناً، لقد جئتما الى المكان الصحيح». ثم سألتهما عمّا يحتاجان اليه، فقال واحد منهما: «لدينا سيارة مليئة بالمتفجرات والقنابل، ونحتاج الى مكان آمن نركنها فيه».

فكرت في نفسي قائلاً: «عظيم. ماذا أفعل بسيارة مليئة بالمتفجرات؟». كان عليّ التفكير بسرعة. فقررت ايقاف السيارة في مرآب قريب من منزلنا. لم تكن

هذه من أفكاري اللامعة، ولكنني كنت مجبراً على اتخاذ قرار سريع.

قلت وأنا أفرغ جيبي من النقود التي أحملها: «أوكي، هذه بعض النقود، ابحثا عن مكان للمبيت، ثم ارجعا اليّ في المساء لنرى ماذا علينا أن نفعل».

اتصلت بلؤي بعد مغادرتهما. وكم شعرت بالراحة عندما أتى عناصر من الشين بيت وأخذوا السيارة.

عاد الانتحاريون الخمسة بعد وقت قصير، فقلت لهم: «حسناً، من الآن وصاعداً، أنا هو حلقة الاتصال بينكم وبين حماس. سأزوّدكم بالأهداف والمواقع ووسائل النقل وبكل ما تحتاجونه. لا تتكلموا مع أحد آخر غيري، لئلا تموتوا قبل أن تسنح لكم الفرصة لقتل أي اسرائيلي».

ما جرى كان اختراقاً ومكسباً غير متوقع على صعيد النشاط الاستخباري. لم يسبق لأحد أن اكتشف انتحارياً قبل أن يقوم بتفجير نفسه. وفجأة، ها ان خمسة منهم يظهرون أمام بابي مع سيارة مليئة بالمتفجرات. بعد نصف ساعة على اعلام الشين بيت بمكان وجودهم، أصدر رئيس الوزراء الاسرائيلي أرييل شارون أمراً باغتيالهم. فقلت للؤي: «لا يمكنكم تنفيذ هذا الأمر».

«ماذا؟».

«أنا أعلم أنهم ارهابيون، وأنهم مستعدون لتفجير أنفسهم. الا أن هؤلاء الرجال الخمسة ليسوا أكثر من جهلة. انهم لا يعلمون ماذا يفعلون. لا يمكنكم قتلهم. اذا فعلتم ذلك، فستكون آخر عملية بالنسبة لي».

«هل أنت تهدّدنا؟».

«لا. ولكنكم تعرفون كيف أعمل أنا. لقد فعلت استثناء واحداً مع أبو الحلاوة، وتعلمون كيف انتهى الأمر. لن أكون جزءاً من عملية قتل أشخاص».

«هل من حلول أخرى؟».

«اعتقلوهم». قلت هذه الكلمة، وعلمت للحال أنها فكرة غبية. فنحن لدينا السيارة والمتفجرات، الا أن الرّجال يحتفظون بأحزمتهم الناسفة. فاذا اقترب جندي اسرائيلي على بعد مئات الأمتار من الغرفة المتواجدين فيها، لن يتورّعوا عن تفجير أحزمتهم وقتل كل من يكون على مقربة منهم.

وحتى لو تمكنا من القاء القبض عليهم دون تعريض حياة أحد للخطر، فانهم بكل يقين سيأتون على ذكر اسمي أمام المحققين، وسيتم احتراقي بشكل مؤكد.

وفي ما يشبه التفكير الوقائي، شعرت بأن أفضل ما يمكن عمله، أن تقوم طائرة هليكوبتر باطلاق صاروخين على الشقة التي يسكنون فيها، وينتهي الأمر.

ولكن ماذا عن ضميري الذي بدأ يستفيق من خدره؟ فمع أنني لم أصبح مسيحياً بعد، لكنني بدأت جدّياً بالتزام التعاليم الأخلاقية التي علم بها يسوع. اله الاسلام ليس له مشكلة مع القتل. وبالحقيقة، هو يصرّ على القيام بهذا العمل. ولكن يسوع نقلني الى مستوى أدبي أرفع بكثير. فحتى الارهابي، أصبح قتله غير ممكن بالنسبة لي.

في الوقت نفسه، كنت قد أصبحت ذا قيمة كبيرة جداً لدى الشين بيت حتى تخاطر بخسارتي. ومع أنهم لم يكونوا سعداء، لكنهم قرّروا أخيراً الموافقة على الغاء عملية الاغتيال. ثم قالوا لي: «نريد أن نعرف بكل ما يجري داخل تلك الغرفة». فتوجّهت الى الشقة بحجة تزويد الانتحاريين ببعض قطع الأثاث البسيطة. ما لم يكونوا على علم به، هو أننا زرعنا بعض أجهزة التجسس داخل الأثاث، مكنتنا من سماع كل كلمة كانوا يتفوّهون بها. ومما سمعناه، نقاش دار بينهم عمّن سيقوم بالعملية الانتحارية الأولى، ثم الثانية والثالثة، وهكذا. كان كل واحد بدوره يصرّ على القيام بالعملية الأولى، لكي لا يضطر لمشاهدة أصدقائه يلقون حتفهم. كان أمراً غريباً أن نستمع الى رجال مائتين يتكلمون.

في السادس عشر من آذار، تحرك جنود قوى الأمن للقيام بعملية تمّ اتخاذ القرار بشأنها. كان مركز الانتحاريين في قلب مدينة رام الله، هذا النوع من العمليات كان يتطلب قوات خاصة. ولكونهم سيدخلون الى المدينة بدون التحصينات المتوفرة لدي جيش الدفاع الإسرائيلي من مدرعات ودبابات، كان هناك خطر شديد محدق بالجنود الذين سينفذون العملية. تابعت ما يجري على الأرض من خلال الهاتف، حيث كان لؤي يكلمني ويطلعني على كامل التفاصيل، الى أن قال: «انهم ذاهبون للنوم».

انتظرنا حتى غطوا بالنوم وبدأوا يشخرون، اذ كنا نستمع اليهم عبر أجهزة التنصّت.

المخاطرة الكبرى كانت اذا استيقظ الانتحاريون قبل الوقت المحدد. فقد كان على الجنود الدخول من باب شقتهم والوصول الى أسرّتهم، قبل تمكنهم من القيام بحركة واحدة.

ثبّت أحد الجنود متفجّرة على الباب، فيما كنا ننصت الى صوت تحرك الجنود الخفيف وسط شخير الانتحاريين. وعند اعطاء الاشارة، تفجّر الباب، واندفع جنود الوحدات الخاصة الى داخل الشقة الصغيرة، وأمسكوا بالجميع، ما عدا واحد تمكن من استلال بندقيته والقفز من النافذة، الا أنه قتل قبل أن يرتطم بالأرض.

تنفس الجميع الصعداء، الا أنا. فعندما اقتيد الانتحاريون الى الجيب العسكري، ذكر أحدهم اسمي، قائلاً انني عميل لاسرائيل.

أكثر ما كنت أخاف منه على الدوام، قد حصل. لقد احترقت. فما العمل الآن؟

كان الحل عند لؤي. فبكل بساطة، أعادت الشين بيت الانتحاري الذي ذكر اسمي الى الأردن، وأرسلت الثلاثة الباقين الى السجن. ففي الوقت الذي كان يتمتع هو بالحرية، ويعيش بسعادة وسط عائلته، كان الثلاثة الباقون يظنون أنه هو العميل الاسرائيلي، لا أنا. لقد كانت فكرة ذكية جداً.

لقد نجوت مرة جديدة، انما بالكاد. لكنه كان واضحاً أنني كنت أستند الى حظي أكثر مما يجب.



في أحد الأيام، وصلتني رسالة من رئيس الشين بيت آفي ديختر، يشكرني فيها على العمل الذي أقوم به لأجلهم، وقال انه دخل الى كل ملفات حرب اسرائيل ضد الارهاب، فوجد اسم الأمير الأخضر فيها جميعها. على قدر ما رأيت في الرسالة اطراءً، رأيت فيها أيضاً تحذيراً. فقد لاحظت أمراً لاحظه لؤي كذلك، وهو أنني اذا استمريت بالعمل على هذا المنوال، سينتهي بي الأمر مقتولاً. فخط سير هذا العمل كان طويلاً جداً، وكان لا بد لأحد ما ان يعترضه في يوم من الأيام. فكنت أحتاج بشكل أو بآخر لأن أكون معقماً ضد أي خطأ يمكن أن يحصل.

اصراري الشديد على عدم السماح بقتل الانتحاريين الخمسة، تطلب اجراء تعديل جذري لوضعي كعميل. فعلى رغم اعتقاد هؤلاء بأن الانتحاري الذي أعيد الى الأردن هو المسؤول عن اعتقالهم، كانوا يعلمون أيضاً أن اسرائيل لا تتوانى عن توقيف كل من تشتبه بأنه قدّم العون للانتحاريين. ولكوني قدّمت لهم الكثير من المساعدة، فلماذا لم يتمّ اعتقالي؟

بعد أسبوع على عملية الاعتقال، تقدم جهاز الأمن الاسرائيلي بفكرتين، لحمايتي من افتضاح أمري كجاسوس: الفكرة الأولى تقول بالقاء القبض عليّ وارسالي الى السجن للتمويه. الا أنني لم أكن سعيداً بها، خوفاً من اتخاذ الاسرائيليين قراراً باغتيال والدي، الذي لن يكون في حمايتي اذا ما تقرر الأمر. أما الفكرة الثانية فكانت في أن نلعب اللعبة. فسألت: «لعبة؟ أية لعبة؟».

فأوضح لؤي المقصود بأنهم يحتاجون الى اختراع حدث كبير بما يكفي، لاقناع الفلسطينيين بأن اسرائيل تريد القاء القبض عليّ حيّاً أو ميتاً. ولكي يكون الأمر مقنعاً وحاسماً، كان يجب أن يكون سريّاً، لكي يبدو حقيقياً. فكان على جيش الدفاع الاسرائيلي أن يحاول القاء القبض عليّ، دون معرفة عناصره بأنهم يشتركون من دون علمهم بلعبة مخابراتية. فعمدت الشين بيت الى خداع الجيش، جيشها وأبناء شعبها، واستخدامه لتحقيق غايتها.

أعطت الشين بيت الجيش الاسرائيلي بضع ساعات لتحضير هذه العملية الضخمة. وقالوا في معرض تبرير طلبهم، انه بصفتي ابناً لحسن يوسف، فأنا شاب أشكل خطراً عليهم، لأنني على علاقة وثيقة مع الانتحاريين، وربما أملك الكثير من المتفجرات. وأضافوا أنهم يملكون معلومات استخبارية موثوقة بأنني سأقصد منزل والدي تلك الليلة، لزيارة والدتي، وسأبقى لوقت قصير، وسأكون مسلحاً ببندقية أم ١٦.

اللعبة كانت محبوكة بشكل جيّد، وفيها الكثير من التفاصيل.

تم اقناع عناصر جيش الدفاع الاسرائيلي بأنني هدف على درجة عالية من الخطورة، ويمكنني الاختفاء عن نظرهم اذا لم يقوموا بعملهم بطريقة محترفة. فاتخذ الجميع كل الاجراءات اللازمة لمنع فشل العملية. تخفى عناصر القوات الخاصة بألبسة عربية، وكان بينهم قناصة فائقو المهارة، ودخلوا الى المنطقة بسيارات فلسطينية، وتوقفوا على بعد دقيقتين من منزلنا، بانتظار اشارة البدء بالعملية. وكانت هناك دبابات ثقيلة متمركزة على حدود الأراضي الفلسطينية، على بعد خمس عشرة دقيقة من المنزل. كما أن طائرات هليكوبتر هجومية كانت جاهزة لتزويد القوات المهاجمة بغطاء جوي، في حال اصطدامهم مع مسلحين فلسطينيين في الشارع.

كنت في سيارتي أمام المنزل الوالدي بانتظار اتصال من الشين بيت. وكانت

أمامي ستون ثانية فقط للاختفاء، قبل أن تحاصر القوات الخاصة المنزل. لم يكن هناك هامش للخطأ، حتى من قبلي أيضاً.

شعرت بوخزة ندم عندما تصوّرت كم سترتعب والدتي وأخوتي الصغار وأخواتي بعد لحظات من الآن. كعادتهم، عليهم أن يدفعوا ثمن كل شيء كان والدي وأنا نقوم به.

نظرت بأسف الى حديقة والدتي الجميلة التي كانت توليها عناية خاصة. فقد كانت تجمع شتول الأزهار المتنوعة من كل مكان، وتطلب من الأصدقاء والأهل تزويدها بما لديهم من أصناف لا توجد عندها، كي تزرعها في حديقتها. لقد كانت تعتني بها كما لو أنها أحد أطفالها.

كنت أمازحها باستمرار قائلاً: «كم من الورود نحتاج؟».

وكان جوابها على الدوام: «نحتاج القليل منها بعد».

تذكرت كيف أشارت مرة الي احدى شجيرات الورد، وقالت: «هذه النبتة أكبر منك سناً. عندما كنت طفلاً، قمت بتحطيم الاناء الذي كانت مزروعة فيه. ولكنني أعتنيت بها، وها هي حيّة الى الآن».

هل ستبقى هذه الوردة حيّة بعد دقائق، حين يصل الجنود ويسحقونها تحت أرجلهم؟

قطع أفكاري رنين هاتفي الخليوي.

ارتفع الدم الى رأسي، وبدأ قلبي بالخفقان الشديد. أدرت محرك السيارة وأسرعت الى وسط المدينة، حيث أعددت مكاناً سرّياً للاختباء فيه. لم تعد المسألة بالنسبة لي مجرّد تظاهر بأنني مطارد. فالجنود الذين يفضّلون قتلي على توقيفي، يبحثون عني في هذه اللحظات. بعد دقيقة واحدة على مغادرتي المنزل، توقفت عشر سيارات مدنية بلوحات فلسطينية امامه، ونزل منها عناصر القوات الخاصة بأسلحتهم الرشاشة، فأحاطوه من كل مكان، وشددوا المراقبة على الأبواب والنوافذ. كان الحيّ يعجّ بالأولاد، بمن فيهم أخي نصر الله، فتوقفوا عن لعب كرة القدم، وتفرّقوا كل واحد الى منزله، يعتريهم الخوف الشديد.

مع تمركز الجنود في مواقعهم، تحركت أكثر من عشرين دبابة باتجاه المدينة، بحيث كنت أسمع هدير محركاتها الديزل من مخبأي، فيما أدرك جميع السكان أن خطباً ما قد حدث. وللحال، هرع مئات من الشباب الفلسطينيين المسلحين

الى منزل والدي، وأحاطوا بجنود جيش الدفاع الاسرائيلي. لكنهم لم يتمكنوا من اطلاق النار، لأن الأطفال كانوا لا يزالون يجرون في الشارع للاحتماء، في الوقت الذي كان أفراد عائلتي متواجدين في المنزل.

مع وصول الفدائيين، تم الاتصال بطائرات الهليكوبتر للتحليق في أجواء المنطقة استعداداً لأي طارىء.

لم أتمكن من الاجابة على اسئلة طرأت فجأة على رأسي، عما اذا كنت مخطئاً في الحفاظ على حياة الانتحاريين الخمسة. فلو أنني تركت الجيش الاسرائيلي يسقط قنبلة عليهم، لما كانت عائلتي وجيراننا الآن في خطر. فاذا أدت الفوضى الحاصلة الآن الى مقتل أحد أخوتي، فلن أسامح نفسي ما حييت.

لكي أتأكد ان الخطة ستنتشر اعلامياً على مستوى العالم، أخبرت قناة الجزيرة أن هجوماً سيقع على منزل الشيخ حسن يوسف. ظن هؤلاء ان اسرائيل تمكنت أخيراً من والدي، وأرادوا بث عملية اعتقاله مباشرة على الهواء. تخيّلت كيف ستكون ردة فعلهم عندما تلعلع مكبرات الصوت، ويطلب الجنود من ابن الشيخ حسن البكر، مصعب، الخروج من المنزل رافعاً يديه فوق رأسه. عندما وصلت الى الشقة، المخبأ، بدأت بتقليب محطات التلفزيون، لأشاهد مع باقي العالم العربي هذه المأساة الحاصلة.

أخرج الجيش أفراد عائلتي من المنزل، وبدأوا باستجوابهم. أخبرتهم والدتي أنني غادرت قبل دقيقة واحدة من وصولهم. طبعاً، لم يثقوا بكلامها، لأنهم كانوا يصدّقون عناصر الشين بيت، الذين اختلقوا كل هذه القصة، والوحيدين، الى جانبي، الذين عرفوا ان اللعبة قد بدأت. وعندما لم أستسلم، هدّدوني بأنهم سيبدأون باطلاق النار ان لم أفعل.

على مدى عشر دقائق مرعبة، كان الجميع ينتظرون ما أذا كنت سأظهر أم لا، وما اذا كنت سأخرج وأنا أطلق النار، أو رافعاً يديّ في الهواء. بعد انتهاء الدقائق العشر، فتح الجيش النار على المنزل، فنخرت أكثر من مئتي طلقة رشاشة جدار غرفة نومي في الطبقة الثانية (لا تزال في الجدار الى اليوم). فوقت المفاوضات انتهى، وتم اتخاذ القرار بقتلي وانهاء المسألة.

توقف اطلاق النار بشكل مفاجىء، قبل أن يُسمع صفير صاروخ في الهواء، ما لبث أن انفجر في المنزل، مدمّراً جزءاً كبيراً منه، قبل أن يهرع الجنود الى الداخل

للبحث عني. كنت أعلم مسبقاً أنهم سيفتشون كل الغرف، الا أنهم لن يجدوا جثتي، ولا حتى هارباً مختبئاً فيها.

شعر الجنود الاسرائيليون بالحرج والغضب الشديدين، لأنني نجوت من قبضتهم. ولو أنهم تمكنوا من القاء القبض عليّ، لكانوا أردوني بالرصاص أمام الملأ، كما أخبرني لؤي عبر الهاتف. أما بالنسبة لنا، فالعملية نجحت نجاحاً باهراً. لم يُصب أحد بأذى، وتم تسجيل اسمي في رأس قائمة أخطر المطلوب القاء القبض عليهم، كما أنني أصبحت موضوع الحديث على ألسنة كافة سكان المدينة. فبين ليلة وضحاها، صرت ارهابياً خطيراً.

خلال الأشهر التالية، كانت لديّ ثلاث أولويات: الابتعاد عن طريق الجيش الاسرائيلي، حماية والدي، ومواصلة جمع المعلومات الاستخبارية. كان هذا هو الترتيب.

الفصل الثاني والعشرون

الدرع الواقي

ربيع ٢٠٠٢

تصاعُد وتيرة أعمال العنف أصاب الجميع بالدوار. كان الاسرائيليون يتعرّضون لاطلاق النار والطعن بالسكاكين والتفجير، فيما كان الفلسطينيون يُلاحَقون ويتم اغتيالهم. دورات العنف المتلاحقة كانت تزداد حدّة وتسارعاً، وقد باءت بالفشل كل محاولات المجتمع الدولي الضغط على اسرائيل.

في شهر آذار من العام ٢٠٠٢، خاطب الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان الزعماء الاسرائيليين قائلاً: «ضعوا حدّاً للاحتلال غير الشرعي... توقفوا عن قصف الأحياء المدنية، الاغتيالات، الاستعمال المفرط للقوة المدمرة، تهديم منازل الفلسطينيين المدنيين واذلالهم يومياً».

في نفس اليوم الذي ألقينا فيه القبض على الانتحاريين الأربعة، بعد انقاذي ايّاهم من الاغتيال، دعا قادة الاتحاد الأوروبي كلاً من الاسرائيليين والفلسطينيين الى لجم أعمال العنف، وقالوا انه لا يوجد حلّ عسكري للصراع القائم بين الجانبين.

في العام ٢٠٠٢، صادف عيد الفصح اليهودي في السابع والعشرين من شهر آذار. في ذلك اليوم، تجمّع مئتان وخمسون مدعوّاً للمشاركة بمأدبة «سيدير»

التقليدية، في غرفة طعام الطبقة الأرضية ل «بارك أوتيل» في نتانيا.

وفيما هم يحتفلون، وصل الى المكان عنصر من حماس يدعى عبد الباسط عودة، في الخامسة والعشرين من العمر، فاجتاز حرّاس الأمن عند المدخل الرئيسي، ثم مكتب التسجيل في قاعة الاستقبال، ودخل الى غرفة الطعام المكتظة بالمدعوّين، قبل أن يمدّ يده الى داخل سترته.

قتل الانفجار ثلاثين شخصاً، وجرح مئة وأربعين آخرين. بعض الضحايا كانوا من الناجين من المحرقة النازية التي تعرّض لها اليهود في أثناء الحرب العالمية الثانية. أعلنت حماس مسؤوليتها عن الهجوم، وقالت ان الهدف منه هو تعطيل القمة العربية المنعقدة في بيروت. مع هذا، أعلنت الجامعة العربية بقيادة السعودية في اليوم التالي، أنه تمّ الاجماع خلال القمة على الاعتراف بدولة اسرائيل، وانشاء علاقات طبيعية معها، شرط موافقتها على الانسحاب الى حدود العام ١٩٦٧، وايجاد حلّ لمسألة اللاجئين، والقبول بقيام دولة فلسطينية تتخذ من القدس الشرقية عاصمة لها. قبول اسرائيل هذا العرض كان سيُعتبر انتصاراً هائلاً للشعب الفلسطيني، لو أن حماس لم تتمسّك بعقيدتها: الكل، أو لا شيء.

على ضوء هذا الموقف، خططت اسرائيل لفرض حلولها المتطرفة.

كان القادة الاسرائيليون في القدس قد اتخذوا قراراً قبل أسبوعين، بالقيام بعملية جسّ نبض لغزو الأراضي الفلسطينية، من خلال احتلال المدينتين التوأمين، رام الله والبيرة. حذر الخبراء العسكريون قادتهم من أن عملاً كهذا سيؤدي الى اصابات كثيرة في صفوف الاسرائيليين، وأنه لا داعي لاقحام أنفسهم في هذه المخاطرة.

قتل الجيش الاسرائيلي خمسة فلسطينيين، وفرض حظراً للتجول في المناطق، واحتل عدداً من المباني. وعملت جرافات ضخمة من نوع دي ٩ على هدم عدد من المنازل في مخيم العامري للاجئين، من بينها منزل وفاء ادريس، المرأة الأولى التي فجّرت نفسها بعملية انتحارية، فقتلت رجلاً اسرائيلياً في الحادية والثمانين من العمر، وجرحت مئة آخرين، خارج محل لبيع الأحذية في القدس، في السابع والعشرين من كانون الثاني.

بعد عملية «بارك أوتيل» تحوّل جس النبض الى قرار حاسم. فأعطت الحكومة الاسرائيلية الضوء الأخضر لتنفيذ عملية عسكرية لم يسبق لها مثيل، أطلقوا عليها اسم «الدرع الواقي».

رن جرس هاتفي، وكان لؤي على الخط. فسألته: «ماذا لديك؟».

فأجاب: «جيش الدفاع الاسرائيلي يعمل على تجميع نفسه بكامل عديده وعتاده. وسنأسر صالح وكل الفارّين، هذه الليلة».

«ماذا تقصد؟».

«سنعيد احتلال كامل الضفة الغربية، وسنعمل على تفتيش كل منزل ومكتب وبناء، مهما كلفنا ذلك من وقت. لا تتحرّك من مكانك، وسأبقى على اتصال معك».

قلت في نفسي: «يا للروعة. ربما سيضع هذا حدّاً للحرب العبثية، أخيراً».

انتشرت الشائعات في الضفة الغربية، فيما كانت القيادة الفلسطينية تعلم أن شيئاً ما سيحدث، لكنها لا تعرف ما هو بالضبط. فغادر جميع الناس مراكز عملهم وعياداتهم وصفوفهم المدرسية، ولازموا منازلهم لمتابعة الأخبار عبر شاشات التلفزيون. نقلت والدي الى منزل يملكه مواطنان أميركيان، بحيث أكدت لي الشين بيت أنه سيكون بمأمن فيه.

في التاسع والعشرين من آذار، حجزت غرفة في فندق «سيتي ان» الواقع على طريق نابلس في مدينة البيرة، حيث كان يستقر مراسلو البي بي سي والسي أن أن، وكافة وسائل الاعلام الدولية. وقد بقيت على تواصل مع والدي من خلال جهاز لاسلكي.

توقعت الشين بيت مني أن الزم غرفتي في الفندق، وأتسلى بتناول رقائق البطاطا المقلية ومشاهدة التلفزيون. ولكنني لم أقبل أن يفوتني شيء من الأمور الهامة التي تحصل على الأرض. كنت أريد الاطلاع على كل شيء. فدليت بندقية الأم ١٦ من على كتفي، وخرجت. وفي شكلي الذي يشبه الخارجين على القانون، تسلقت التلة القريبة من مكتبة رام الله، فأمكنني مشاهدة الناحية الجنوبية الشرقية للمدينة، حيث يوجد والدي. اعتقدت أنني سأكون بمأمن في هذا المكان، وسأتمكن من العودة بسرعة الى الفندق حالما أسمع أصوات الآليات العسكرية.

حوالى منتصف الليل، بدأ هدير مئات دبابات الميركافا وهي تعبر الى داخل المدينة. لم أكن أتوقع أن يتم اقتحامها من جميع الجهات دفعة واحدة، وان يتم الهجوم بالسرعة التي حصل فيها. كان بعض الشوارع ضيقاً، بحيث لم يكن أمام سائقي الدبابات الا العبور بها فوق السيارات المركونة على جانبي الطريق. بعض

الشوارع الأخرى كانت واسعة بما يكفي، لكن، يبدو أن الجنود كانوا يتمتعون بأصوات انسحاق هياكل السيارات تحت جنازيرهم. شوارع مخيمات اللاجئين كانت عبارة عن ممرات تفصل بين المنازل المبنية من حجارة الطوب، التي حوّلتها الدبابات الى أكوام من الحصى.

اتصلت بوالدي وقلت له: «أقفل جهاز اللاسلكي، احم نفسك، واحفظ رأسك».

كنت قد ركنت سيارة والدي من طراز أودي على أحد المنعطفات، وهالني مشاهدتها تسحن تحت جنازير احدى الدبابات. لم يكن مُفترَضاً بي أن أركنها هناك. ولم أدر ماذا أفعل. وبالتأكيد، لم يكن بامكاني الاتصال بلؤي والطلب منه وقف العمليات، فقط لأنني قررت أن أقوم بدور «رامبو».

ركضت مسرعاً باتجاه وسط المدينة، وتسللت الى مرآب سيارات تحت الأرض، على بعد أمتار عدة من دبابة كانت تسير باتجاهي. لم يكن هناك جنود يسيرون على الطريق في تلك اللحظة، بانتظار أن تمشط الميركافا المنطقة أمامهم. وفجأة، لاحظت أمراً مرعباً. فقد كان البناء فوق رأسي عبارة عن مكاتب لعدد من منظمات المقاومة الفلسطينية. كان ملجأي هدفاً رئيسياً لمهاجمته وتدميره من قبل الاسرائيليين.

لا تستطيع الدبابات التمييز. وهي لا تعرف الفرق بين عملاء الشين بيت والارهابيين، وبين المسيحيين والمسلمين، وبين المحاربين المسلحين والمدنيين العُزل. والأولاد الذين بداخل هذه الآليات كانوا مرتعبين، كما كنت أنا تماماً. وكان كل الشباب الذين في المنطقة يطلقون رصاص رشاشاتهم اي كي–٤٧ على الدبابات، بينغ. بينغ، بحيث أن الطلقات كانت ترتد عنها كلعب الأطفال. ثم، بوووم... قصفت واحدة من الميركافا قنبلة مدفعية باتجاه مصادر النيران، كادت أن تمزق طبلتي أذنيّ لدويّها الهائل.

بدأت أقسام كبيرة من الأبنية المحيطة بالانهيار، لتتحول ركاماً وسط دخان كثيف. شعرت بكل طلقة مدفعية وكأنها تخترق أمعائي. نخرت الأسلحة الرشاشة كل الجدران. ثم طلقة مدفعية أخرى، أخفت أحد الأبنية بغيوم من الغبار، فيما تطايرت الشظايا وقطع الحديد والحجارة في كل اتجاه.

كان عليّ الخروج من ذلك المكان. ولكن كيف؟

فجأة، دخلت مجموعة من مقاتلي فتح الى المرآب، وانتشر عناصرها حولي في وضع قتالي. لقد ساء الوضع. ماذا لو حضر الجنود الاسرائيليون الآن؟ سيفتح الفدائيون النار عليهم. فهل سأطلق النار أنا كذلك؟ واذا كان نعم، فعلى من؟ وان رفضت اطلاق النار، فهم سيقتلونني على أي حال. ليس بامكاني قتل أحد. ربما كان الأمر ممكناً من قبل، ولكنه مستحيل الآن.

استمر تدفق المسلحين وهم ينادون بعضهم البعض فيما كانوا يتراكضون. وفجأة، هدأ كل شيء، وصمت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير.

دخل الجنود الاسرائيليون بحذر شديد الى المرآب، وكانوا يتقدمون ببطء. ولو أن شيئاً سيحصل، كان سيبدأ في خلال ثوان معدودة. واذ وجّهوا أنوار مصابيحهم الى الداخل، كانوا يعللون النفس ربما بوجود أحد في المكان، يكتشفونه من خلال لمعان عينيه أو انعكاس النور على سلاحه. أصاخوا السمع، ونحن كنا نراقبهم من ظلمتنا، فيما كانت الأصابع المتعرّقة لجميعنا مثبتة على الزناد.

ثم انشقّ البحر الأحمر.

هل كان الجنود خائفين من التوغل أكثر في ظلمة ذلك المرآب الرطب؟ أو هل ربما اشتاقوا الى رفقائهم في الدبابة؟ مهما كان السبب، فانهم تراجعوا عن الدخول، وغادروا المكان.

عندما تواروا عن الأنظار، صعدت الى الطابق العلوي عبر السلالم، واتصلت بلؤي من احدى الغرف، وقلت له: «هل يمكنك الطلب من الجيش الاسرائيلي التراجع مسافة شارعين، لكي يتسنى لي العودة الى الفندق؟».

«ماذا؟ أين أنت؟ لماذا غادرت الفندق؟».

«أنا أقوم بعملي».

«أنت معتوه».

بعد أن ساد صمت ثقيل أضاف لؤي: «أوكي، سنرى ماذا يمكننا فعله».

كان عليّ الانتظار حوالى ساعتين قبل أن تتحرك الدبابات، وسط تساؤل الجنود عن سبب انسحابهم من المنطقة. وما أن تمت العملية، بدأت بالقفز من سطح بناء الى آخر، حتى كدت أكسر احدى رجليّ، الى أن وصلت أخيراً الى الفندق. أقفلت الباب ورائي، وخلعت ثيابي المشابهة لزي ارهابي، وخبأتها مع بندقيتي داخل فتحات مكيف الهواء.

كان المنزل حيث يختبيء والدي يقع في قلب العاصفة. وقد فتش الجنود الاسرائيليون كل المنازل المحيطة به، وخلف كل بناء وتحت كل حجر، ولكنهم لم يدخلوا اليه، بناءً على أوامر تلقوها من قيادتهم العسكرية.

داخل المنزل، كان والدي يقرأ القرآن ويصلي. كما كان مالك المنزل وامرأته يفعلان الشيء نفسه. ثم، ولسبب غير معروف، غادر الجنود المنطقة لاستكمال عمليات البحث والتفتيش في منطقة أخرى.

قال لي والدي فيما بعد عبر هاتفي المحمول: «لن تصدّق هذه المعجزة التي حصلت، مصعب. كان شيئاً عجيباً. لقد أتوا، وفتشوا كل المنازل حولنا وفي كل المنطقة، ما عدا المنزل الذي كنا متواجدين فيه. الحمد لله».

أجبته في داخلي: «العفو».

منذ حرب الأيام الستة، لم تخض اسرائيل معارك عسكرية توازي بضراوتها عملية الدرع الواقي. ولم تكن هذه العملية الا البداية. فقد كانت رام الله رأس الحربة، ثم تلتها كل من بيت لحم وجنين ونابلس. وفي الوقت الذي كنت أتحاشى مواجهة الجنود الاسرائيليين، حاصر الجيش الاسرائيلي المجمّع الذي يتخذه ياسر عرفات مقرّاً له، حيث تم اغلاق المنطقة، وفرض عليها حظر تجول صارم.

في الثاني من نيسان، حاصرت دبابات وحاملات جنود مدرّعة مجمّع الأمن الوقائي القريب من منزلنا في بيتونيا. وكانت تسمع أصوات طلقات نارية صادرة عن هليكوبتر هجومية في الجو. كنا نعلم أن السلطة الفلسطينية تخبيء خمسين مطلوباً على الأقل في المجمّع، فيما كانت الشين بيت تشعر بالخيبة، لعدم تمكنها من القبض على أي مطلوب في أي مكان آخر.

كان المجمّع مؤلفاً من أربعة أبنية، بالاضافة الى مبنى للمكاتب من أربع طبقات، يسكن فيه العقيد جبريل الرجوب، وضباط أمنيون آخرون. جهاز المخابارت الأميركية سي آي اي هو الذي صمّم المجمّع وبناه، وقدّم له المعدات والمفروشات اللازمة، واستخدم بعض الغرف كمكاتب خاصة به، كما أنه درّب عناصر الشرطة الفلسطينية وزوّدهم بالأسلحة. مئات من هؤلاء العناصر كانوا في المجمّع، بالاضافة الى عدد كبير من السجناء، بينهم بلال البرغوتي وآخرون ممن كانت أسماؤهم على لائحة الأهداف الاسرائيلية. كان الجيش الاسرائيلي والشين بيت في مزاج سيء للغاية. وبعد صدور الأوامر، أعلن الجنود عبر مكبرات الصوت

أن الجيش سيفجر البناء رقم واحد خلال خمس دقائق، وأمروا الذين في داخله بالخروج حالاً.

بعد خمس دقائق تماماً، بوووم. بناء رقم اثنان. «ليخرج الجميع حالاً». بوووم. بناء رقم ثلاثة. بوووم. بناء رقم أربعة. بوووم.

صدرت الأوامر عبر مكبرات الصوت الى جميع الموجودين في المكان بخلع ثيابهم تماماً، لئلا يكون أحدهم قد احتفظ بسلاحه، أو أنه يحمل متفجرات. فخلع مئات الرجال ثيابهم عن آخرها، وتم اعطاؤهم سراويل رياضية لارتدائها، قبل نقلهم بالحافلات الى مكان قريب من قاعدة أوفير العسكرية، حيث اكتشفت الشين بيت خطأ قد ارتكبته.

بالطبع، كان هناك الكثير من الرجال الذين يجب ادخالهم الى السجن. ولكن الاسرائيليين لم يكونوا يريدون سوى الذين يلاحقونهم. فقرروا غربلتهم من بين المعتقلين، على أن يطلقوا سراح الباقين الذين لا توجد أسماؤهم على لوائح المطلوبين من قبلهم. المشكلة التي واجهت الاسرائيليين هي أن كل هؤلاء الرجال قد تركوا محافظهم وهوياتهم في الملابس التي خلعوها في المجمّع، فكان صعباً التمييز بين من هو مطلوب للاعتقال ومن هو من عناصر الشرطة الفلسطينية.

كان على رأس هذه الحملة القائد الأعلى للضابط المسؤول عن لؤي، أوفير ديكيل. فأجرى اتصالاً بجبريل الرجوب، الذي لم يكن موجوداً في المجمّع حين مهاجمته، ومنحه تصريحاً خاصاً للعبور بأمان بين مئات الدبابات وآلاف الجنود الاسرائيليين. وعندما وصل الى المكان، طلب ديكيل منه الاشارة الى عناصر الشرطة الفلسطينية الذين يعملون بأمرته، والى المطلوبين للاعتقال. أعرب الرجوب عن سروره بعمل هذا. وللحال، أشار الى عناصر الشرطة على أنهم المطلوبون، والى المطلوبين على أنهم عناصر الشرطة. فأطلقت الشين بيت سراح كل المطلوب القاء القبض عليهم.

بعد استيعاب ديكيل ما حدث، قال للرجوب: «لماذا فعلت بي هذا؟».

فأجاب بهدوء: «أنت فجّرت للتو مكاتبي ومجمّعي».

يبدو أن ديكيل نسي أيضاً أن صديقه في السلطة الفلسطينية أصيب بجروح منذ عام، عندما سوّت دبابات الجيش الاسرائيلي وطائرات الهليكوبتر منزله بالأرض، ما جعله أقل رغبة باسداء الاسرائيليين أية خدمة يطلبونها منه.

أصيبت الشين بيت بالحرج الشديد. والشيء الوحيد الذي كان بامكانهم عمله للثأر من الرجوب، كان اطلاق صفة الخائن عليه في بيان رسمي، لأنه انقلب على اتفاقية تم التوصل اليها برعاية السي آي اي، تقضي بأن يتم تسليم اسرائيل كل الرجال المطلوبين منها للعدالة. ونتيجة لهذا، خسر الرجوب موقعه القوي، وانتهى به الأمر رئيساً لهيئة كرة القدم الفلسطينية.

لقد كانت فعلاً هزيمة كبيرة له.

خلال الأسابيع الثلاثة التالية، كانت اسرائيل ترفع حظر التجول عن المناطق من حين لآخر. في احدى المرات، في الخامس عشر من شهر نيسان، تمكنت من ايصال بعض المواد الغذائية والحاجات الضرورية الى والدي، الذي اطلعني على شعوره بعدم الأمان في المنزل الذي يختبىء فيه، وأنه يريد الانتقال منه. أجريت اتصالاً بأحد قادة حماس، وسألته اذا كان يعرف مكاناً يمكن فيه تأمين الحماية لحسن يوسف. فنصحني بنقل والدي الى المكان الذي يختبىء فيه الشيخ جمال الطويل، أحد قادة حماس الكبار، والمطارَد من قبل اسرائيل.

دُهشت لهذه المعلومات. فان اعتقال جمال الطويل سيخفف عن الشين بيت الشعور بالخيبة التي أصابتهم بعد عملية الدرع الواقي. فشكرته وقلت له: «دعنا لا نضع والدي في نفس المكان. ربما يشكل الأمر خطراً على كليهما اذا كانا معاً». اتفقنا على مكان آخر، وسرعان ما عملت على أن يستقرّ والدي في منزله الجديد الآمن. ثم اتصلت بلؤي وقلت له: «أنا أعرف مكان اختباء جمال الطويل». فلم يصدّق الخبر، وتم اعتقال الطويل في تلك الليلة.

في نفس اليوم، ألقينا القبض على شخص آخر هو من أهم المطلوبين لدى الجيش الاسرائيلي، مروان البرغوتي.

على رغم أنه كان من أكثر قادة فتح دهاءً، كان اعتقاله في غاية البساطة. حيث تم تحديد موقعه من خلال إتصال هاتفي من المنزل الذي كان موجوداً فيه. حوكم البرغوتي فيما بعد في محكمة مدنية، أصدرت حكمها عليه بالسجن مدى الحياة، مكرراً خمس مرات.

في هذه الأثناء، لم يكن يمر يوم دون أن تكون عملية الدرع الواقي في عناوين نشرات الأخبار العالمية، التي أشاد القليل منها فقط بالعملية. انتشرت شائعات تتحدث عن حدوث مجزرة كبيرة في مدينة جنين، الا أنّ أحداً لم يتمكن من

تأكيدها، لأن الجيش الاسرائيلي أغلق المنطقة. الوزير في الحكومة الفلسطينية صائب عريقات تحدث عن خمسمئة قتيل، الا أن هذا العدد تضاءل الى حوالي الخمسين.

في بيت لحم، تم حصار أكثر من مئتي فلسطيني في كنيسة العائلة المقدسة، لحوالي خمسة أسابيع. بعد جلاء الغبار والسماح لأكثر المدنيين بالمغادرة، تم قتل ثمانية فلسطينيين، وارسال ستة وعشرين الى غزة، كما تم اطلاق سراح خمسة وثمانين شخصاً بعد خضوعهم للتفتيش من قبل الجيش الاسرائيلي، ونفي ثلاثة عشر من المطلوب القاء القبض عليهم الى أوروبا.

قيل أن عملية الدرع الواقي أدت الى مقتل خمسمئة فلسطيني، وجرح ألف وخمسمئة آخرين، واعتقال أربعة آلاف وثلاثمئة شخص من قبل الجيش الاسرائيلي. من الناحية الثانية، قتل تسعة وعشرون اسرائيلياً، وجرح مئة وسبعة وعشرون آخرون. وقدّر البنك الدولي الخسائر بأكثر من ثلاثمئة وستين مليوناً من الدولارات.

الفصل الثالث والعشرون

حماية فوق طبيعية

صيف ٢٠٠٢

يوم الأربعاء، الحادي والثلاثين من شهر تموز العام ٢٠٠٢، كان ملتهباً، حيث وصلت درجة الحرارة الى مئة واثنين بمقياس فهرنهايت. في مجمّع الجامعة العبرية على جبل المشارف (سكوبوس)، لم تكن هناك حصص مدرسية، على رغم أن بعض الطلبة كانوا يخضعون للامتحانات، فيما كان آخرون منتظمين في صفوف، لتسجيل أسمائهم لدورة الخريف. عند الواحدة والنصف من بعد الظهر، كانت كافيتيريا فرانك سيناترا في الجامعة تعجّ بالطلبة الذين ينشدون بعض البرودة، ويتمتعون بالشراب المثلج، ويتحادثون. لم يلاحظ أحد وجود حقيبة تركها متعهد الدهان في المكان.

الانفجار الهائل دمّر الكافيتيريا، وترك وراءه تسعة قتلى، خمسة منهم أميركيون، وخمسة وثمانين جريحاً، أربعة عشر منهم في حالة خطرة.

في اليوم نفسه، أختفى صديقي الحميم صالح. وعندما تفقدنا منازل المطلوبين الأربعة الأخطر على لائحتنا، اكتشفنا أنهم اختفوا بدورهم دون أن يتركوا أثراً. كما أن عائلاتهم لم تعرف بمكان وجودهم، أو كيفية الاتصال بهم. تمكنا فيما

بعد من تحديد هوية خلية حماس التي زرعت القنبلة، ووجدنا أن عناصرها من الفلسطينيين الساكنين في اسرائيل وليس في الأراضي المحتلة. كان هؤلاء يحملون هويات اسرائيلية زرقاء، تسمح لهم بالتجول في أي مكان يريدونه. خمسة منهم كانوا من القدس الشرقية، متزوجين، ومن عائلات مرموقة، ويشغلون وظائف محترمة.

في سياق التحقيقات التي جرت معهم، طفا على السطح اسم محمد عرمان، وهو رجل يسكن في احدى القرى المحيطة برام الله. طلب من عرمان تحت وطأة التعذيب، تحديد هوية الشخص الذي يقف خلف تفجير الجامعة العبرية، فقال انه لا يعرف عنه سوى ان اسمه «شيخ».

عرض المحققون عليه صوراً للارهابيين المشتبه فيهم، كتلك التي تلتقطها الشرطة الأميركية وتحتفظ بها في سجلاتها، وطلبوا منه الاشارة الى «الشيخ». فدلّ على صورة ابراهيم حامد، وبذلك أعطانا الدليل القاطع الأول على تورّطه بالعمليات الانتحارية.

علمنا لاحقاً أنه بعد اكتشاف أمره، استغل حامد هذا الأمر لحماية صالح وكل أعضاء الخلية التابعة له، حيث كان قد اتفق معهم على أن يحملوه المسؤولية أمام المحققين عن كل العمليات، في حال القبض عليهم، طالما أن لا شيء لديه لكي يخسره. فحتى ذلك الوقت، كانت كل التحقيقات تشير الى حامد، الذي اختفت آثاره تماماً.



خلال الأشهر التي تلت عملية الدرع الواقي، كانت رام الله خاضعة لحظر التجول، فيما كانت الادارات التابعة لعرفات مشلولة الى حد بعيد. علقت الوكالة الأميركية للتنمية الدولية مشاريعها، ولم يكن يُسمح لموظفيها بالدخول الى الضفة الغربية. كما كانت حواجز التفتيش الاسرائيلية تشدّ الخناق على المدينة، بحيث أن سيارات الاسعاف كانت الوحيدة المخوّلة الدخول والخروج. كنت أنا في ذلك الحين هارباً رسمياً من العدالة، الأمر الذي منعني من التجول بحرية. ومع هذا، كان عليّ لقاء الشين بيت كل أسبوعين، للتباحث في آخر مستجدّات العمليات التي لا يمكن التحدث عنها من خلال الهاتف.

في تلك الفترة، شعرت بحاجة ماسّة الى دعم عاطفي ونفسي، لأنني كنت أعيش في وحدة رهيبة. أحسست بأني غريب في مدينتي. لم أكن قادراً على مشاركة أمور حياتي مع أي شخص، ولا حتى مع عائلتي. ولم أكن أثق بأحد. كنت ألتقي بلؤي بشكل منتظم في منزل آمن تابع للشين بيت في القدس. ولكنني لسبب الوضع السائد، كنت عاجزاً عن مغادرة رام الله. كما أن التجوّل في الشوارع خلال النهار لم يكن آمناً بالنسبة لي. فلم تكن أي من الخيارات العادية متاحة أمامي.

فاذا جاء عناصر القوات الخاصة لأخذي معهم بسيارة فلسطينية، كان هناك خطر مستمر من أن يوقفهم الفدائيون، ويفضحون هويتهم بسبب لهجتهم. واذا تظاهر العملاء السرّيون في الجيش الاسرائيلي بأنهم يختطفونني، فكان لا بدّ لأحد ما أن يراني أقفز الى الجيب. وحتى لو نجح الأمر، فكم من المرات يمكن لنا أن نستخدم هذه الحيلة؟

بعد حين، استنبطت الشين بيت فكرة خلاقة لاستمرار لقاءاتي معها.

قاعدة أوفير العسكرية التي تقع على بعد ميلين جنوب رام الله، كانت من المرافق الاسرائيلية الأمنية الفائقة الأهمية. ولكونها مركزاً سرّياً كبيراً، تمت احاطتها باجراءات أمنية كثيفة. وكانت مكاتب الشين بيت المحلية متواجدة فيها.

قال لؤي: «حسناً، من الآن فصاعداً، سنتلاقى في أوفير. كل ما عليك فعله هو التسلل اليها».

ضحكنا لهذه النكتة، ثم لاحظت أنه جاد، عندما أضاف قائلاً: «اذا اكتشفوا أمرك، سيبدو للجميع أنك كنت تحاول التسلل الى منشأة عسكرية ضخمة لتنفيذ اعتداء عليها».

«اذا اكتشفوا أمري؟».

الخطة كانت تبعث على القلق. ففي ساعة متأخرة من احدى الليالي التي قررنا فيها وضع الخطة موضع التنفيذ، شعرت بنفسي وكأنني ممثل في ليلة الافتتاح، على قاب قوسين من الدخول الى مسرح لم يره من قبل، وهو يرتدي زيّاً لم يلبس مثله من قبل، ولا يوجد معه نص مكتوب، ولم يتمرّن على أداء دوره أبداً.

لم أكن أعلم أن الشين بيت وضعت عملاءها الخاصين في برجي الحراسة، لتغطية البقعة المفترض بي اختراقها. ولم أعلم أيضاً أن عملاء سريين مزوّدين

بمناظير ليلية، كانوا متمركزين على جوانب الطريق التي سلكتها، لحمايتي ممن يمكن أنه يتعقبني في هذه العملية غير العادية.

لم يفارق مخيلتي سؤال مهم: ماذا لو ارتكبت خطأ ما؟

ركنت سيارتي بعيداً عن الانظار. كان لؤي قد زوّدني بتعليمات محددة، كارتداء ثياب داكنة اللون، وعدم استخدام مصباح يدوي، واستحضار قطاعتي أسلاك. فأخذت نفساً عميقاً.

وأنا في طريقي صوب التلال، كنت أرى أنوار القاعدة تشع من بعيد. ولفترة قصيرة، كانت حفنة من الكلاب الشاردة تنبح في اثري، فيما أنا أصعد وأهبط في الطريق الوعر الذي أسلكه. لم أهتم للأمر، طالما أن هذا النباح لا يثير انتباه أحد.

أخيراً، وصلت الى السور الخارجي، فاتصلت بلؤي الذي قال لي: «ابدأ من الزاوية باحتساب سبع ركائز، ثم انتظر اشارة مني لتباشر بقطع الشريط».

بدأت بقطع شريط السور القديم، حيث أن سوراً جديداً تم بناؤه على بعد عشرين قدماً منه، عند بداية الانتفاضة الثانية.

كنت قد تلقيت تحذيراً من وجود خنازير حراسة (نعم، قلت خنازير حراسة)، الا أنني لم ألتق بأي منها. فلم أهتم. الفسحة بين السورين الداخلي والخارجي كانت عبارة عن ممر، في أي قاعدة عسكرية في العالم تكون محروسة بكلاب رعاة المانية أو أية كلاب مدربة بشكل خاص على الهجوم. ولكن، يا للسخرية، لقد تعمّد الاسرائيليون استخدام الخنازير. هذا صحيح.

انطلقت الفكرة من كون الخنازير والخوف من لمسها، ربما تشكل رادعاً جسدياً لكل ارهابي مسلم متديّن يفكر بمهاجمة القاعدة. فالاسلام يحرّم لمس الخنازير، كما يحرّمه اليهود الأورتوذكس، وربما أكثر.

لم أر في حياتي خنازير تحرس مستوطنة. لكن لؤي أخبرني لاحقاً بأنها تقوم بمهمة الحراسة في قاعدة أوفير العسكرية.

وجدت باباً صغيراً في السور الداخلي، لم يكن مقفلاً. واذ ولجته، وجدت نفسي داخل أهم منشأة عسكرية محصنة في اسرائيل، يرتفع عن جانبيها برجا حراسة كأنهما قرنا الشيطان.

همس لؤي في أذني: «دع رأسك منخفضاً. وانتظر اشارة».

كان يوجد بالقرب مني شجيرات صغيرة. بعد لحظات على دخولي الى

القاعدة، بدأ عدد منها بالتحرك. واذ بدأوا يكشفون عن أنفسهم، رأيت بعضاً من العملاء الذين كانوا يحضرون لقاءاتي مع الشين بيت. الا أنهم كانوا الآن يحملون بنادق رشاشة ثقيلة، ويلبسون زي الجيش الاسرائيلي المموّه بالأغصان المشكوكة في أماكن عديدة من الجسم. كان يمكنني ملاحظة أنهم يستمتعون بلعب دور الكوماندوس، حيث تنوّعت ثيابهم ما بين ارهابيين وفدائيين ورجال مسنين وامرأة في زيّ مميّز.

سألوني كمن نحن نجلس في احدى المقاهي: «كيف حالك؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

«كل شيء على ما يرام».

«هل جلبت شيئاً معك؟».

كنت مراراً أحضر معي بعض التسجيلات أو الأدلة أو المعلومات الاستخبارية. ولكنني في هذه المرة كنت خالي الوفاض.

بدأ المطر يتساقط، فركضنا صعوداً الى تلة، ومنها الى بقعة كانت تنتظرنا فيها سيارتا جيب. استقل ثلاثة من الرجال الجيب الأول، وقفزت أنا الى المقصورة الخلفية، فيما بقي الآخرون مع الجيب الثاني، لتأمين الحماية لي عند عودتي. شعرت بالأسف عليهم لأنهم كانوا في العراء، فيما كان المطر الذي يتساقط غزيراً. لكنه بدا عليهم أنهم لا يزالون يتسلون.

بعد الاجتماع مع لؤي لساعات عدة، بحضور المسؤول عنه والحراس، غادرت بنفس الطريقة التي دخلت بها، مسروراً بنفسي، على رغم ان طريق العودة كانت طويلة ومبللة وباردة.

صارت هذه هي طريقتنا المعهودة لعقد الاجتماعات. لقد صُممت الخطة ونفذت في كل مرة من دون أدنى خلل. ولم أعد أحتاج لقطع الأسلاك، الا أنني استمريت باحضار القطاعات معي. فمن يدري؟



بعد «هربي» من غارة الجيش الاسرائيلي التي تم بثها على الملأ، داومت على الاهتمام بوالدي، للتأكد من أنه بخير ولا يحتاج الى شيء. ومن حين لآخر، كنت أزور مكتب الوكالة الأميركية للتنمية الدولية. ولكن منذ تعليق العمل بكافة

المشاريع، كنت أقوم بالعمل القليل المطلوب مني، عبر جهاز الكومبيوتر في المنزل. وفي كل مساء، كنت أصرف الوقت مع أشخاص مطلوبين، كي أحصل منهم على المعلومات الاستخبارية. ولمرة واحدة أو مرتين في الشهر، كنت أتسلل في ساعة متأخرة من الليل، الى المنشأة العسكرية الفائقة السرية، لحضور اجتماع فيها.

لم أنقطع عن قضاء وقت مع أصدقائي المسيحيين في أوقات فراغي، للتحدث عن محبة يسوع. في الحقيقة، كانت المسألة أكثر بكثير من مجرد كلام. فمع أنني لم أكن الا تابع للمعلم، فقد أحسست بأنني أختبر محبة الله وعنايته بي كل يوم. وبدا لي أن هذين الأمرين قد انسحبا على أفراد عائلتي أيضاً.

بعد ظهر أحد الأيام، كان جنود القوات الخاصة الاسرائيليون يبحثون في فندق «سيتي ان» عن مجموعة من المطلوبين، الا أنهم فشلوا في العثور على أحد. فقرروا أخذ قسط من الراحة في المنزل القريب. كان هذا المنزل هو المكان الذي يختبىء فيه والدي.

كان تصرّفاً معتاداً لا يحتاج الى أوامر أو تصريح، أن يدخل الجنود الاسرائيليون الى أحد المنازل للاستراحة أو حتى لتناول شيء من الطعام، عندما تكون الأوضاع هادئة نوعاً ما. وفي بعض الأحيان، خلال المعارك العنيفة، كانوا يقتحمون المنازل المحلية، ويتخذون من الأشخاص الموجودين فيها دروعاً بشرية لهم، تماماً كما يفعل الفدائيون.

لم تكن الشين بيت تعلم أن شيئاً كهذا سيحصل. ولا أنا أيضاً. فحقيقة أن الجنود اختاروا ذلك المنزل بالتحديد، وفي ذلك اليوم بالذات، كان أمراً لا يمكن التكهّن به أو منعه من الحصول. وعند وصولهم الى المنزل، صودف أن والدي كان موجوداً في الطبقة السفلية منه.

قالت المرأة التي تقطن المنزل للجنود: «من فضلكم، لا تدعوا الكلاب تدخل الى هنا. فلديّ أطفال صغار».

كان زوجها مرتعباً من امكان أن يعثر الجنود على حسن يوسف، فيتم اعتقالهم بتهمة تأمين ملجأ لأحد الفارّين. واذ حاول التصرّف بطبيعية ودون خوف، طلب من ابنته ذات الأعوام السبعة أن تتقدّم وتصافح قائد المجموعة. سُحر القائد بالفتاة، وغمره شعور بأنها ووالديها ليسوا سوى عائلة عادية، ليس لهم شأن بالارهابيين. فسأل المرأة بلطف ان كان ممكناً لجنوده أن ينالوا قسطاً من الراحة في

الطابق العلوي، فوافقت. أمضى الجنود الخمسة والعشرون أكثر من ثماني ساعات في المنزل، ولم يفطنوا لوجود والدي بشحمه ولحمه في الطبقة الأرضية تحتهم.

لا يمكنني التعبير عن الشعور بالقوة الفائقة للطبيعة، التي تتدخل أحياناً للحماية والحفظ. فهي كانت حقيقة واقعة بالنسبة لي. عندما اتصل بي أحمد الفرنسي (الذي طلب مني يوماً تزويده بالمتفجرات من أجل تجهيز عمليات أنتحارية) من وسط رام الله، وسألني اذا كان ممكناً أن أقله الى منزله، أخبرته أنني في المنطقة، وسأكون عنده خلال دقائق. عندما وصلت، قفز الى السيارة، وانطلقنا بها. وما هي الا لحظات، حتى رن جرس هاتفه. فقد كان الفرنسي على لائحة القدس للاغتيالات، ومكتب عرفات يتصل به لتحذيره من أن طائرات هليكوبتر اسرائيلية تتعقبه. فتحت نافذة السيارة، فسمعت صوت طائرتي أباتشي تقتربان. مع أنه يبدو غريباً لأولئك الذين لا يشعرون بصوت الله يتكلم اليهم في الداخل، سمعت أنا في ذلك اليوم صوته يتكلم في قلبي، ويرشدني للانعطاف يساراً بين عمارتين. أدركت في ما بعد أنه لو استمرّيت بالسير على خط مستقيم، لكان الاسرائيليون قصفوا سيارتي بشكل مباشر. استدرت بالسيارة، وسمعت للحال الصوت الالهي يقول: «أخرج من السيارة واتركها». فقفزنا منها وركضنا بأقصى سرعتنا. وفي الوقت الذي تمكنت الطائرة من اعادة التصويب على هدفها، لم ير قبطانها الا سيارة متوقفة وبابين مفتوحين. وبعد أن حوّمت لحوالي دقيقة، استدارت الطائرة وقفلت عائدة من حيث أتت.

علمت لاحقاً أن جهاز المخابرات الاسرائيلي تلقى رسالة بأن الفرنسي شوهد وهو يستقل سيارة أودي آي ٤ كحلية اللون. كان يوجد العديد من مثل سيارتي في المدينة. لم يكن لؤي في غرفة العمليات في تلك اللحظة للتأكد من مكان وجودي، ولم يفطن أحد للسؤال عما اذا كانت الأودي تعود للأمير الأخضر. فلم يكن يعرف بوجودي سوى عدد قليل من عناصر الشين بيت.

بطريقة أو بأخرى، يبدو أنني كنت على الدوام محاطاً بالعناية الالهية. لم أكن قد أصبحت مسيحياً بعد، والفرنسي لم يكن يعرف الرب بالتأكيد. الا أن أصدقائي المسيحيين كانوا يصلون من أجلي كل يوم. وكان الله، كما قال يسوع في انجيل متى ٥ : ٤٥ «يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين». بالتأكيد كان هذا بعيداً كل البعد عن اله القرآن الوحشي والمنتقم.

الفصل الرابع والعشرون

حجز وقائي

خريف ٢٠٠٢ ـ ربيع ٢٠٠٣

كنت مُرهقاً. لقد تعبت من لعب أدوار عديدة وخطيرة في آن معاً، كما من ضرورة تغيير مظهري وشخصيتي، ليتناسبا مع الجماعة التي أكون بينها في وقت ما. فعندما أكون مع والدي وقادة حماس الآخرين، يجب أن ألعب دور العضو المتفاني في الحركة. وحين أكون مع الشين بيت، ألعب دور العميل الاسرائيلي. ولما أعود الى المنزل، ألعب دور الوالد والمعتني بأشقائي. وفي المكتب، كان عليّ أن ألعب دور الموظف العادي. كنت في الفصل الدراسي الأخير في الكلية، وكان عليّ الدرس للامتحانات النهائية. لكنني عجزت عن التركيز.

في أواخر شهر أيلول من العام ٢٠٠٢، وجدت أنه من المناسب العمل على تقديم الفصل الثاني من مسرحية الشين بيت، التي بدأت من المحاولة المزيفة لالقاء القبض عليّ.

قلت للؤي: «لا يمكنني الاستمرار على هذا المنوال. ماذا يتطلب الأمر؟ أعدة أشهر في السجن؟ اعملوا على التحقيق معي، ثم أطلقوا سراحي. وهكذا أتمكن من العودة لانهاء عامي الدراسي، وكذلك متابعة وظيفتي مع الوكالة الأميركية

للتنمية الدولية، وأعيش حياة طبيعية».

«ماذا عن والدك؟».

«لن أتخلى عنه ليتم اغتياله. ألقوا القبض عليه هو أيضاً».

«اذا كان هذا ما تريد، فان الحكومة ستكون أكثر من مسرورة أننا أخيراً ألقينا القبض على حسن يوسف».

كشفت لوالدتي عن المكان الذي يختبيء فيه والدي، وأفسحت لها المجال لزيارته. بعد خمس دقائق على وصولها، انتشر عناصر القوات الخاصة الاسرائيلية في المنطقة، وبدأوا يتراكضون في الشوارع، وهم يصرخون في السكان المدنيين للدخول الى منازلهم.

أحد هؤلاء «المدنيين» الذي كان يدخن النارجيلة أمام مدخل بيته، لم يكن الا صانع المتفجرات عبدالله البرغوتي. وما كان غريباً حقاً، هو عدم معرفته البتة بأن الرجل الذي يعيش في المنزل المقابل هو حسن يوسف. كما أن الجندي الاسرائيلي البسيط الذي طلب من البرغوتي البقاء في الداخل، لم يعلم أبداً أنه كان يصيح بأخطر قاتل جماعي مطلوب من الاسرائيليين.

كل واحد في المشهد كان يجهل أشياء كثيرة تدور من حوله. فوالدي كان يجهل أن ابنه أسلمه للاسرائيليين لئلا يتم اغتياله. والجيش الاسرائيلي كان يجهل حقيقة معرفة الشين بيت بأن حسن يوسف مختبيء في ذلك المنزل، الذي استخدمه بعض الجنود قبل فترة وجيزة، لتناول طعام الغداء والاستمتاع بالقيلولة.

استسلم والدي كالعادة من دون مقاومة. وكان في ظنه وظن القادة الآخرين في حماس، أن الشين بيت عرفت مخبأه من خلال تعقب زوجته حتى المنزل. كان طبيعياً أن تشعر والدتي بالحزن والألم، لكنها في لحظة ما أحسّت بالطمأنينة، لأن زوجها سيكون في مكان آمن، ولن يكون عرضة للاغتيال من قبل اسرائيل.

بعد جلاء غبار المداهمات اتصل بي لؤي وقال: «سنراك الليلة».

مع بدء غياب الشمس رويداً رويداً خلف الأفق، جلست بالقرب من احدى نوافذ منزلي، أراقب نحو عشرين من جنود القوات الخاصة يتحركون بسرعة في الخارج، ويتخذون أوضاعاً قتالية. علمت أنه يجب عليّ أن أخفض رأسي، وأن أستعد لمعاملة خشنة بعض الشيء. بعد دقيقتين وصل الى المدخل عدد من سيارات الجيب، تتبعهم دبابة. واذ أقفل الجيش الاسرائيلي المنطقة، قفز أحد الجنود الى

شرفة المنزل، وقرع آخر جرس الباب.

حاولت التظاهر بأنني لا أعلم ماذا يجري، فأجبت: «مَن هناك؟».

«جيش الدفاع الاسرائيلي. افتح الباب».

ما أن فتحت حتى دفعني الجنود أرضاً، وقاموا بتفتيشي لئلا أكون أحمل سلاحاً.

«هل من أحد آخر هنا؟».

«لا».

لا أعلم لماذا كلفوا أنفسهم عناء السؤال. فهم بدأوا بركل الأبواب ومداهمة الغرف واحدة واحدة. وعندما حملوني الى الخارج، وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام صديقي.

سألني لؤي بلغة خشنة وكأنني فعلاً المجرم المطلوب الذي أتظاهر بأنني هو: «أين كنت؟ كنا نبحث عنك. هل تحاول أن يتم قتلك؟ لا بدّ أنك كنت معتوهاً عندما هربت من منزل والدك العام الماضي». وتابع لؤي حديثه معي تحت أنظار وسمع عدد من الجنود الغاضبين: «لقد ألقينا القبض على والدك. وها أنت في قبضتنا، أخيراً. دعنا نرى ما ستقوله عند التحقيق».

ألقى بي عدد من الجنود في الجيب، ثم اقترب لؤي وانحنى بجانبني وهمس بأذني لكي لا يسمعه أحد: «كيف حالك يا صديقي؟ هل كل شيء على ما يرام؟ هل القيود شديدة؟».

قلت له: «كل شيء على ما يرام. فقط أبعدني عن هذا المكان. ولا تدع الجنود يضربونني في الطريق».

«لا تقلق. أحد رجالي سيكون معك».

اقتادوني الى قاعدة أوفير العسكرية، حيث جلسنا في نفس الغرفة التي اعتدنا على الاجتماع بها لعدة ساعات، من أجل اجراء «التحقيق» وشرب القهوة والبحث في الأوضاع.

قال لؤي: «سنأخذك الى المسكوبية لفترة قصيرة فقط. سنتظاهر بأنك خضعت لتحقيق صارم. والدك هناك الآن وسوف تراه. فهو لا يتعرض للاستجواب أو التعذيب. سنضعك في الاعتقال الاداري لعدة أشهر، وبعدها، سنطالب بتمديد الحكم عليك لثلاثة أشهر أخرى، لأن المفترض بأي شخص في منزلتك أن يقضي

فترة طويلة في السجن ».

عند وصولي الى المسكوبية قال لي المحققون، ومنهم من أذاقني مرّ العذاب خلال فترة اعتقالي الأولى: « لقد افتقدناك. انا سمعنا الكثير عنك، ونحن فخورون جداً بك». تفاجأت كثيراً عندما لاحظت أنني لا أحمل أية ضغينة ومرارة في قلبي تجاه هؤلاء الأشخاص. العبارة الوحيدة التي يمكنها شرح ما أقصد هي الآية التي قرأتها في الرسالة الى العبرانيين ٤ : ١٢ « لأن كلمة الله حيّة وفعّالة وأمضى من كل سيف ذي حدّين، وخارقة الى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميزة أفكار القلب ونيّاته». قرأت وتمعّنت بهذه الكلمات مرات كثيرة، كما بطلب يسوع منا المغفرة لأعدائنا ومحبة الذين يسيئون الينا. فمع أنني لم أكن مؤمناً بعد بأن يسوع هو الله، بدت كلماته، بكيفية ما، أنها حيّة وفعّالة وعاملة في داخلي. فمن دونها، لم أكن أدري كيف يمكن أن أنظر للشخص كشخص، وليس كيهودي أو عربي أو سجين أو سجّان يعذب الناس. حتى الكراهية التي كانت في قلبي قديماً، والتي حرّكتني لشراء الأسلحة والتآمر لقتل اسرائيليين، حلّ مكانها الآن محبة لم أكن أفهمها.

تم احتجازي في سجن منفرد لأسبوعين. ولمرة أو مرتين في اليوم، عندما لا يكونون منشغلين بالتحقيق مع سجناء آخرين، كان أصدقائي في الشين بيت يأتون للاطمئنان عليّ والتحادث معي. كنت أتناول طعاماً جيداً، كما أنني كنت السجين المحاط بسرية فائقة. هذه المرة، لم يكن هناك أكياس قماشية مقززة، أو أحدب معتوه، أو ليونارد كوهين (على رغم أنه أصبح المغني المفضل عندي. غريب، هه). وانتشرت في الضفة الغربية أخبار عن صمودي وعدم افشائي بأية معلومات للاسرائيليين، على رغم التعذيب المرّ الذي تعرضت له.

قبل أيام على تحويلي الى سجن آخر، تمّ نقلي الى زنزانة والدي، الذي ما أن رآني حتى ظهرت مَسحة الرضى على وجهه وهو يمدّ يديه لمعانقتي للحظات، قبل أن يبعدني عن صدره والابتسامة ترتسم على شفتيه. فقلت له ضاحكاً: « ها قد لحقت بك. لم أقوَ على العيش بدونك».

أمضينا وقتاً طيباً ضحكنا فيه كثيراً برفقة سجينين آخرين كانا معنا في الزنزانة. أقول الصدق، انني كنت سعيداً جداً لرؤيته آمناً وراء القضبان، حيث لا أخطاء يمكن أن ترتكب، أو صواريخ ستستهدفه من السماء.

عندما كان يقرأ والدي القرآن لنا بعض الأحيان، كنت أستمتع بالنظر اليه والاستماع الى صوته العذب. تذكرت كم أنه كان لطيفاً معنا خلال فترة نموّنا. لم يجبرنا أبداً على النهوض باكراً من أجل صلاة الصبح، الا أننا فعلنا ذلك لكي يشعر بالفخر والاعتزاز. فهو كرّس نفسه لله منذ شبابه، وحياته التي كانت مثالاً يُحتذى، جعلتنا نقتفي آثاره.

كنت أجلس أمامه مفكراً: «والدي الحبيب، أنا سعيد جداً بالجلوس معك هنا. أعلم أن السجن هو المكان الأخير الذي تريد أن تكون فيه الآن، ولكن لو لم تكن هنا، ربما كانت بقاياك المتناثرة مجموعة في كيس بلاستيكي صغير في مكان ما».

أحياناً، كان يتطلع اليّ فيرى ابتسامة المحبة والتقدير مرتسمة على وجهي. لم يكن يفهم لماذا، ولم يكن بامكاني الافصاح له عن شيء.

عندما أتى الحراس لنقلي الى سجن آخر، تعانقنا والدي وأنا بحرارة. بدا لي ضعيف البنية، ولكنني كنت أعلم مدى صلابته. كنا قريبَين جداً من بعضنا البعض خلال الأيام القليلة الماضية، فشعرت أنني أتمزق لدى مفارقتي اياه. كما كان صعباً عليّ جداً مفارقة ضباط الشين بيت. فعلى مرّ السنين نشأت بيننا علاقة وطيدة. نظرت الى وجوههم، وتمنيت لو أنهم يعرفون كم كنت معجباً بهم. ونظروا هم اليّ أيضاً نظرات تحمل الكثير من الأسف. فقد كانوا يعلمون أن محطتي التالية في رحلتي لن تكون سهلة أبداً.

على عكس الشين بيت، كانت وجوه الجنود الذين قيّدوا يديّ قبل المغادرة تحمل معان مختلفة. فبالنسبة لهم، كنت ارهابياً فارّاً من الجيش الاسرائيلي، جعلتهم يبدون أغبياء عندما لم يتمكنوا من القاء القبض عليّ. هذه المرة، كانت الوجهة سجن أوفير التابع للقاعدة العسكرية، حيث كنت ألتقي مع جهاز الشين بيت بشكل دوري.

لكي أبدو كالآخرين، تركت العنان للحيتي الكثة كي تطول، وكنت أقوم بالأعمال الروتينية اليومية مثلهم. فعندما يأتي وقت الصلاة، كنت أنحني وأسجد وأصلي، ولكن ليس لاله الاسلام. كنت أصلي للاله الذي خلق الكون، الذي أصبحت أكثر قرباً منه عن ذي قبل. في أحد الأيام، وجدت كتاباً مقدّساً باللغة العربية، مخبأ في قسم ديانات العالم في المكتبة، ويبدو أن أحداً لم يلمسه قط. كان الكتاب بأكمله، وليس العهد الجديد فقط. وقد راهنت على أن أحداً لم يكن

يعلم بوجوده هناك. فيا له من هدية الهية.

قرأت الكتاب بعهديه القديم والجديد مراراً وتكراراً. ومن حين لآخر، كان الأشخاص الذين يمرّون بقربي يميلون ناحيتي بهدوء ليروا ماذا أفعل. فكنت أوضح لهم أنني أدرس التاريخ. وقلت لهم أيضا: «بما أن الكتاب المقدس هو من أقدم الكتب، فانه يحتوي على معلومات ترجع الى الأزمنة التاريخية الأولى. وليس ذلك فقط، بل أن القيَم التي يُعلم بها رفيعة المستوى، وأنا أعتقد أن على كل مسلم واجب قراءته». فكانوا يوافقونني الرأي. ولكن عندما أتى شهر رمضان، كانوا ينزعجون قليلاً لرؤيتي أدرس الكتاب المقدس أكثر من القرآن.

اجتماعات درس الكتاب التي كنت أحضرها في القدس الغربية كانت مفتوحة أمام الجميع، مسيحيين ومسلمين ويهود وملحدين وغيرهم. فكانت لي فرص عديدة لأجتمع مع يهود حضروا لنفس السبب الذي حضرت أنا لأجله، ألا وهو التعرف على الديانة المسيحية والتعلم عن يسوع. فكان اختباراً فريداً بالنسبة لي أنا الفلسطيني المسلم، التعرف على شخصية يسوع مع يهود اسرائيليين.

وجودي مع هذه المجموعة، أتاح لي التعرّف عن قرب على رجل يهودي اسمه أمنون، كان متزوّجاً ولديه ولدان جميلان، كما كان شديد الذكاء، ويتكلم عدداً من اللغات. واذ كانت امرأته المسيحية تشجعه منذ زمن طويل على اتخاذ خطوة العماد، قرر في النهاية الاستجابة لطلبها، فدعا أعضاء المجموعة ذات مساء لحضور حفل معموديته، التي جرت بحوض الاستحمام في منزل القس. في الوقت الذي دخلت أنا الى البيت، كان أمنون قد أنهى قراءة بعض الأعداد من الكتاب المقدس، قبل أن يُجهش بالبكاء.

عندما سمح أمنون لنفسه بالنزول تحت ماء المعمودية، كان يعلم أنه لا يعلن اتحاده مع المسيح بشبه موته وقيامته فقط، بل يعلن انفصاله الكامل عن ثقافته اليهودية أيضاً. فهو بذلك أدار ظهره لديانة والده، الذي كان أستاذاً في الجامعة العبرية، كما هجر المجتمع اليهودي والتقاليد الدينية، مدمّراً سمعته، وواضعاً مستقبله في دائرة الخطر.

بعد فترة قصيرة، تلقى أمنون بلاغاً لبدء الخدمة في صفوف جيش الدفاع الاسرائيلي. ففي اسرائيل، كل مواطن غير عربي يبلغ الثامنة عشرة من العمر، مُلزم بالخدمة العسكرية. الذكور لثلاث سنوات، والاناث لسنتين. أما أمنون، فلكونه

شاهد الكثير من المجازر على حواجز التفتيش، لم يسمح لنفسه كمسيحي أن يشغل مركزاً يتطلب منه اطلاق النار على المدنيين العُزل، فرفض ارتداء زيّ الجيش والذهاب الى الضفة الغربية. وكان لسان حاله على الدوام: «حتى لو كان باستطاعتي القيام بعملي من خلال اطلاق النار على أرجل رماة الحجارة الأطفال وليس على رؤوسهم، لا أريد فعل هذا. فأنا مدعوّ لكي أحب عدوّي».

توالى وصول البلاغات مرتين وثلاثاً. واذ كان يرفض باستمرار تنفيذها، تم اعتقال أمنون ووضعُه في السجن. وما لم أكن أعلم به، هو أنه كان محتجزاً في قسم السجناء اليهود، طوال الفترة التي كنت أنا فيها مسجوناً في أوفير. فهو كان موجوداً هناك لأنه رفض العمل مع الاسرائيليين. أما أنا فكنت هناك لأنني وافقت على العمل معهم. كنت أنا أحاول حماية اليهود، وهو كان يحاول حماية الفلسطينيين.

لم أكن أعتقد ان كل واحد في اسرائيل والأراضي المحتلة يجب أن يصبح مسيحياً لكي يتوقف سفك الدماء. ولكنني كنت أفتكر لو أن لدينا ألف أمنون في طرف واحد، وألف مصعب في الطرف الآخر، لكان ممكناً احداث تغيير كبير في الأوضاع. ولو كان لدينا أكثر... من يدري؟

بعد شهرين على وصولي الى أوفير، أجريت لي محاكمة أمام هيئة قضائية لم يكن فيها مَن يعرفني على حقيقتي. لا القاضي، ولا المدّعون العامّون، ولا حتى المحامي المكلف الدفاع عني.

في أثناء المحاكمة، شهدت الشين بيت بأنني شخص خطير، وطالبت بسجني لفترة أطول. وافق القاضي، وحَكم عليّ بالحجز الاداري. فتم نقلي مرة أخرى الى سجن آخر.

دامت الرحلة خمس ساعات عبر التلال الرملية لصحراء النقب، مررنا خلالها بمفاعل ديمونا النووي الاسرائيلي، الذي تنتصب قريباً منه خيمة سجن كتزيوت، حيث يذوب المرء في فصل الصيف لشدة الحرارة، ويتجمد في فصل الشتاء لشدة البرد القارس.

«لأي منظمة تتبع؟».

«حماس».

نعم، لقد عرّفت على نفسي كجزء من عائلتي، وجزء من تاريخي. الا أنني

صرت مختلفاً عن باقي السجناء.

كانت حماس لا تزال الأكثرية. ولكن منذ بدء الانتفاضة الثانية، تنامت حركة فتح بشكل ملحوظ، وصار لكل منظمة عدد متساو من الخيم. كنت متعباً من التظاهر على غير حقيقتي، كما أن قانون أخلاقي الجديد منعني من الكذب. فقررت عدم الاختلاط كثيراً بالآخرين، طوال الفترة التي سأقضيها هناك.

كانت كتزيوت بريّة بكل معنى الكلمة، بحيث كان هواء الليل يرجّع صدى أصوات الذئاب والضباع والفهود المنتشرة فيها. وقد سمعت قصصاً عن عدد من السجناء الذين فرّوا من هذا السجن، لكنني لم أسمع أبداً أن أحداً منهم نجا من الصحراء. كان فصل الشتاء أسوأ بكثير من فصل الصيف. فلم يكن يحمي السجناء من الصقيع والهواء العاصف المحمّل بالثلج، سوى ستائر الخيمة.

كل خيمة في هذا السجن كانت مزوّدة عند سقفها بمانع للرطوبة. الا أن بعض السجناء مزقوا قطعاً منه، واستخدموها كستائر حول أسرّتهم، تؤمّن لهم بعض الخصوصية. فالرطوبة الناتجة عن تنفسنا، والتي يُفترض بها أن تلتصق بهذا الحاجز الخاص، صارت تتكثف عند سقف الخيمة لسبب البرودة، وتتحول الى نقاط من المياه تتساقط علينا ليلاً في أثناء نومنا.

كان الاسرائيليون قد وزعوا في أرجاء السجن شرائح لاصقة، بهدف الحدّ من تكاثر الفئران. وفي صباح يوم شديد البرودة كان الجميع فيه لا يزالون يغطون في النوم، كنت أقرأ كتابي المقدس عندما سمعت صوت أزيز كأنه صادر عن نابض سرير صدىء. نظرت تحت سريري، فوجدت فأراً عالقاً على شريحة لاصقة. المفاجأة الكبرى كانت عندما رأيت فأراً آخر يحاول تحريره من ورطته، متجنباً الالتصاق هو نفسه بالشريحة. هل كان هذا شريك حياة الآخر أم مجرد صديق؟ لا أدري. وعلى مدى نصف ساعة من الزمن، راقبت فأراً وضع نفسه في دائرة الخطر كي يخلص آخر، في مشهد أثر في كياني جداً، فأطلقت سراحهما كليهما.

مواد القراءة في السجن تقتصر الى حدّ كبير على القرآن والدراسات القرآنية. أما أنا، فكان لديّ كتابان باللغة الانكليزية، هرّبهما لي صديق عن طريق محاميّ الخاص. فكنت سعيداً جداً باقتنائهما، لأنهما ساعداني على تقوية لغتي الانكليزية. ولكثرة استخدامهما، تمزقت أغلفتهما بعد فترة قصيرة. وفي أحد الأيام، بينما كنت أسير وحيداً بالقرب من خيمتي، رأيت سجينين يُحضران لصنع ابريق من

الشاي، وكان بجانبهما صندوق خشبي ضخم مليء بالكتب الروائية، تبرّعت به منظمة الصليب الأحمر. وفيما الرجلان يمزقان الكتب لاشعالها تحت الابريق، لم أقو على تمالك نفسي، فسحبت الصندوق بعيداً عنهما، وابتدأت باستخراج الكتب منه، فظنا أنني أريد بعض الكتب لصنع الشاي أيضاً مثلهما. فقلت لهما: «هل فقدتما صوابكما؟ فأنتما لا تعلمان كم كلفني تهريب كتابين لأقرأهما، وها أنكما تمزقان هذه الكتب لصنع الشاي؟». فأجابا بما يشبه الاحتجاج: «انها كتب مسيحية». فقلت: «انها ليست كتباً مسيحية. انها أفضل قصص مجلة نيويورك تايمز. وأنا أثق تماماً أنها لا تحتوي شيئاً ضد الاسلام. انها مجرد قصص تتحدث عن الاختبارات البشرية».

ربما تساءلا في ذهنهما عما جرى لابن حسن يوسف. فهو كان هادئاً، مختلياً بنفسه ويقرأ، وفجأة، اهتاج بسبب صندوق من الكتب. لو قام أحد غيري بفعل هذا، لربما نشبت معركة بين الجانبين للاحتفاظ بصندوق الوقود الذي لا يثمّن. لكنهما لم يعترضا على احتفاظي بالقصص، فرجعت الى سريري بصندوق كامل من الكنوز الجديدة. واذ كوّمتها بجانبي، وأطلقت العنان لنفسي للغوص في طيّاتها، لم أكترث لما قد يفتكر به أحد من ناحيتي. فقد كان قلبي يغني ويرنم لله الذي زوّدني بشيء لقراءته، لتمضية الوقت في هذا المكان.

كنت أقرأ ست عشرة ساعة في اليوم الواحد، حتى كلت عيناي بسبب النور الخافت. وفي الأشهر الأربعة التي أمضيتها في سجن كتزيوت، تمكنت من حفظ أربعة آلاف كلمة انكليزية.

في هذه الفترة القصيرة نسبياً، عاينت انتفاضتين في السجن، كانتا أسوأ بكثير جداً من الانتفاضة التي حصلت في سجن مجدّو، وقد حفظني الله فيهما تماماً. وفي الحقيقة، اختبرت وجود الله معي بقوة في ذلك السجن، بطريقة لم يسبق لها مثيل. ربما لم أكن أعرف المسيح بعد على اعتباره الخالق، لكنني بالتأكيد كنت أتعلم كيف أحب الله الآب.

تم اطلاق سراحي في الثاني من نيسان العام ٢٠٠٣، وهو اليوم الذي بدأت فيه قوات التحالف زحفها باتجاه بغداد. بعد خروجي من السجن، صرت قائداً محترماً في حماس، وارهابياً متمرّساً، ومطارداً محنكاً. لقد اجتزت في معمودية النار وخرجت سالماً. وخطر افتضاح أمري قد تقلص بشكل ملحوظ، ووالدي لا يزال

حياً وفي مكان آمن.

بعد وصولي الى رام الله، شعرت بأنني أستطيع التجول في شوارعها مرة جديدة بشكل علني. ولم أعد مضطراً للتظاهر بأنني مطارد من قبل اسرائيل. وصار بامكاني أن أتصرف على سجيتي الطبيعية من جديد. فبعد ان تحدثت الى والدتي عبر الهاتف، اتصلت بلؤي الذي بادرني بالقول: «أهلاً وسهلاً بك في منزلك أيها الأمير الأخضر. لقد افتقدناك كثيراً جداً. كثير من الأمور جرت في غيابك، ولم نعلم كيف نتصرف من دونك».

بعد أيام قليلة على عودتي، التقيت بلؤي وعدد من الأصدقاء الاسرائيليين. لم يكن لديهم سوى خبر واحد يزفونه لي، لكنه كان خبراً فائق الأهمية. لقد تم اعتقال عبدالله البرغوتي.

تم تحديد مكان البرغوتي وتوقيفه في شهر آذار. وفي العام التالي، أجريت محاكمة لصانع القنابل الكويتي الولادة هذا، في محكمة عسكرية اسرائيلية، بتهمة قتل ستة وستين شخصاً، وجرح حوالي خمسمئة آخرين. كنت أعلم أن الضحايا أكثر بكثير من ذلك العدد، الا أن ما أعلن كان العدد الذي تم تثبيته بالبراهين والأدلة. صدر الحكم ضد البرغوتي بالسجن سبعة وستين مؤبداً، أي بنسبة مؤبد واحد عن كل ضحية سَفك دمها، بالاضافة الى مؤبد عن كل الذين أصابهم بجراح. وعلى رغم هذا الحكم، لم يُظهر أي شعور بالندم، بل وضع الملامة على اسرائيل، وقال انه نادم على أمر وحيد فقط، هو أنه لم يحظ بالفرصة لقتل المزيد من اليهود.

وبعد المحاكمة، قال القاضي: «ان غزارة الجرائم الارهابية التي قام بها المتهم، هي من أسوأ مراحل التاريخ المُغمس بالدم لهذه البلاد». هذه الكلمات أغضبت البرغوتي جداً، فهدد بقتل القضاة، وبتعليم كل سجين من حماس كيفية صنع القنابل. وفي الختام، كان عليه أن يُنفذ فترة سجنه في الحبس الانفرادي. أما ابراهيم حامد، وصديقي صالح تلحمي والآخرون، فكانوا لا يزالون متوارين عن الأنظار.

في شهر تشرين الأول، انتهى المشروع الذي كانت تقوم به الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، وانتهت معه وظيفتي التي كنت أقوم بها. فتفرّغت لعملي مع الشين بيت، لتجميع ما أمكنني من المعلومات الاستخبارية.

بعد شهرين، اتصل بي لؤي في صبيحة أحد الأيام ليقول لي: «وجدنا صالح».

الفصل الخامس والعشرون

صالح

شتاء ٢٠٠٣ ـ ربيع ٢٠٠٦

كان من السهلٍ معرفة ماذا يفعل صالح ورفاقه. فالدم الذي تركوه خلفهم لا يدع مجالاً للشك بكونه من صنعهم. ولكن حتى الآن، لم يكن أحد قادراً على الوصول اليهم.

قلبي كان مكسوراً. فصالح صديقي، وقد ساعدني كثيراً في أثناء دراستي. كما أنني شاركته وزوجته الخبز، ولعبت مع أطفاله الصغار. لكنه في الوقت نفسه كان ارهابياً. فخلال فترة اعتقاله من قبل السلطة الفلسطينية، أكمل دراسته من خلال جامعة القدس المفتوحة، ووضع ما تعلمه عن صنع القنابل موضع التطبيق، فكان قادراً على صنع المتفجرات من القمامة.

بعد اطلاق سراحه، وضعت الشين بيت صالح تحت المراقبة، لترى كم من الوقت سيلزمه ورفاقه لاعادة بناء كتائب القسام. الا أن المهمة لم تستغرقه طويلاً. ومع أن المنظمة التي أعاد بناءها كانت صغيرة، لكنها كانت فتاكة جداً.

كان ماهر عودة العقل المدبّر للعمليات، وصالح هو المهندس، فيما كانت مهمة بلال البرغوتي تجنيد الانتحاريين. في الحقيقة، تألف الجناح العسكري لحماس من

حوالي عشرة أشخاص، كانوا يعملون باستقلالية تامة، ولهم ميزانيتهم الخاصة، ولم يكونوا يجتمعون سوية الا في حال الضرورة القصوى. وكان بامكان صالح اعداد مجموعة من الأحزمة الناسفة في ليلة واحدة، بينما كان بلال يملك لائحة انتظار بالمرشحين للاستشهاد.

لو كان لدي أدنى يقين بأن صالح كان بريئاً، لكنت حذرته مما سيحصل. ولكننا حين جمعنا أخيراً كل الأدلة، تبيّن لي أنه كان وراء متفجرة الجامعة العبرية والعديد غيرها، وفهمت أن من اللازم وضعه خلف قضبان السجن. الشيء الوحيد الذي كان بامكاني فعله هو تعريفه على تعاليم يسوع، وحثه على طاعتها كما فعلت أنا. لكنني كنت أعلم أن عينيه قد أعماهما الغضب والغيرة والالتزام، وقد صمّ أذنيه عن الاستماع، حتى لصديق قديم. ومع ذلك، كان بامكاني استعطاف الشين بيت لكي تعتقل صالح والآخرين بدل قتلهم. وقد وافقوا على ذلك مُكرهين.

كان رجال الأمن الاسرائيليون يرصدون صالح لأكثر من شهرين. وقد راقبوه يغادر شقته ليجتمع مع حسنين رمانة في منزل مهجور، ثم يعود الى الشقة ليبقى فيها مدة أسبوع أو أكثر. كما لاحظوا خروج صديقه سيّد الشيخ قاسم بوتيرة أكبر، بحيث كان ينفذ ما عليه القيام به، ويعود حالاً الى المنزل. أساليب الحذر والحيطة التي كانوا يتبعونها، كانت مدعاة للدهشة. فلا عجب أننا أمضينا كل ذلك الوقت الطويل لاكتشاف أمرهم. وبمجرد أن التقطنا رائحتهم، لم يعد أمامنا الا تتبّع اتصالاتهم واتصالات شركائهم، الذين كانوا ما بين اربعين الى خمسين شخصاً.

كنا نعرف مكان وجود ثلاثة من هؤلاء الذين كانوا على قائمة أكثر المطلوبين من قبل اسرائيل. أما في شأن ابراهيم حامد وماهر عودة، فكل ما كان لدينا مجرد قرائن، ولا شيء قاطعاً. فكان علينا تقرير ما اذا كان يجب الانتظار كي نحصل على أدلة قاطعة، على رغم انه احتمال بعيد، أو أن نقصم ظهر كتائب القسام في الضفة ا لغربية، من خلال توقيف اولئك الذين باتت اماكن وجودهم معروفة لدينا. فاعتمدنا القرار الأخير، على أمل أن يحالفنا الحظ، فنتمكن من ايقاع حامد أو عودة في شباكنا.

في ليلة الثاني من شهر كانون الأول العام ٢٠٠٣، ضربت قوات خاصة حصاراً حول أكثر من خمسين موقعاً مُشتبهاً به في نفس الوقت، حيث تم استدعاء كل

الجنود المتمركزين في الضفة الغربية للمشاركة في العملية. كان زعماء حماس متحصنين في مبنى الكسواني في رام الله، ولم يتجاوبوا مع الدعوات التي وجهت اليهم للاستسلام. وكان لدى صالح وسيّد مدفع رشاش ثقيل، وكان سيد هو الذي قام بأطلاق الرصاص.

بدأت المواجهة عند العاشرة مساءً، وتواصلت خلال الليل. وعندما بدأ اطلاق النار، كان بامكاني سماعه من منزلي. ثم ما لبث أن دوّى انفجار عند الصباح، نتج عن اطلاق قذيفة من دبابة ميركافا، قبل أن يسود هدوء تام. عند السادسة صباحاً رن جرس هاتفي.

«صديقك قضى نحبه. أنا آسف. أنت تعلم أننا كنا نريد الحفاظ عليه لو أمكن. ولكن دعني أخبرك شيئاً. لو أن هذا الرجل...». ثم تهدّج صوت لؤي قبل أن يتابع: «لو أن هذا الرجل نشأ في بيئة مختلفة، لكان انساناً آخر. ولكان مثلنا تماماً. كان يظن، لا بل كان يؤمن حقاً بأنه يفعل شيئاً حسناً لشعبه. لكنه كان مخطئاً جداً».

كان لؤي يعلم كم كنت أحب صالح، ولا أريده أن يموت، وأن صالح كان يقاوم شيئاً يظن أنه شر ومؤذ لشعبه. وربما، كان لؤي بطريقة أو بأخرى، يهتم لأمر صالح مثلي تماماً.

«هل قتلوا جميعاً؟».

«لم أر الجثث بعد. لقد تم نقلهم الى مستشفى رام الله. نريدك الذهاب الى هناك للتعرف عليهم. أنت الوحيد الذي تعرفهم كلهم».

تناولت معطفي وتوجهت الى المستشفى، ولدي أمل ضئيل بأن لا يكون صالح هو الذي قتل، بل شخص آخر غيره. عندما وصلت، كانت الفوضى تعمّ المكان. وكان نشطاء حماس الغاضبون يصيحون ويهتفون في الشارع، فيما انتشر رجال الشرطة في كل مكان. لم يُسمح لأحد بالدخول الى المستشفى. ولكن بما أن الجميع يعرفون مَن أنا، سَمح لي المسؤولون بالدخول، وقادني واحد من الفريق الطبي الى غرفة مليئة بالبرادات. واذ فتح باب احدى الثلاجات، وسَحب ببطء أحد الأدراج، فاحت رائحة الموت في الغرفة.

نظرت الى الأسفل، فرأيت وجه صالح. كان يبدو وكأنه يبتسم. لكن رأسه كان مجوّفاً. الدُرج الذي وُضع فيه سيّد، كان يحتوي على مجموعة منفصلة من

الأعضاء البشرية، قطع أرجل، رأس، وأشياء أخرى، جُمعت في كيس بلاستيكي أسود. حسنين رمانة كان مقطوعاً نصفين. لم أكن متأكداً أنه هو، لأن الوجه كان حليقاً، وهو كان على الدوام يرخي لحية بنية ناعمة. وعلى رغم التقارير الاخبارية التي أكدت الخبر، لم يكن ابراهيم حامد من ضمن المجموعة. فهو أصدر الأوامر للرجال بالقتال حتى الموت، ثم تركهم وهرب لينجو بنفسه.

بمقتل عدد من قادة حماس في الضفة الغربية، واحتجاز البعض الآخر في السجون، أصبحت أنا صلة الوصل مع قادة الحركة في غزة ودمشق. وبطريقة ما، صرت حلقة الوصل الرئيسية لكامل شبكة الاتصالات الفلسطينية من أحزاب وفصائل ومنظمات وخلايا، بما فيها الخلايا الارهابية. ولم يكن أحد يعرف من أنا على حقيقتي، سوى حفنة قليلة من نخبة الشين بيت. كان مجرد التفكير بهذا الأمر يدعو الى الذهول.

نظراً للدور الجديد الذي بدأت أضطلع به، كان أمراً محزناً أن أقوم أنا نفسي بتنظيم الجنازات لصالح والآخرين. واذ فعلت هذا، كنت أراقب كل حركة وأستمع الى كل همسة غضب أو حزن، يمكن أن تقودنا الى حامد.

قال لؤي: «طالما أن الشائعات تنتشر في كل مكان، وأنت تحل محل القادة الذين اعتقلناهم، دعنا نطلق شائعة تقول ان ابراهيم حامد عقد صفقة مع الشين بيت. معظم الفلسطينيين لا فكرة لديهم عما يجري. فسيصدقونها، وسيضطر حامد للدفاع عن نفسه علناً، أو على الأقل سيجري اتصالاً بالقادة في غزة أو دمشق. وفي الحالتين، ربما يشكل هذا طرف خيط يقودنا اليه».

كانت فكرة عظيمة. ولكن كبار ضباط الوكالة رفضوا تبنيها، خشية أن يعمد ابراهيم الى شن هجوم انتقامي ضد المدنيين، وكأن مقتل أصدقائه واعتقال نصف عناصر منظمته، لم يثيرا غضبه بما يكفي.

فاعتمدنا الطريق الأصعب.

تنصّت عناصر الشين بيت على كل غرفة في منزل حامد، أملاً بأن يَزلّ لسان امرأته أو أولاده بكلمة يُمكن أن ترشد الى مكان وجوده. فتبيّن لنا أن هذا المنزل هو الأكثر هدوءاً في كل فلسطين. سمعنا مرة طفله الصغير علي يسأل والدته: «أين هو أبي؟». فأجابته موبّخة: «نحن لا نتحدث بهذا الأمر نهائياً».

اذا كانت عائلة حامد حريصة بهذا المقدار، فكم كان حرصه هو بالذات على

نفسه؟ ومرت شهور عدة دون أن نتمكن من العثور له على أثر.

في أواخر شهر تشرين الأول عام ٢٠٠٤، أصيب ياسر عرفات بوعكة خلال أحد الاجتماعات، فقال المحيطون به انه يعاني من الانفلونزا. ولكن حالته الصحية تدهورت بشكل ملحوظ، فتم نقله جواً من الضفة الغربية الى مستشفى يقع في احدى ضواحي العاصمة الفرنسية باريس. ثم ما لبث أن دخل في غيبوبة، في الثالث من تشرين الثاني. وفيما قال بعضهم انه تعرض للتسميم، قال آخرون انه يعاني من مرض فقدان المناعة المكتسبة الايدز. وفي الحادي عشر من تشرين الثاني، توفي عرفات عن خمسة وسبعين عاماً.

بعد أسبوع أو أكثر بقليل، تم اطلاق سراح والدي من السجن، فشكل هذا الأمر مفاجأة له أكثر من الجميع. في ذلك الصباح، عقد لؤي وضباط آخرون من الشين بيت اجتماعاً مع والدي، وقالوا له: «شيخ حسن، انه الوقت لاحلال السلام. الناس في الخارج يريدون شخصاً مثلك. عرفات رحل، وأشخاص كثيرون يُقتلون. أنت رجل موضوعي. فيجب علينا القيام بشيء ما قبل أن تتفاقم الأمور».

فأجاب والدي: «انسحبوا من الضفة الغربية، وامنحونا دولة مستقلة، وسينتهي كل شيء».

كان الطرفان يعلمان بالطبع أن حماس لن تكتفي الا باسترجاع كامل اسرائيل، وأن قيام دولة فلسطينية مستقلة ربما يجلب السلام لعقد من الزمان أو عقدين على الأكثر.

انتظرت خروج والدي مع مئات الصحافيين من حول العالم، الذين تجمعوا خارج أسوار سجن أوفير لتغطية الحدث. وعندما أطلّ، كان يحمل متعلقاته في كيس قمامة أسود، وهو يحدّق في نور الشمس الساطع، بينما كان جنديان اسرائيليان يقودانه الى الباب الخارجي.

بعد المعانقة وتبادل القبلات، طلب مني أن آخذه مباشرة الى قبر ياسر عرفات، قبل التوجّه الى المنزل. فهمت من نظرات عينيه أن ما يريد القيام به خطوة شديدة الأهمية بالنسبة له. فمع رحيل عرفات، ضعفت منظمة فتح، وكان الشارع في حالة غليان. وقد خشي زعماء فتح من سيطرة حماس على الوضع، واشعال فتيل

حرب عصابات. كما أن الولايات المتحدة واسرائيل والمجتمع الدولي كانوا خائفين من وقوع حرب أهلية. فهذه اللفتة من والدي، الذي هو القائد الأعلى لحماس في الضفة الغربية، شكلت صدمة للجميع، بحيث أنهم فهموا المعاني التي احتوتها الرسالة: «اهدأوا جميعكم. فحماس لن تستغل موت عرفات. ولن تكون هناك حرب أهلية».

في الواقع، بعد عقد من الاعتقالات والسجن والاغتيالات، لم تتوصّل الشين بيت الى معرفة مَن هو صاحب السلطة الحقيقية في حماس. ولم يكن أحد منا يعلم أيضاً. لقد ساعدتهم باعتقال ناشطين معروفين، ورجال متورطين جداً في حركة المقاومة، على أمل أن يكون المسؤول الأعلى لحماس واحداً منهم. وقد وضعنا أشخاصاً تحت الحجز الاداري لسنوات، ومرات كثيرة لاشتباهنا بهم فقط، ولكن لم يَبدُ على حماس أنها لاحظت غيابهم.

فمَن كان زعيم حماس حقاً؟

حقيقة أن والدي لم يكن هو زعيم حماس كانت مفاجئة للجميع، ولي أنا أيضاً. لقد تنصّتنا عليه في مكتبه وسيارته، ورصدنا كل حركة قام بها، وتوصّلنا الى قناعة لا يعتريها الشك بأنه لم يكن هو من يحرك الأحداث.

كانت حماس كأنها منظمة شبح. فلم يكن لديها مكاتب مركزية أو فرعية، ولا مكان محدد يمكن للناس فيه التخاطب مع ممثلي الحركة. كثير من الفلسطينيين كانوا يقصدون مكتب والدي لعرض مشاكلهم، وطلب المساعدة منه، وخاصة عائلات السجناء والشهداء التي فقدت أزواجاً وآباء خلال الانتفاضتين. وكانت الأمور مبهمة حتى على الشيخ حسن يوسف. فالجميع كانوا يظنون أنه يملك الحلول، الا أنه لم يكن يختلف عن أي واحد منا: كل ما كان لديه هو أسئلة.

قال لي مرة انه يفكر باغلاق مكتبه. فسألته: «لماذا؟ أين ستستقبل وسائل الاعلام؟».

«لا يهمّني. فالناس يأتون من كل مكان، آملين أن أمدّ لهم يد المساعدة. ولكن من المستحيل عليّ تأمين المعونة لكل من يحتاجها. ببساطة، هذا الأمر فوق طاقتي».

«لماذا لا تقوم حماس بمساعدتهم؟ فهذه عائلات أعضاء الحركة. حماس لديها الكثير من المال».

« نعم، ولكن المنظمة لا تعطيني شيئاً منه » .
« اذن، اطلب منهم . أخبرهم عن الحاجة التي يعاني منها الناس » .
« أنا لا أعلم من هم، أو كيف يمكنني الوصول اليهم » .
فقلت محتجاً : « ولكنك أنت الزعيم » .
« أنا لست الزعيم » .
« أنت أسّست حماس يا والدي . ان لم تكن أنت القائد، فمن هو اذاً؟ » .
« ما من أحد هو الزعيم » .

هذه الاجابة صدمتني . وحتى عناصر الشين بيت الذين كانوا يسجّلون كل كلمة نقولها، صُدموا كذلك .

في أحد الأيام، تلقيت اتصالاً من ماجدة تلحمي، زوجة صالح . وكنت قد انقطعت عن التحدث اليها منذ تمّ دفن زوجها .

« مرحبا . كيف حالك؟ كيف حال مصعب وباقي الأولاد؟ » .
فأجهشت بالبكاء قبل أن تجيب : « ليس لدي المال لاطعام الأطفال » .
فافتكرت في نفسي قائلاً : « سامحك الله يا صالح على ما فعلت لعائلتك » .
« حسناً، أختي، اهدئي . وسأرى ماذا يمكنني أن أفعل » .

ذهبت الى والدي وقلت له : « زوجة صالح اتصلت للتو، وهي لا تملك المال لشراء الطعام لأطفالها » .

« بكل أسى، مصعب، هي ليست الوحيدة » .
« نعم، ولكن صالح كان صديقاً حميماً لي . يجب علينا القيام بشيء فوراً » .
« لقد قلت لك يا بنيّ أنني لا أملك شيئاً من المال » .

« حسناً، ولكن يوجد مَن هو في سُدة المسؤولية . شخص ما يملك الكثير من المال . هذا ليس عدلاً . فهذا الرجل قضى نحبه من أجل الحركة » .

وعدني والدي بعمل ما يستطيع . فكتب رسالة، من نوع « الى من يهمّه الأمر »، وأرسلها الى مكان ما . لم يكن بمقدورنا تتبّع وجهة سيرها، ولكننا علمنا أن مَن أرسلت اليه كان في منطقة رام الله .

قبل عدة أشهر، أرسلتني الشين بيت الى مقهى للانترنت في وسط المدينة، لعلمها بأن شخصاً ما يستخدم جهاز كومبيوتر في ذلك المكان، وهو على صلة بقادة حماس في دمشق . لم نكن نعلم أين يوجد هؤلاء القادة، ولكننا لم نشك

ابداً بأن سوريا تشكل محوراً لقوة حماس. فقد كان منطقياً أن تحافظ الحركة على تنظيم كامل يضم مكتباً وأسلحة ومعسكرات، بعيداً عن المطرقة الاسرائيلية. قال لؤي: «لا نعلم مَن هو الذي يتواصل مع دمشق. ولكنه يبدو خطيراً».

عندما دخلت المقهى، وجدت عشرين شخصاً يجلسون أمام أجهزة كومبيوتر. لم يكن أحد منهم ملتحياً. ولم يكن لأحد منظر يدعو الى الشك والريبة. لكن واحداً منهم شدّ انتباهي، دون أن أدري لماذا. لم أكن على معرفة به، الا أنني أبقيته تحت المراقبة بشكل غريزي. كنت أعلم أنه لا يمكننا البناء على المشاعر، ولكن على مرّ السنين، تعلمت الشين بيت وضع ثقتها بالحدس عندما ينتابني تجاه شخص ما.

كنا على اقتناع بأن هذا الرجل في مقهى الانترنت، كائناً مَن كان، هو على الأرجح شخص خطير. فوحدهم الأشخاص الموثوقون بدرجة عالية يمكنهم التواصل مع قادة حماس في دمشق. وكنا نأمل بأن يرشدنا لمعرفة مَن هو القائد المراوغ المتخفي الرفيع المستوى الذي يدير حماس. فعمّمنا صورته على جميع الأجهزة الأمنية، الا أن أحداً لم يتعرّف عليه. فبدأت أشكك في صحة حدسي.

بعد أسابيع، عرضتُ أحد المنازل التي أملكها في رام الله للبيع. فحضر عدد من الأشخاص، الا أنهم لم يقدّموا لي عرضاً للشراء. وعندما أغلقت المنزل في وقت متأخر بعد ظهر ذلك اليوم، تلقيت اتصالاً من رجل يسألني اذا كانت رؤية المنزل لا تزال متاحة. ومع أنني كنت مرهقاً، فقد طلبت منه أن يلاقيني فيه. وعدت الى المنزل قبل أن يصل هو بدقائق معدودة.

كان الرجل هو نفسه الذي رأيته في مقهى الانترنت. فعرّفني على نفسه بأنه «عزيز كايد». كان حليق الذقن، نظيفاً، وأوحى منظره بأنه رجل محترم جداً. وأمكنني ملاحظة أنه مثقف، قبل أن يعرّفني على نفسه بأنه مدير مركز البراق للدراسات الاسلامية. وفيما لم تبدُ عليه ملامح الشخص المطلوب الذي نبحث عنه، قررت الاحتفاظ لنفسي بهذا الاكتشاف، لئلا أزيد الشين بيت تشويشاً فوق تشويش.

بعد لقائي بكايد، قررت ووالدي القيام بزيارات للمدن والقرى ومخيمات اللاجئين في الضفة الغربية. في احدى البلدات، تجمع أكثر من خمسين ألفاً لرؤيته، حيث أراد الجميع لمسه والاستماع الى ما سيقوله. فهو كان لا يزال محبوباً

جداً من قبل شعبه.

وفي نابلس، التي تعتبر معقلاً لحماس، اجتمعنا مع كبار قادة المنظمة، ولاحظت مَن كانوا بينهم أعضاء في مجلس الشورى، وهو مجموعة تضم سبعة رجال، يتخذون القرارات في شأن القضايا الاستراتيجية والأنشطة اليومية للحركة. فهؤلاء الشيوخ كانوا من قادة حماس، لكنهم كمثل والدي، لم يكونوا من القادة التنفيذيين الذين نبحث عنهم.

بعد كل هذه السنين، لم أصدّق أن السيطرة على حماس تسللت بكيفية ما وفي مكان ما، لتنتهي بأيدي أشخاص مجهولين. فاذا كنت أنا، الذي ولدت وترعرعت في قلب الحركة، أجهل تماماً مَن هو الذي يتولى زمام الأمور فيها، فمن يعرف أذن؟

الاجابة على هذا التساؤل جاءتني من حيث لا أدري. فقد أتى أحد أعضاء مجلس الشورى في نابلس على ذكر اسم عزيز كايد، وهو يقترح على والدي زيارة مركز البراق والاجتماع بهذا «الرجل الطيب». فأصخت السمع، وتساءلت، لماذا يقدم مسؤول محلي في حماس مثل هذه المشورة؟ فقد كان هناك عدد كبير من المصادفات: أولاً: لفت عزيز انتباهي في مقهى الانترنت، ثم ظهر في منزلي المعروض للبيع، والآن، عضو مجلس الشورى يقترح على والدي الاجتماع به. هل هذا علامة على أن حدسي كان صحيحاً، وأن عزيز كايد هو شخص مهم في منظمة حماس؟

هل يُعقل أن الحظ حالفنا فوجدنا الشخص المسؤول؟ على رغم صعوبة تصديق هذا التحليل، فان شيئاً ما في داخلي حرّكني لمتابعة احساسي الغريزي في الأمر. فأسرعت عائداً الى رام الله، واتصلت بلؤي طالباً منه اجراء بحث في الانترنت عن عزيز كايد.

أظهرت الشاشة عدداً من الأشخاص يحملون نفس الاسم، لكن أحداً منهم لم تنطبق عليه المواصفات الموجودة لدينا. فعقدنا اجتماعاً طارئاً، وطالبت لؤي بتوسيع نطاق البحث عن كايد ليشمل الضفة الغربية بأكملها. ظن الجميع بأنني معتوه، ولكنهم استجابوا لرغبتي.

هذه المرة، عثرنا عليه.

وُلد عزيز كايد في نابلس، وهو عضو سابق في حركة الطلاب المسلمين، توقف

عن ممارسة نشاطاته فيها منذ عشر سنوات. كان متزوّجاً ولديه عدد من الأولاد، ويملك حرية السفر الى خارج البلاد، وكان أكثر أصدقائه من العلمانيين. فلم يكن في هذه المعلومات ما يدعو الى الشك بشخصيته.

أخبرت الشين بيت عن كل ما حصل، منذ لحظة دخولي عتبة مقهى الانترنت، حتى زيارة نابلس مع والدي. فأكدوا لي أنهم يثقون بي تماماً، ولكن بكل بساطة، ليس لديهم ما يجعلهم يتحركون باتجاه ما.

وفيما نحن نتحدث، خطر ببالي شيء آخر.

قلت للؤي: «كايد يذكرني بثلاثة أشخاص آخرين. صلاح حسين من رام الله، أديب زيادة من القدس، وناجح ماضي من سلفيت. هؤلاء الثلاثة يحملون شهادات جامعية، وكانوا في وقت ما ناشطين جداً في حماس. ولكن لسبب مجهول، اختفوا فجأة عن المسرح، منذ حوالي عشر سنوات. والآن، هم يعيشون حياة عادية جداً، ولا يتعاطون السياسة على الاطلاق. وكنت دائماً أتساءل، كيف لأشخاص يتعاطفون الى هذه الدرجة مع الحركة، أن ينسحبوا منها بهذا الشكل؟».

وافقني لؤي على أن تحليلي هذا يمكن أن يقود الى شيء ما. واذ بدأنا بدراسة تحركات كل واحد منهم، وجدت أن الثلاثة على تواصل في ما بينهم، ومع عزيز كايد، حيث أنهم كان يعملون معاً في مركز البراق. لقد كان هذا أكثر من مجرد صدفة.

هل يمكن أن هؤلاء الأربعة الذين لا يمكن الظن بهم، هم محركو الدمى الحقيقيون الذين يقودون حماس، ويسيطرون على الجناح العسكري فيها؟ هل يُعقل أن هؤلاء كانوا يحلقون بعيداً عن دائرة اهتمامنا، في الوقت الذي كنا نستهدف الأشخاص البارزين؟ فتابعنا عمليات البحث بعمق أكثر، والرصد والانتظار، الى أن أثمر صبرنا أخيراً، بحصولنا على معلومات استخبارية هائلة.

فهؤلاء القتلة الثلاثينيون كانوا يسيطرون على المال، ويديرون حركة حماس بأكملها في الضفة الغربية. وقد جلبوا ملايين الدولارات من الخارج، وأنفقوها على شراء أسلحة وصنع متفجرات وتجنيد متطوعين ودعم الفارّين وتقديم الدعم اللوجستي. كل هذا، تحت غطاء واحدة من مراكز البحوث العديدة وغير المستهدفة في فلسطين.

لم يكن أحد يعرفهم. ولم يظهروا على شاشات التلفزيون. كانوا يتواصلون مع بعضهم البعض من خلال رسائل توضع في أماكن معينة. ولم يكونوا يثقون بأحد، كبرهان على حقيقة أن والدي أيضاً لم يكن لديه أية فكرة عن وجودهم.

في أحد الأيام، تعقبنا ناجح ماضي من شقته حتى مرآب تجاري على بُعد مبنى من المكان. فسار باتجاه أحد الأبواب الجرارة ورفعه. ماذا كان يفعل هناك؟ ولماذا يستأجر مرآباً بعيداً عن منزله؟ هذا ما حاولنا فك رموزه. وعلى مدى الأسبوعين التاليين، لم نغفل عن مراقبة هذا المرآب اللعين، الا أن أحداً لم يعد يأتي اليه. وأخيراً، ارتفع الباب الجرار من الداخل، وخرج ابراهيم حامد في نور الشمس.

انتظر عناصر الشين بيت دخول حامد الى المرآب من جديد، قبل أن يُغيروا على المكان ويقوموا باعتقاله. وعندما حوصر من قبل القوات الخاصة، فانه لم يقاتل حتى الموت، كما أمر صالح والآخرين أن يفعلوا.

«اخلع ثيابك واخرج».

لا جواب.

«لديك عشر دقائق. ثم سنهدم البناء عليك».

بعد دقيقتين، خرج قائد الجناح العسكري لحماس في الضفة الغربية من الباب، وهو في ثيابه الداخلية.

«اخلع كل ثيابك».

تردّد قليلاً، ثم خلع ثيابه، ووقف أمام الجنود عارياً.

كان ابراهيم حامد مسؤولاً عن عمليات قتل أكثر من ثمانين شخصاً، يمكن تقديم الأدلة والبراهين عليها. ما شعرت به عندها لا يمكن أن يوحي به المسيح. فلو ترك الأمر لي، لكنت قررت ارجاعه الى ذلك المرآب القذر، والاغلاق عليه مدى الحياة، لتوفير كلفة محاكمته على الدولة.

عملية أسر حامد واماطة اللثام عن القادة الحقيقيين لحماس، كانت العملية الأهم التي أقوم بها لصالح الشين بيت. كما كانت الأخيرة أيضاً.

الفصل السادس والعشرون

رؤيا لحماس

٢٠٠٥-٢٠٠٦

خلال فترة سجنه الأخيرة، اختبر والدي نوعاً من الالهام. فهو كان على الدوام منفتح العقل. فجالس وتحادث مع المسيحيين وغير المتدينين وحتى مع اليهود. وكان يصغي بانتباه شديد الى الصحافيين والخبراء والمحللين، وشارك الطلاب بسماع محاضرات في الجامعات. وكان يستمع لي أنا، مساعده ومستشاره والمحامي عنه. وفي النتيجة، كانت لديه رؤية أوضح وأوسع أفقاً مما كان لقادة حماس الآخرين.

رأى والدي أن اسرائيل حقيقة ثابتة، ولاحظ أن العديد من أهداف حماس كانت بعيدة عن المنطق، وغير قابلة للتحقيق. فسعى الى ايجاد أرضية مشتركة ترضي الطرفين، مع حفظ ماء الوجه. وفي أول خطاب علنيّ له بعد اطلاق سراحه، اقترح امكانية ما بات يعرف بحل الدولتين لانهاء الصراع القائم بين اسرائيل والفلسطينيين. لم يتحدث أحد في حماس من قبل بكلام مماثل. فأقرب ما توصل اليه الطرفان هو اعلان هدنة بينهما. لكن والدي كان يدرك في الواقع حق اسرائيل في الوجود. لذا، لم يتوقف هاتفه عن الرنين.

اتصل بنا ديبلوماسيون من كل الدول، بما فيها الولايات المتحدة، لطلب عقد اجتماعات سرية معه، لأنهم كانوا يريدون التأكد بأنفسهم أنه جاد في ما يدعو اليه. فكنت له مُترجماً، ولم أفارقه أبداً. وأصدقائي المسيحيون آزروه دون قيد أو شرط، وهو أحبهم لأجل ذلك.

لم يكن مستغرباً أن يواجه والدي مشكلة بسبب موقفه المستجد. فبينما هو يتحدث باسم حماس، كان بالتأكيد لا يعبّر عما يجول في خاطر حماس. مع ذلك، فقد كانت تلك الفترة من أسوأ الفترات التي يمكن فيها أن ينفصل عن المنظمة. فموت ياسر عرفات خلق فراغاً كبيراً، وترك الشارع في الأراضي المحتلة في حالة غليان. فانتشر المتطرفون من الشباب بأسلحتهم في كل مكان، تملأهم الكراهية، وليس لهم قائد أو زعيم.

لم تكن المسألة في أن من الصعب ايجاد بديل لعرفات. فأي سياسي فاسد يمكنه أن يحل محله. المشكلة كانت بأنه جعل السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية مركزيّتين، ولم يكن، كما يقال، «لاعباً ضمن فريق». فهو حصر كل السلطات والعلاقات بشخصه. وكانت جميع الحسابات المصرفية باسمه وحده.

أصبحت منظمة فتح تعجّ بالطامحين لخلافة عرفات. ولكن مَن منهم سيقبل به الفلسطينيون والمجتمع الدولي، ولديه ما يكفي من القوة للسيطرة على جميع الفصائل؟ فحتى عرفات نفسه لم يتمكن من تحقيق ذلك.

عندما قررت حماس المشاركة في الانتخابات التي جرت خلال الأشهر التالية، لم يكن والدي متحمساً لها أبداً. فبعد انشاء الجناح العسكري للحركة خلال انتفاضة الأقصى، شاهد بنفسه تحول منظمته الى مخلوق صعب المراس وغير متجانس، بحيث كانت تعرج بساق عسكرية بالغة الطول، وساق سياسية قصيرة جداً. فبكل بساطة، لم يكن لدى حماس أية فكرة عن الكيفية التي تتم بها لعبة الحكم.

أن تكون ثورياً، فهذا يتطلب نقاء وصلابة. أما الحكم فيتطلب المرونة والاستعداد لقبول التسويات. فاذا أرادت حماس تولي السلطة، لن يكون التفاوض خياراً أمامها، بل حاجة ملحة. وكمسؤولة منتخبة من قبل الشعب، ستجد نفسها فجأة في موقع المسؤولية عن الميزانية والماء والغذاء والكهرباء وجمع النفايات. وكل

شيء يجب أن يمر عبر اسرائيل. فأي دولة فلسطينية مستقلة يجب أن تكون دولة تعاونية.

تذكر والدي لقاءاته مع قادة الغرب، وكيف أن حماس رفضت كل توصية تم اقتراحها. فهي كانت بالغريزة مغلقة الذهن ومترفضة. ولم تفارق ذهنه فكرة أنه اذا كانت الحركة رفضت التفاوض مع الاميركيين والأوروبيين، فكيف يمكن لها اذا تم انتخابها لتولي السلطة، أن تجلس الى طاولة المفاوضات مع الاسرائيليين؟

لم يعبأ والدي بما اذا كانت حماس ستتقدم بمرشحين للانتخابات. فهو لم يكن يريد الترشح الى جانب قادة بارزين، يحوزون مثله على محبة واعجاب الناس، لأنه كان يخشى في هذه الحال أن تفوز حماس بالانتخابات. وكان يعلم أيضاً أن انتصار الحركة يمكن أن يكون كارثة على الشعب الفلسطيني. وقد أثبتت الأحداث أنه كان على حق.

سمعته مرة يقول لمراسل صحيفة هآرتس: «لدينا مخاوف من أن تقوم اسرائيل، وربما آخرون أيضاً، بفرض عقوبات على الفلسطينيين لأنهم صوتوا لصالح حماس. وسيقولون، بما أنكم قررتم اختيار حماس، سنضيّق الحصار عليكم، وسنجعل حياتكم لا تطاق».

الا أن العديد في حركة حماس اشتموا رائحة المال والنفوذ والمجد. وحتى القادة السابقون الذين تخلوا عن المنظمة، ظهروا فجأة بهدف الاستيلاء على قطعة من الكعكة. وقد اشمأز والدي من جشعهم وعدم التزامهم وجهلهم. وكان بينهم مَن لم يكن ليميّز بين وكالة الاستخبارات الأميركية سي آي اي، والوكالة الأميركية للتنمية الدولية. فمن هو الذي سيعمل معهم؟



كنت محبطاً بسبب كل ما يدور حولي. محبطاً بسبب فساد السلطة الفلسطينية، وبسبب غباء وقساوة حماس، وما كان يبدو أنه سيل لا ينتهي من الارهابيين الذين كان يجب القاء القبض عليهم أو التخلص منهم. وقد سئمت حياة التظاهر على غير حقيقتي، والوجود الدائم في دائرة الخطر الذي أصبح شيئاً روتينياً في حياتي. كنت أرغب بحياة طبيعية.

في أحد أيام شهر آب، كنت أتمشى في شوارع رام الله، عندما رأيت رجلاً

يحمل جهاز كومبيوتر، وهو يصعد درجاً الى محل لتصليح الأجهزة الالكترونية. فخطرت في بالي فكرة القيام بصيانة الكومبيوترات في المنازل، كنسخة فلسطينية عمّا يسمى (غيك سكواد) فرقة العباقرة الأميركية. وبما أنني لم أعد أعمل لحساب الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، وكنت أملك عقلية تجارية جيدة، افتكرت بأن عملاً كهذا يمكن أن يكون مفيداً.

كنت على علاقة صداقة جيدة مع مدير تكنولوجيا المعلومات في الوكالة، الذي كان بارعاً في علوم الكومبيوتر. وعندما أطلعته على فكرتي، صمّمنا على أن نكون شركاء في تنفيذها. فقدمت أنا رأس المال المطلوب، وشارك هو بخبرته التقنية، وعملنا على توظيف عدد اضافي من المهندسين، من بينهم اناث يمكن لهن خدمة النساء كما تتطلب الثقافة العربية.

أطلقنا على المؤسسة اسم « ألكتريك كومبيوتر سيستمز »، وافتكرت بنشر بعض الاعلانات، يَظهر في أحدها رجل صاعد في درج، وهو يحمل جهاز كومبيوتر، وابنه الذي يرافقه يقول له: « بابا، ليس عليك أن تفعل هذا »، ويحثه على الاتصال برقم هاتفنا المجاني.

تدفقت الاتصالات علينا، وأصبنا نجاحاً باهراً بشكل مفاجىء. فاشتريت سيارة فان للشركة، وحصلت على رخصة لبيع منتجات « هيوليت–باكارد »، ووسّعنا نطاق عملنا ليشمل شبكة المعلومات. كنت أعيش حياتي. في هذه المرحلة لم أكن أحتاج الى المال، ولكنني كنت أعمل شيئاً منتنجاً يستهويني.



منذ أن بدأت ملحمتي الروحية، أجريت عدداً من النقاشات المثيرة مع أصدقائي في الشين بيت، عن يسوع وايماني المتنامي به.

فقالوا لي: «آمن بما تشاء، وشاركنا باختباراتك، ولكن لا تطلع أحداً آخر على الموضوع. واياك أن تعتمد، لأن ذلك سيكشف ايمانك على الملأ. فاذا اكتشف أحد أنك صرت مسيحياً، وأدرت ظهرك لديانتك الاسلامية، ستكون في ورطة كبيرة».

لا أظن أنهم كانوا قلقين على مستقبلي كما على مستقبلهم اذا فقدوني. ولكن الله كان يجري تغييرات كثيرة في حياتي، بحيث لم يعد بامكاني الرجوع

الى الوراء.

في أحد الأيام، كان صديقي جمال يُعدّ لي وجبة عشاء.

فقال: «مصعب، عندي لك مفاجأة».

واذ أبرقت عيناه وهو يغيّر قناة التلفزيون، أضاف: «أنظر هذا البرنامج على قناة الحياة. ربما يثير اهتمامك».

تعرفت على قناة الحياة التي كانت أول قناة تعمل على كشف الوجه الحقيقي للإسلام وتوضح للمسلم الزيف الذي يعيش فيه. كان المتحدث في البرنامج يقدم رسالة قوية ولها سلطان، وبدا لي طيّباً ولطيفاً، دافىء الصوت ومُقنعاً في كلامه. فأعجبت به، الى أن لاحظت ما كان يقوله. كان يُشرّح القرآن بطريقة منهجية، كاشفاً ومعرّياً كل عظمة وعضلة وعصب وعضو، واضعاً اياها تحت مجهر الحق، ومبيّناً أن كل تعاليم هذا الكتاب ما هي الا سرطان روحي.

واذ واصلت مشاهدة القناة، رأيتها تكشف عن مغالطات واقعية وتاريخية وتناقضات موجودة في القرآن. كانت تفعل هذا بدقة، وبأدب جمّ، انما بحزم وبشكل مُقنع تماماً. رغبت، كردة فعل غريزية أولى، بأن أثور ضدّها وأكفّ عن مشاهدة التلفاز. لكن هذا الشعور لم يدم الا ثوان قليلة، قبل ادراكي أن ما أراه هو استجابة من الله لصلواتي. فقد كانت قناة تقطع كل الأوصال الميتة التي تربطني باله الاسلام، وتعميني عن معرفة حقيقة أن يسوع هو ابن الله. فقبل حصول هذا الأمر، لم يكن بامكاني المضي قدماً في تبعيّتي له. فالتحول لم يكن سهلاً على الاطلاق. تخيّل فقط الألم الذي سيعتصرك عندما تستيقظ في يوم من الأيام، لتكتشف أن الرجل الذي تدعوه «أبي»، ليس بالحقيقة والدك.

لا أستطيع أن أحدد اليوم أو الساعة التي «أصبحت فيها مسيحياً»، لانها عملية جرت على مدى ست سنوات. ولكنني كنت أعلم بحاجتي الى المعمودية، مهما كان رأي الشين بيت في هذا الأمر. في ذلك الوقت، وصلت مجموعة من المسيحيين الأميركيين التابعين لكنيسة المسيح الدولية في كاليفورنيا الى اسرائيل، للقيام بجولة في الأرض المقدسة، وزيارة كنيستهم الشقيقة، التي كنت أحضر الاجتماعات فيها.

كان من ضمن هذه المجموعة فتاة تدعى سارة. ومع مرور الأيام، نشأت بيننا صداقة متينة. كنت استمتع بالحديث معها، وقد حازت على ثقتي فوراً. عندما

أطلعتها باختصار على اختباري الروحي، شجعتني كثيراً، وذكرتني بأن الله غالباً ما يستخدم أشخاصاً لتنفيذ غرضه، لم يكن يتوقعهم أحد. وهذا حقاً ما جرى في حياتي.

في احدى الأمسيات، بينما كنا نتناول طعام العشاء في مطعم الجالية الأميركية في القدس الشرقية، سألتني سارة لماذا لم أعتمد بعد. لم يكن بامكاني اطلاعها على أنني عميل للشين بيت، ومتورّط الى ما فوق حاجبيّ بكل نشاط سياسي وأمني في المنطقة. ولكنه كان سؤالاً وجيهاً طالما وجهته لنفسي.

سألتها: «هل يمكنكم تعميدي؟».

فردّت بالايجاب.

«هل يمكنكم الاحتفاظ بهذا الأمر سراً بيننا؟».

فقالت: نعم، وأضافت: «الشاطىء لا يبعد كثيراً من هنا. هيّا بنا نذهب الآن».

«هل أنت جادّة؟».

«بالتأكيد. لما لا».

«حسناً. لما لا».

كنت أشعر بدوار خفيف عندما استقلينا الحافلة الى تل أبيب. هل نسيت من أنا؟ هل أنا أضع ثقتي حقاً بهذه الفتاة من سان دييغو؟ بعد خمس وأربعين دقيقة، كنا نسير على الشاطىء المزدحم، نشرب العصير، ونتنشق هواء المساء الدافىء. لم يعلم أحد من هذا الحشد أن ابن قائد حماس، المجموعة الارهابية المسؤولة عن ذبح واحد وعشرين ولداً في مقهى الدولفين، الذي يقع على مرمى حجر، كان على وشك أن يعتمد كمسيحي.

خلعت قميصي، ونزلنا الى البحر.

يوم الجمعة في الثالث والعشرين من شهر أيلول، حين كنت عائداً بوالدي من أحد مخيمات اللاجئين قرب رام الله، تلقى اتصالاً هاتفياً.

ثم علا صوته قائلاً: «ماذا يجري؟... ماذا؟».

كان في حالة هياج شديد.

عندما أنهى المكالمة، قال ان الذي يتكلم معه هو المتحدث باسم حماس في غزة سامي أبو زهري، وأنه نقل اليه خبر قتل اسرائيل خمسة وعشرين من أعضاء الحركة

للتو، خلال مسيرة في مخيم اللاجئين في جباليا. وأصرّ المتحدث على أنه شاهد بنفسه طائرة تطلق صواريخ باتجاه الحشد. وقال ان الاسرائيليين خرقوا الهدنة.

كان والدي قد عمل بجدّ قبل سبعة أشهر للتفاوض حول هذه الهدنة. ويبدو الآن أن كل جهوده ذهبت هباءً. فهو لم يكن أساساً يثق باسرائيل، وكان غاضباً لسبب تعطشها للدم.

لم أصدق ما قاله أبو زهري. ومع أنني لم أتحدث الى والدي في الأمر، لكنني تنسّمت رائحة خطأ ما في تلك القصة. اتصلت بنا قناة الجزيرة لاجراء مقابلة مع والدي، حال وصولنا الى رام الله. بعد عشرين دقيقة، كنا داخل الاستديوهات.

اتصلت بلؤي بينما كانوا يجهزون الميكروفون لأبي. فأكد لي أن اسرائيل لم تشن أي هجوم. فشحب وجهي. وطلبت من المنتج السماح لي بمشاهدة صور الحادثة. فأخذني الى غرفة التحكم، وشاهدنا الصور مراراً وتكراراً. فكان واضحاً أن التفجير حصل من الأرض وليس من الجو.

في هذه الأثناء، كان الشيخ حسن يوسف قد أصبح على الهواء، يكيل الاتهامات ضد اسرائيل الغادرة، ويهدد بانهاء الهدنة، ويطالب باجراء تحقيق دولي لجلاء ملابسات الاعتداء.

بعد مغادرته الأستديو سألته: «هل تشعر بتحسّن الآن؟».

«ماذا تقصد؟».

«أقصد، بعد تصريحك».

«لماذا لا أشعر بتحسّن؟ أنا لا أصدق أنهم قاموا بمثل هذا العمل».

«جيد، لانهم لم يقوموا به. حماس هي التي فعلت هذا. أبو زهري كذاب. أرجوك أن تأتي معي الى غرفة التحكم لأريك شيئاً». فتبعني والدي الى الغرفة الصغيرة، حيث أعدنا مشاهدة الصور مرات عدة.

«أنظر الى الانفجار. أنظر. الانفجار حصل من تحت الى فوق. ولم ينزل من الجو».

علمنا في ما بعد أنه حين كان مسلحو حماس يستعرضون قوتهم ويتباهون بمعداتهم خلال التظاهرة، انفجر صاروخ محمول على شاحنة صغيرة، ما أدّى الى مقتل خمسة عشر شخصاً وجرح كثيرين.

هذه المعلومات صدمت والدي. ولكن حماس لم تكن الوحيدة التي أخفت

الحقيقة من أجل خدمة مصالحها الذاتية. فعلى الرغم مما كشفته صورها الخاصة، واصلت قناة الجزيرة أيضاً بث الأكاذيب. بعد هذا، انحدرت الأمور نحو الأسوأ. نحو الأسوأ بكثير.

ردّت حماس على الهجوم المزعوم في غزة، بأن أطلقت حوالي أربعين صاروخاً على البلدات الواقعة في جنوب اسرائيل. هذا الهجوم كان الأكبر ضدها منذ أكملت انسحابها من غزة قبل أسبوع. وقد شاهدت مع والدي في المنزل هذه الأخبار، التي شاهدها العالم بأسره أيضاً. وفي اليوم التالي، أطلعني لؤي على أن الحكومة الاسرائيلية قررت أن حماس هي التي قامت بخرق الهدنة.

ونقل تقرير اخباري عن الميجر جنرال يسرائيل زئيف، قائد عمليات الجيش الاسرائيلي، قوله: «لقد تقرّر شن هجوم طويل الأمد ومستمر ضد حماس». وأضاف التقرير أن زئيف ألمح الى: «أن اسرائيل تستعد لاستئناف هجماتها ضد القيادات العليا لحماس». وكانت هذه الحملة قد توقفت بعد التوصل الى اتفاق لوقف اطلاق النار.

قال لؤي: «يجب ادخال والدك الى السجن».

«هل تطلب موافقتي؟».

«لا. فانهم يطالبون به شخصياً. ولا يمكننا فعل شيء حيال ذلك».

استشط غضباً.

«لكن والدي لم يطلق أية صواريخ الليلة الماضية. ولم يأمر باطلاقها. وليس له علاقة بالأمر مطلقاً. كل ما جرى أقدم عليه أولئك المعتوهون في غزة».

في النهاية، شعرت بانهيار قوتي. كنت محطماً، فلم أقوَ على متابعة الكلام. فخرق لؤي الصمت.

«هل تسمعني؟».

فجلست وأجبت: «نعم. هذا ليس عدلاً... ولكنني أتفهّم الموضوع».

فقال بهدوء: «وأنت أيضاً».

«أنا، أيضاً، ماذا؟ السجن؟ انس الأمر. لن أعود اليه. ولا أهتم بالحماية. الموضوع منته لديّ. وأنا كذلك».

فقال هامساً: «أخي، هل تظنني أريد أن يتم اعتقالك. هذا يعود لك. اذا كنت تريد البقاء بعيداً، ابق بعيداً. لكن الأوضاع خطيرة الآن أكثر من أي وقت مضى.

أنت كنت الى جانب والدك خلال العام الماضي أكثر من أي وقت مضى. الجميع يعلمون أنك مرتبط كلياً بحماس. وكثيرون يعتقدون أنك جزء من قيادتها... اذا لم نلق القبض عليك، سيقتلونك خلال أسابيع قليلة».

الفصل السابع والعشرون

الوداع

٢٠٠٥-٢٠٠٧

عندما رآني والدي أبكي، سألني: «ما الذي يجري؟». وفيما لذت بالصمت، اقترح عليّ أن نعدّ معاً العشاء لأمي وأخواتي. علاقتي بوالدي أصبحت متينة عبر السنين، وكان يدرك أنني في بعض المرات أحتاج ببساطة الى أن أعالج بعض الأمور بنفسي.

بينما كنا نعدّ وجبة الطعام، انسحق قلبي لعلمي أن الساعات التي نقضيها معاً هي الأخيرة لفترة طويلة مقبلة. فقرّرت أن لا أدعه يتجرّع كأس الاعتقال وحده.

بعد العشاء، اتصلت بلؤي وقلت له: «حسناً، سأعود الى السجن».

كان يوم الخامس والعشرين من شهر أيلول العام ٢٠٠٥. تسلقت الى بقعتي المفضلة فوق التلال المطلة على رام الله، حيث اعتدت على تمضية وقت في الصلاة وقراءة كتابي المقدس. هذه المرة صليت أكثر، وبكيت أكثر، وسألت الرب أن يجود برحمته عليّ وعلى عائلتي. ولما عدت الى المنزل، جلست وانتظرت. أما والدي فقد ذهب الى فراشه، ومن فيض نعمة الله عليه أنه لم يكن يدرك ما كان على وشك الحدوث. وبعد منتصف الليل بقليل، وصلت قوات الأمن.

تمّ سوقنا الى سجن عوفر، حيث جرى تجميعنا في قاعة كبيرة مع مئات المعتقلين، الذين تمّ القاء القبض عليهم في حملة شملت المدينة كلها. وهذه المرة، كان أخواي أويس ومحمد من بين الذين ألقي القبض عليهم. وأخبرني لؤي سراً، أنهما من المشتبه بهم في قضية قتل. فقد قام واحد من زملائهما في المدرسة، باختطاف وتعذيب وقتل مستوطن اسرائيلي، فيما اعترضت الشين بيت مكالمة أجراها القاتل بأويس، قبل يوم واحد على تنفيذ الجريمة. وفيما أطلق سراح محمد بعد عدة أيام، بقي أويس أربعة أشهر في السجن، قبل ان يتضح تماماً عدم ضلوعه في ارتكاب الجريمة.

عشر ساعات قضيناها في تلك القاعة، ونحن جاثون على ركبنا، وأيدينا مكبلة خلف ظهورنا. وكم شكرت الله بقلبي عندما تقدّم أحدهم وأعطى والدي شيئاً ليجلس عليه، وكذلك عندما رأيتهم يتعاملون معه باحترام.

حُكم عليّ بالاعتقال الاداري لمدة ثلاثة أشهر. واذ أرسل لي أصدقائي المسيحيون كتاباً مقدساً، أمضيت فترة سجني في دراسة الكلمة، وملتزماً بالأعمال الروتينية التي يقوم بها السجناء الآخرون يومياً. وفي يوم عيد ميلاد العام ٢٠٠٥، تم اطلاق سراحي، أما والدي فأبقي في السجن، وكان لا يزال فيه حتى لحظة كتابتي هذه الكلمات.



كانت الانتخابات النيابية على وشك الحصول، وكل مسؤول في حماس يرغب في ترشيح نفسه اليها. كنت أشمئز منهم جميعهم. فقد كانوا أحراراً في التجول حيث يريدون، بينما الرجل الوحيد المؤهل لقيادة شعبه، يقبع خلف شريط السجن الشائك. بعد كل هذه الأحداث التي أدت الى اعتقالنا، لم يكن صعباً على والدي أن يقتنع بعدم المشاركة في الانتخابات. فأرسل لي بياناً يتضمن قراره النهائي، وطلب مني نقله الى محمد دراغمة، المحلل السياسي في وكالة أسوشييتد برس، وصديقه الحميم.

بعد ساعات قليلة، أذاعت نشرات الأخبار القرار، ثم بدأ هاتفي بالرنين. فقد حاول قادة حماس الاتصال بوالدي في السجن، الا أنه رفض التحدث اليهم.

فسألوني: «ما الذي يجري؟ هذه كارثة. سنخسر في الانتخابات، لأنه اذا لم يترشح والدك سيبدو وكأنه يسحب مباركته عن الانتخابات بأكملها».

فأجبتهم: «اذا كان لا يريد المشاركة، فعليكم احترام قراره».

ثم جاءني اتصال من اسماعيل هنية، الذي كان يرأس لوائح حماس، وعما قريب سيصبح رئيس الوزراء الجديد للسلطة الفلسطينية.

«مصعب، كقائد للحركة، أطلب منك تحديد موعد لعقد مؤتمر صحافي، تعلن فيه أن والدك لا يزال على لائحة حماس. قل لهم ان قصة الأسوشييتد برس كانت خطأ».

علاوة على جميع ما قاموا به، يريدونني الآن أن أكذب من أجلهم. هل غاب عن ذهنهم أن الاسلام يحرّم الكذب؟ أو هل يظنون أنه لا بأس بالكذب لان السياسة لا دين لها؟

فأجبته: «لا يمكنني فعل ذلك. أنا أكن لك الاحترام، ولكنني أحترم والدي ونزاهتي أكثر». وأقفلت الخط.

بعد ثلاثين دقيقة، تلقيت تهديداً بالقتل من مجهول يقول: «وجّه الدعوة الى مؤتمر صحافي للحال، والا سنقتلك».

«اذن، تعال واقتلني».

أقفلت الخط واتصلت بلؤي. وفي خلال ساعات، تم اعتقال الشخص الذي قام بتهديدي.

لم أكن حقاً أعبأ بتهديدات القتل. ولكن عندما اكتشف والدي ذلك، اتصل بدراغمة شخصياً، وقال له انه يريد المشاركة في الانتخابات. ثم طلب مني الهدوء، والانتظار حتى خروجه من السجن. وأكد لي أنه سيعالج الموضوع مع حماس.

بطبيعة الحال، لم يكن بمقدور والدي القيام بحملته الانتخابية من السجن. ومن ناحية ثانية، لم يكن مضطراً لذلك. فقد وزّعت حماس صوره في كل مكان، لتشجيع كل الناس ضمنياً للتصويت للوائح الحركة. وفي المساء الذي أعقب يوم الانتخابات، اجتاح الشيخ حسن يوسف البرلمان، حاملاً معه اليه كل الذين على لائحته، كما يُحمل القمل في لبدة الأسد.



بعت حصتي من مؤسسة «ألكتريك كومبيوتر سيستمز» لشريكي، لأنني شعرت بأن أشياء كثيرة في حياتي قد شارفت على نهايتها.

مَن كنت أنا؟ أي مستقبل يمكنني الرجاء به اذا بقيت الأمور سائرة على هذا المنوال؟

كنت في السابعة والعشرين من العمر، ولم يكن بامكاني حتى مواعدة فتاة. ففتاة مسيحية سيعتريها الخوف من سمعتي كابن لزعيم حماس. وفتاة مسلمة لن يستهويها مسيحي عربي. وأية فتاة يهودية تريد مواعدة نجل حسن يوسف؟ حتى ولو قبلت بي احداهن، فما الذي سنتحدث عنه؟ ما الذي أملك الحرية لمشاركة الآخرين فيه عن حياتي؟ وأي نوع من الحياة كانت على كل حال؟ من أجل ماذا أنا ضحيت بكل شيء؟ أمن أجل فلسطين؟ أمن أجل اسرائيل؟ أمن أجل السلام؟

ما الذي أردت اظهاره من كوني الشبح الكبير للشين بيت؟ هل أصبح شعبي في حالة أفضل؟ هل توقف سفك الدم؟ هل صار والدي في المنزل مع عائلته؟ هل أصبحت اسرائيل أكثر أماناً؟ هل كنت المثل الأعلى لاخوتي وأخواتي؟ شعرت أنني ضحيت بحوالي ثلث عمري من أجل لا شيء، «كقبض الريح» كما قال الملك سليمان في سفر الجامعة ٤ : ١٦.

لم يكن بمقدوري حتى مشاركة كل الأشياء التي تعلمتها عندما كنت أعتمر قبعات مختلفة، وأكياساً قماشية. فمن كان سيصدقني؟

اتصلت بلؤي في مكتبه وقلت له: «ليس بامكاني العمل لحسابكم بعد اليوم».

«لماذا، ما الذي حصل؟».

«لا شيء. أحبكم جميعاً. وأحب العمل المخابراتي. وأظن أنني مدمن على هذا العمل. ولكننا لا ننجز شيئاً. نحن نخوض حرباً لا يمكن الفوز بها من خلال الاعتقالات والتحقيقات والاغتيالات. أعداؤنا هم أفكار. والأفكار لا تهتم للغزو وحظر التجول. لا يمكننا تفجير فكرة بمدفعية ميركافا. فأنتم لستم المشكلة. ولا نحن المشكلة. فجميعنا مثل الفئران المحاصرة في متاهة. ليس بامكاني القيام بهذا العمل بعد اليوم. فدوامي قد انتهى».

كنت أعلم أن هذا سيكون ضربة قاسية للشين بيت. فقد كنا في خضمّ حرب.

فقال لؤي: «حسناً، سأبلغ قيادة الوكالة هذا الأمر، وسنرى ماذا سيقولون».

وعندما التقينا مرة أخرى قال: «هذا هو عرض القيادة. لدى اسرائيل شركة اتصالات كبرى. سنعطيك كل المبلغ الذي تحتاج للبدء بشركة مثلها في الأراضي الفلسطينية. هذه فرصة عظيمة ستجعل مستقبلك آمناً لمدى الحياة».

«أنت لا تفهمني. ليس المال هو مشكلتي. مشكلتي أنني فاقد الأمل».

«الناس هنا يحتاجون اليك، مصعب».

«سأجد طريقة أخرى لمساعدتهم، ولكن ليس على هذا النحو. فحتى وكالة الاستخبارات لا تدري الى أين المصير».

«اذاً، ماذا تريد؟».

«أريد مغادرة البلاد».

نقل لؤي هذه المحادثة الى رؤسائه. وبعد أخذ وردّ، أصرّت القيادة على بقائي، وأظهرت أنا اصراراً على المغادرة.

قال لؤي: «حسناً، سندعك تذهب الى أوروبا لعدة أشهر. وربما لسنة، اذا أعطيتنا وعداً بأنك ستعود».

«لن أذهب الى أوروبا. أريد الذهاب الى الولايات المتحدة. لدي هناك أصدقاء. يوجد كنيسة يمكنني الانضمام اليها. ربما أعود بعد سنة أو سنتين أو خمس. لا أدري. فكل ما أعرفه الآن هو أنني أحتاج الى فرصة».

«الولايات المتحدة ستكون صعبة. هنا، لديك المال والمركز والحماية من الجميع. فأنت حققت سمعة طيبة، وأسست عملاً جيداً، وتعيش براحة. هل تعلم كيف ستكون حياتك في الولايات المتحدة؟ ستكون صغيراً جداً وبلا أي تأثير أو نفوذ».

أخبرتهم أنني لا أكترث، حتى لو اضطررت الى غسل الصحون. ولما كنت أزداد اصراراً على موقفي، كانوا يزدادون تعنتاً برأيهم.

فقالوا لي: «لا. ليس الولايات المتحدة. أوروبا فقط، وليس لأكثر من فترة قصيرة. اذهب للاستجمام. سنبقى ندفع لك مرتبك. فقط اذهب واستمتع بحياتك. خذ استراحة وعُد الينا».

أخيراً قلت: «حسناً، أنا ذاهب الى المنزل، ولن أقوم بعملٍ أي شيء لحسابكم بعد اليوم. ولن أغادر المنزل لئلا أكتشف بالصدفة انتحارياً، فاضطرّ لابلاغكم عنه. لا تتعبوا نفسكم بمحاولة الاتصال بي. فأنا لا أعمل لحسابكم الآن».

قصدت منزل والديّ وأقفلت هاتفي الخليوي. واذ نمت لحيتي حتى صارت طويلة وكثة، ساور القلق الشديد والدتي، التي غالباً ما دخلت غرفتي للاطمئنان عليّ، والسؤال عما اذا كنت على ما يرام. ويوماً بعد يوم، كنت أواظب على قراءة كتابي المقدس، والاستماع الى الموسيقى، ومشاهدة التلفزيون، والتفكير بالسنوات

العشر الماضية، ومصارعة حالة الاكتئاب التي داهمتني.

في نهاية ثلاثة أشهر، دخلت والدتي الغرفة وقالت ان شخصاً ما على الهاتف يريد التحدث اليّ. فأجبتها بأنني لا أريد التكلم مع أحد. فقالت ان المتحدث شدد على أن الأمر مُلحّ جداً، وأنه صديق قديم يعرف والدي.

نزلت الى الطبقة الأرضية وأمسكت بالسمّاعة، فكان المتحدث من عناصر الشين بيت.

«نريد أن نراك. الأمر مهم جداً. لدينا أخبار سارة لك».

ذهبت الى الاجتماع.

كان امتناعي عن العمل قد خلق لديهم وضعاً صعباً. وقد لاحظوا اصراري على الاستقالة.

«حسناً، سندعك تذهب الى الولايات المتحدة، ولكن لأشهر عدة فقط. وعليك أن تعطينا وعداً بأنك ستعود».

فقلت بصوت هادىء، ولكنه حازم: «لا أفهم اصراركم على طلب شيء لن تحصلوا عليه».

فقالوا أخيراً: «حسناً، سندعك تذهب بشرطين. الأول، هو أنه عليك أن تعيّن محام، وتتقدم بالتماس منا عبر المحكمة كي نسمح لك بمغادرة البلاد لأسباب طبية، والا سيتم افتضاح أمرك. والثاني، هو أن تعود».

لم تكن الشين بيت تسمح أبداً لأعضاء حماس باجتياز الحدود، الا اذا كانوا بحاجة الى علاج طبي لا يتوافر في الأراضي الفلسطينية. وأنا كنت أعاني فعلاً من مشكلة في فكّي، لم أكن معها قادراً على اطباق أسناني معاً، ولم أتمكن من اجراء عملية جراحية في الضفة الغربية. لم تكن هذه المشكلة تزعجني أبداً، ولكنني رأيت فيها حجة أفضل من غيرها. فكلفت محامياً لارسال تقرير طبي الى المحكمة، طالباً السماح لي بالمغادرة الى الولايات المتحدة لاجراء الجراحة التي أحتاجها.

كل الهدف من هذه العملية كان لتوفير مسار واضح للقضية في المحكمة، واظهار مدى معاناتي مع البيروقراطية التي تحاول منعي من مغادرة اسرائيل. فاذا تركتني الشين بيت أغادر من دون مضايقة، سيظن الناس أنه لا بد من وجود محسوبية، وربما سيبدأون بالتساؤل عما أعطيتها في المقابل. فكان لا بد من أظهار

الأمر وكأن المخابرات الاسرائيلية تضيّق عليّ في كل خطوة أخطوها.

تبيّن لي أن المحامي الذي كلفته بالقضية، كان هو العقبة التي تقف أمامي، لأنه لم يكن يعتقد بوجود فرصة لنوالي تصريحاً بالمغادرة. فطالب بأتعابه مُسبقاً، الأمر الذي استجبته له، ثم توقف عن عمل أي شيء. كما أن الشين بيت لم تحرك المسألة، لأنها لم تتسلم منه شيئاً. وبعد عدة أسابيع، اتصلت به وسألته عن تطورات القضية، لأن الشيء الوحيد المطلوب منه كان تجهيز الأوراق المطلوبة، فلم أحصل منه الا على المماطلة والكذب. وقال ان مشاكل وتعقيدات تواجهه، وأنه يحتاج الى المزيد من المال، فكنت أعطيه وأعطيه بقدر ما كان يطلب.

استمر هذا الوضع لستة أشهر. وأخيراً، في ليلة رأس السنة ٢٠٠٧، تلقيت اتصالاً من محاميّ يقول: «تمت الموافقة على مغادرتك البلاد». قال هذا وكأنه يعلن عن تمكنه من حل مشكلة الجوع في العالم.



سألني لؤي: «هل يمكنك لمرة واحدة فقط لقاء مسؤول في حماس بمخيم جلزون للاجئين؟ أنت هو الشخص الوحيد..."

«سأغادر البلاد خلال خمس ساعات».

فأجاب مستسلماً: «حسناً، كن سالماً، وابق على اتصال معنا. اتصل بمجرد عبورك الحدود لنتأكد أن كل شيء على ما يرام».

أجريت اتصالاً ببعض الأعضاء في الكنيسة الشقيقة في كاليفورنيا، وأعلمتهم بحضوري. بالطبع لم يكونوا على دراية بأنني نجل قائد كبير في حماس، وجاسوس يعمل لحساب الشين بيت. الا أنهم كانوا متحمّسين لفكرة الزيارة. فجمعت بعض الثياب في حقيبة صغيرة، ونزلت الى الطابق الأرضي لاطلاع والدتي على الأمر. لكنها كانت في فراشها.

جثوت بقربها، وشرحت لها بأنني سأغادر خلال ساعات، كي أعبر الحدود الى الأردن، وأستقل الطائرة الى الولايات المتحدة. وحتى في تلك اللحظة، لم يكن ممكناً لي شرح الأسباب.

عيناها أفصحتا عن كل ما أرادت قوله. «والدك في السجن. وأنت بمنزلة الأب لأخوتك وأخواتك. ماذا ستفعل في أميركا؟». علمت أنها لا تريدني أن أذهب.

انما في نفس الوقت، كانت تريد لي الخير. فتمنت لي النجاح في حياتي هناك، بعد كل الخطر الذي واجهته في البلاد. ولكنها لم تكن تعلم مدى الأهوال التي رأيتها في حياتي.

ثم قالت: «دعني أقبّلك قبلة الوداع. أيقظني في الصباح قبل أن تغادر». وباركتني.

فقلت لها انني سأغادر باكراً جداً، وليس عليها الاستيقاظ لتراني عند رحيلي. ولكنها أمي. فسهرت معي طوال الليل في غرفة الجلوس، الى جانب أخوتي وأخواتي وصديقي جمال.

فيما كنت أجمع أغراضي قبل السفر، ومن ضمنها كتابي المقدس، الذي يتضمن جميع ملاحظاتي التي دوّنتها في أثناء دراستي له عبر السنين، حتى وأنا في السجن، شعرت بدافع لأن أقدّمه الى جمال.

فقلت له: «لا يوجد لديّ هدية قيّمة أكثر من هذا الكتاب لأهديك اياها. هذا كتابي المقدس أقدّمه لك. اقرأه، واعمل بتعاليمه». كنت واثقاً من أنه سيحترم رغبتي، وربما سيقرأه في كل مرة يتذكرني بها.

تأكدت أن لديّ مالاً يكفيني لبعض الوقت، وتركت المنزل، وتوجّهت الى جسر اللنبي الذي يصل بين الأردن واسرائيل. لم أواجه أية مشكلة خلال عبوري الحاجز الاسرائيلي. فدفعت ضريبة الخروج خمسة وثلاثين دولاراً، ودخلت محطة الهجرة الضخمة المجهزة بآلات اكتشاف المعادن، والتصوير بالأشعة السينية، وحيث توجد الغرفة ذات الرقم ١٣ السيء السمعة، للتحقيق مع المشتبه بهم. ولكن هذه الأجهزة، بما فيها التفتيش الجسدي، لم تكن الا للتأكد من الداخلين الى اسرائيل، وليس الخارجين منها.

كانت المحطة الأشبه بخلية نحل، تعجّ بالناس الذين يحملون حقائب صغيرة حول وسطهم، ومنهم من كان يعتمر قبعة يهودية أو كوفية عربية، ومنهن من كن يضعن الحجاب أو القبعات. وكان البعض يحملون حقائب على ظهورهم، فيما آخرون يدفعون بعربات يد تكدّست عليها الأمتعة. وأخيراً، استقليت واحداً من باصات الجت الضخمة، وهو وسيلة النقل الوحيدة المسموح بها، وانطلقنا عبر الجسر الخرساني المبني على عقد.

قلت في نفسي: «حسناً، أعتقد أننا أنجزنا كل شيء تقريباً».

ومع هذا، كنت لا أزال قلقاً الى حدّ ما، لان الشين بيت لا تسمح ببساطة لأشخاص مثلي بمغادرة البلاد. فهذا الأمر لم يُسمع به من قبل. حتى لؤي كان مندهشاً من حصولي على اذن بالخروج.

عندما وصلنا الى حدود الأراضي الأردنية، أظهرت جواز سفري وأنا أشعر بقليل من الخوف، لأن تأشيرتي الصالحة لثلاث سنوات، كانت مختومة على جواز سفر تنتهي صلاحيته في أقل من ثلاثين يوماً.

فصليت: «أرجوك، دعني أدخل الى الأردن ليوم واحد فقط. هذا كل ما أريد».

كان قلقي في غير محله، لأنني لم أواجه أية مشكلة. فاستقليت سيارة أجرة الى عمان، وابتعت تذكرة سفر من الخطوط الجوية الفرنسية. ثم حجزت غرفة في أحد الفنادق لساعات عديدة فقط، قبل أن أغادر الى مطار الملكة علياء الدولي، وأستقل الطائرة الى كاليفورنيا عبر العاصمة الفرنسية باريس.

عندما جلست على مقعد الطائرة، بدأت التفكير بما تركته للتو، جيداً كان أو سيئاً. فافتكرت بعائلتي وأصدقائي، كما بسفك الدم اللامتناهي، والضياع والعبث.

استغرقني الأمر وقتاً للاعتياد على فكرة أنني حر. حر في أن أكون نفسي. وحر من الاجتماعات السرية والسجون الاسرائيلية. وحر من الالتفات الدائم خلف ظهري.

كان شعوراً غريباً، ورائعاً.



بينما كنت أسير يوماً على أحد الأرصفة في كاليفورنيا، لاحظت وجهاً مألوفاً متجهاً نحوي. كان وجه ماهر عودة، العقل المدبّر للعديد من التفجيرات الانتحارية، والرجل الذي رأيته في العام ٢٠٠٠ يستقبل سفاحي عرفات المسلحين، الذين افتضحت أمرهم كالمؤسسين لخلية كتائب شهداء الأقصى السرية.

لم أكن متيقناً في البداية من أنه ماهر عودة. فالناس تختلف أشكالهم باختلاف الظرف والمكان. وتمنيت لو كنت مخطئاً. فحماس لم تجرؤ يوماً على تدبير عملية استشهادية في الولايات المتحدة، الا أن وجود هذا الرجل هنا سيكون مؤذياً لها،

وسيكون مؤذياً لي أنا أيضاً.

التقت نظراتنا لجزء من الثانية، كانت كافية لألمح في عينيه بريق تعرّفه عليّ، قبل أن يتابع سيره في الشارع.

خاتمة

في شهر تموز من العام ٢٠٠٨، جلست ذات مساء لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم، مع صديقي الحميم «آفي ايساخاروف» المحرر في صحيفة هآرتز الاسرائيلية. فأخبرته عن قصة تحوّلي الى المسيحية، لأنني أردت أن ينتشر الخبر من داخل اسرائيل، وليس من الغرب. فخرجت الصحيفة بعنوان: «الابن الضال».

وكما يحصل مع كثيرين من أتباع يسوع، حطم اعلان ايماني بالمسيح على الملأ، قلوب والدتي ووالدي وأخوتي وأخواتي وأصدقائي.

كان صديقي جمال واحداً من قلائل وقفوا الى جانب أفراد عائلتي الذين أصابهم الخزي والعار، وذرف الدموع معهم. وهو، اذ كان قد شعر بفراغ رهيب بعد رحيلي، تعرّف الى فتاة جميلة، فخطبها، ثم عقد قرانه عليها بعد أسبوعين على ظهور المقالة في هآرتز.

خلال حفل الزفاف، لم تقدر عائلتي على حبس الدموع، لأن عرس جمال جعلهم يتذكرونني، ويتحسّرون كيف أنني هدمت مستقبلي، ولن يتسنى لي الزواج وتنشئة عائلة مسلمة. حتى العريس نفسه أجهش بالبكاء، عندما رأى الكآبة مرتسمة على وجوه الجميع. وقد شارك معظم المدعوين الى العرس بذرف الدموع أيضاً، ولكنني متأكد أنها كانت لأسباب أخرى.

خلال محادثة أجريتها معه على الهاتف لاحقاً، سألني جمال: «ألم يكن بمقدورك تأجيل أعلانك لأسبوعين بعد حفل زفافي؟ فانك حوّلت أروع حدث في حياتي الى كارثة».

شعرت برهبة الموقف. ولكن، الحمد لله، أن جمال بقي صديقي المفضل.

تلقى والدي الأخبار في السجن. فهو كان قد استفاق للتو عندما علم أن ابنه البكر تحوّل الى المسيحية. من وجهة نظره، فأنا قد دمّرت مستقبلي ومستقبل عائلته، وفي اليوم الآخر سأطرح في جهنم تحت ناظريه، وسننفصل عن بعضنا البعض الى الأبد.

لقد بكى كطفل صغير، ورفض أن يغادر زنزانته.

كما زاره سجناء من كافة الفصائل لتعزيته، قائلين: «كلنا أولادك، شيخ حسن». فأجابهم: «رجاءً، اهدأوا».

لم يتسن لوالدي التأكد من صحة التقارير الاخبارية. الا أن أختي أنهار، ذات السبعة عشر عاماً، والوحيدة من بين أفراد العائلة المسموح لها بزيارته، ذهبت لتتفقده بعد أسبوع. وحالما رآها، قرأ في عينيها حقيقة الأخبار التي سمعها. فلم يقوَ على تمالك نفسه. حتى أن بعض السجناء، تركوا أحباءهم الذين جاءوا لزيارتهم، وأتوا يقبّلون رأسه ويشاركونه البكاء. واذ حاول التقاط أنفاسه ليعتذر منهم، كان يشهق بالبكاء أكثر ولا يقدر على الكلام. كان الوضع مأساوياً الى درجة أن الحراس الاسرائيليين الذين يكنون له الاحترام الشديد، انفجروا هم أيضاً بالبكاء.

بعثت برسالة الى والدي من ست صفحات، أخبرته فيها كم أنه مهم أن يكتشف الله الحقيقي، الذي أحبّه دائماً ولكنه لم يعرفه أبداً.

انتظر أعمامي بلهفة أن يتبرّأ والدي مني. فلما رفض، أداروا ظهورهم لزوجته وأولاده. فهو كان مدركاً أنه لو أعلن تبرّؤه مني، فسيعمد ارهابيو حماس الى قتلي. فأصرّ على حمايتي، على رغم الجروح العميقة التي سببتها له.

بعد ثمانية أسابيع، هدّد المعتقلون في سجن كتزيوت الواقع في صحراء النقب بالقيام بأعمال شغب. فطلب منه الشاباس، أي القائمون على الخدمة في السجون الاسرائيلية، بعمل ما يمكنه من أجل نزع فتيل الفتنة.

منذ وصولي الى أميركا، لم تنقطع والدتي عن الاتصال بي أسبوعياً. وخلال أحد الاتصالات قالت لي: «والدك في النقب. وبعض المعتقلين تمكنوا من تهريب هاتف خليوي الى داخل السجن. هل ترغب في مكالمته؟"

لم أصدق ما سمعت. فأنا لم أكن أعتقد أنه ستسنح لي الفرصة للتحدث الى

والدي قبل خروجه من السجن.

طلبت الرقم، فلم يُجب أحد. فطلبته ثانية.

«آلو».

كان صوته. فتلعثمت في كلامي.

«مرحبا، بابا».

«مرحبا».

«اشتقت لسماع صوتك».

«كيف حالك؟».

«أنا بخير. ليس المهم أحوالي أنا. كيف حالك أنت؟».

«أنا بخير. جئنا الى هنا للتحادث مع السجناء، والطلب منهم تهدئة الأوضاع».

كان كما أعهده. فشعبه كان اهتمامه الأكبر على الدوام. وهو لن يتغير أبداً.

«كيف تسير حياتك في الولايات المتحدة الآن؟».

«حياتي ممتازة. أنا أؤلف كتاباً...».

كان يُسمح لكل سجين بالتحدث لعشر دقائق. فلم يكن والدي ليستغل مركزه للحصول على معاملة مميزة. كنت أريد مناقشة حياتي الجديدة معه، لكنه لم يرغب في التحدث بهذا الأمر.

قال لي: «مهما حصل، فأنت لا تزال ابني. أنت جزء مني، ولا شيء سيتغير. لك رأي مختلف، ولكنك لا تزال ولدي الصغير».

شعرت بالصدمة. هذا الرجل كان رائعاً.

اتصلت مرة أخرى في اليوم التالي. كان كسير القلب، لكنه كان يصغي الى ما أقول.

«لديّ سرّ أودّ أن أطلعك عليه. أريدك أن تعرفه الآن، لا أن تسمعه من وسائل الاعلام».

أخبرته بأنني عملت لصالح الشين بيت على مدى عشر سنوات. وما بقاؤه على قيد الحياة الى اليوم، الا لأنني وافقت على احتجازه في السجن، من أجل حمايته. وأعلمته بأن اسمه كان على رأس لائحة الاغتيال في القدس، وبأنه لا يزال في السجن لأنني أنا لم أعد موجوداً هناك لضمان سلامته.

ساد الصمت. ولم يجب والدي بشيء.

أخيراً قلت له: «أحبك. ستبقى والدي على الدوام».

حاشية

رجائي الأعظم من خلال عرض قصة حياتي الخاصة، هو التأكيد لشعبي – الفلسطينيين الذين ينتمون الى الاسلام، والذين تم استعبادهم واستغلالهم من قبل السلطات الفاسدة والأنظمة لمئات السنين – ان الحق يمكن أن يحررهم.

أستعرض قصتي أيضاً من أجل أن يعرف الاسرائيلي أنه يوجد رجاء. اذا كنت أنا، ربيب منظمة ارهابية كرست جهودها لازالة اسرائيل من الوجود، قد وصلت الى المكان الذي لم أتعلم فيه أن أحب الشعب اليهودي فقط، بل أن اخاطر بنفسي لأجلهم أيضاً، فهذا يعني أنه يوجد بصيص أمل.

قصتي تحمل رسالة للمسيحيين أيضاً. يجب ان نتعلم من آلام شعبي، الذين يرزحون تحت أحمال ثقيلة في سعيهم للحصول على رضى الله ورحمته. يجب علينا تجاوز القوانين الدينية التي وضعناها لأنفسنا، والسعي بدل ذلك الى محبة الناس من مختلف الأجناس في العالم، بلا قيد أو شرط. اذا أردنا اظهار يسوع للعالم، يجب أن نعيش رساله محبته. اذا أردنا اتباع يسوع، يجب توقع الاضطهاد أيضاً. يجب أن نسرّ بالاضطهاد من أجله.

أكتب الى الخبراء في قضايا الشرق الأوسط، وصناع القرار الحكوميين، والعلماء، وقادة أجهزة الاستخبارات، على أمل أن تسهم قصة بسيطة في جعلهم يتفهمون المشاكل والحلول الممكنة، لواحدة من اكثر المناطق المضطربة من العالم.

أقدم قصتي، عالماً أن أشخاصاً كثيرين، بمن فيهم أعز الناس على قلبي، لن يفهموا دوافعي أو تفكيري.

بعض الناس سوف يتهمونني بأن ما قمت به كان من أجل المال. المفارقة هنا هي أنه لم تكن لدي مشكلة في تحصيل المال في حياتي السابقة، بينما أعيش الآن على الكفاف. ولئن كان صحيحاً أن عائلتي كانت تعاني صعوبات مالية، لا سيما خلال فترات السجن الطويلة لوالدي، لكنني في نهاية المطاف أصبحت شاباً غنياً. فمع المرتب الذي كانت تقدمه لي الحكومة، كان معدل دخلي يفوق عشر مرات المعدل العام في البلاد. عشت حياة الرخاء مع امتلاكي لمنزلين وسيارة رياضية جديدة. وكان بامكاني تحصيل المزيد من المال لو أردت.

عندما أخبرت الاسرائيليين ان عملي معهم قد انتهى، عرضوا عليّ انشاء مؤسسة للاتصالات خاصة بي، كانت ستدرّ عليّ ملايين الدولارات، لو أنني وافقت على البقاء. لكنني رفضت العرض، وأتيت الى الولايات المتحدة، حيث لم أتمكن من ايجاد وظيفة، وانتهى بي الأمر وكأنني مشرد عملياً. آمل بأن يأتي الوقت فلا أعود أعاني من مشكلة المال، ولكنني تعلمت أن المال وحده لن يشبعني على الاطلاق. لو كان المال هدفي الرئيسي، لبقيت حيث كنت، واستمريت بالعمل لصالح اسرائيل. كان يمكنني قبول العطايا المادية التي قدمها لي الناس منذ انتقالي الى الولايات المتحدة، الا أنني رفضت ذلك أيضاً، لأنني لم أرد ان يكون المال أولوية عندي، أو أن أترك انطباعاً بأنه كان الدافع لما فعلت.

ربما يفتكر أحدهم بأن ما فعلته كان بدافع لفت الأنظار وتحلق الناس حولي، ولكن هذا أيضاً حصلت عليه بوفرة في بلدي.

الأمر الأصعب بالنسبة لي كان التخلي عن القوة والسلطة اللتين كنت أحوزهما بصفتي ابن القائد الأعلى لحماس. فكوني تذوقت طعم السلطة، أعلم كيف يصبح المرء مدمناً عليها، أكثر من الادمان الذي يسببه المال. لقد أحببت كوني صاحب سلطة في حياتي السابقة. ولكن عندما تكون مدمناً، حتى على السلطة، فأنت تكون مُقاداً أكثر منك مسيطراً.

الحرية، والحنين العميق للحرية، هما حقاً في قلب قصتي.

أنا ابن شعب مستعبد من قبل الأنظمة الفاسدة منذ قرون عديدة.

كنت سجيناً لدى الاسرائيليين، عندما تفتحت عيناي على حقيقة ان الشعب الفلسطيني كان خاضعاً لظلم قادته، كما لظلم قادة اسرائيل.

كنت تابعاً مخلصاً لدين يتطلب التقيد الحازم بأحكام صارمة، في سبيل ارضاء

اله القرآن والدخول الى السماء.

كان لديّ المال والسلطة والمركز في حياتي السابقة. ولكن ما كنت أرغب به حقاً كان الحرية. وهذه تتضمن، من بين أمور أخرى، التخلي على الكراهية، والتعصب، والرغبة في الانتقام.

رسالة يسوع– أحبوا أعداءكم– هي ما حررني أخيراً. فلم يعد مهماً من كان أصدقائي ومن كان أعدائي. فقد كان يفترض بي أن أحبهم جميعاً. وصار بامكاني انشاء علاقة محبة مع الله الذي ساعدني على أن أحب الآخرين.

الحصول على هكذا نوع من العلاقة مع الله، ليس هو فقط مصدر حريتي، ولكنه أيضاً المفتاح لحياتي الجديدة.

بعد قراءة هذا الكتاب، أرجوكم أن لا تفتكروا بأنني أصبحت ذلك المسيحي الرفيع المستوى. الحقيقة هي أنني مسيحي مناضل. القليل الذي أعرفه وأفهمه عن ايماني، حصلت عليه نتيجة اجتماعات درس الكتاب المقدس والقراءة. بكلمات أخرى، أنا من أتباع يسوع المسيح، ولكنني فقط في بداية الطريق نحو التلمذة.

لقد ولدت وترعرعت في بيئة دينية تشدد على أن الخلاص مرتبط كلياً بالأعمال. لديّ الكثير من الأشياء التي يجب ان أتخلى عنها، كي أجد متسعاً للحق: «ان كنتم قد سمعتموه وعلمتم فيه كما هو حق في يسوع، ان تخلعوا من جهة التصرف السابق الانسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور، وتتجددوا بروح ذهنكم، وتلبسوا الانسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق» (أفسس ٤ : ٢١–٢٤).

مثل العديد من أتباع يسوع، فقد تبت عن خطاياي، وأعلم ان يسوع هو ابن الله الذي أصبح انساناً، ومات من أجل خطايانا، وقام من الموت، وهو جالس عن يمين الآب. لقد اعتمدت. ولا زلت أشعر بأنني بالكاد موجود داخل بوابة ملكوت الله. لقد قيل لي انه يوجد أكثر من هذا بكثير. وأنا أريد هذا الكثير كله.

في هذه الأثناء، لا أزال أعاني من العالم والجسد والشيطان. لا تزال لديّ مفاهيم خاطئة وارتباك. أنا أتصارع مع أشياء تبدو أحياناً أنها لا تقهر. ومع هذا، فلديّ الرجاء، أنا الذي كالرسول بولس الذي وصف نفسه لتيموثاوس بأنه «أول الخطاة» (١ تيموثاوس ١٥:١)، بأنني سأصبح يوماً ما يريدني الله أن أكون، ما دمت لا أستسلم لليأس.

فاذا التقيت بي في الطريق، رجاءً لا تطلب مني نصيحة، أو ماذا أفتكر أن هذا العدد أو ذاك في الكتاب المقدس يعني، لأنك ربما تسبقني بأشواط في هذا المجال. فبدل أن تنظر اليّ كنصب روحي، صلّ لأجلي، كي أنمى في ايماني، وكي لا أدوس على أصابع أرجل كثيرة بيما أنا أتعلم الرقص مع العريس.



طالما نحن نواصل البحث عن الأعداء في كل مكان وليس في دواخلنا، ستبقى مشكلة الشرق الأوسط باقية على الدوام.

الدين ليس هو الحل. الدين من دون يسوع هو فقط بر ذاتي. التحرر من الظلم لن يحل أية مشكلة أيضاً. اسرائيل التي تخلصت من ظلم أوروبا، أصبحت هي الظالمة. وبعد تخلصهم من الاضطهاد، أصبح المسلمون يضطهدون الآخرين. الأزواج والاولاد الذي تساء معاملتهم، غالباً ما يسيئون معاملة أزواجهم وأولادهم. انها كليشيه، ولكنها تبقى حقيقة: الأشخاص الذين تعرضوا للأذى، الا اذا نالوا الشفاء، يؤذون الآخرين.

كنت في طريقي لأصبح واحداً من الناس الذي ضللتهم الأكاذيب وقادتهم العنصرية والكراهية والرغبة بالانتقام. ولكن في العام ١٩٩٩، تقابلت مع الاله الحقيقي الوحيد. هو الآب الذي محبته تفوق الخيال، وقد ظهرت في ذبيحة ابنه الوحيد على الصليب تكفيراً عن خطايا العالم. هو الله الذي، بعد ثلاثة أيام، أظهر قوته وبره باقامة يسوع من الموت. هو الله الذي لا يطلب مني أن أحب وأن أغفر لأعدائي كما أحبني وغفر لي هو فقط، ولكنه يمنحني القوة لأقوم بهذا.

معرفة الحق والمغفرة هما الحل الوحيد للشرق الأوسط. التحدي، وخاصة بين الاسرائيليين والفلسطينيين، ليس في ايجاد الحل. التحدي هو في ان يكونوا قبل كل شيء، شجعانا بما يكفي لاعتناقه.

شخصيات الكتاب

عائلة مصعب

الشيخ يوسف داوود: جده لجهة والده.

الشيخ حسن يوسف: والده. من مؤسسي وقادة حماس منذ العام ١٩٨٦.

صبحا أبو سالم: والدته.

ابراهيم أبو سالم: خاله. من مؤسسي حركة الأخوان المسلمين في الأردن.

داوود: عمه.

يوسف داوود: ابن عمه داوود، الذي ساعده على شراء أسلحة غير صالحة للاستعمال.

أخوة مصعب: صهيب (١٩٨٠)، سيف (١٩٨٣)، أويس (١٩٨٥)، محمد (١٩٨٧)، ناصر (١٩٩٧).

أخوات مصعب: سابيلا (١٩٧٩)، تسنيم (١٩٨٢)، أنهار (١٩٩٠).

الشخصيات الرئيسية

(حسب تسلسل ذكرهم)

حسن البنا: مصلح مصري، ومؤسس حركة الأخوان المسلمين.

جمال منصور: من مؤسسي حماس في العام ١٩٨٦. اغتيل من قبل اسرائيل.

ابراهيم كسواني: صديق مصعب الذي ساعده على شراء أسلحة غير صالحة للاستعمال.

لؤي: رئيس مصعب في الشين بيت.

مروان البرغوتي: الأمين العام لمنظمة فتح.

ماهر عودة: من قادة حماس، وقائد الجناح الأمني لحماس في السجن.

صالح تلحمي: ارهابي من حماس وصديق مصعب.

ابراهيم حامد: قائد الجناح الأمني لحماس في الضفة الغربية.

سيد الشيخ قاسم: ارهابي من حماس.

حسنين رمانة: ارهابي من حماس.

خالد مشعل: قائد حماس في دمشق، سوريا.

عبدالله البرغوتي: صانع متفجرات.

شخصيات أخرى

عبد العزيز الرنتيسي: قائد في حماس، ورئيس مخيم المبعدين في لبنان.

عبد الباسط عودة: انتحاري من حماس، بارك أوتيل.

أبو علي مصطفى: الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. اغتيل من قبل اسرائيل.

أبو سليم: جزار. جار مصعب المجنون.

أديب زيادة: قائد سري لحماس.

أحمد الغندور: مؤسس كتائب شهداء الأقصى.

أحمد الفرنسي: مساعد مروان البرغوتي.

أحمد ياسين: أحد مؤسسي حماس في العام ١٩٨٦.

عقل سرور: صديق مصعب وزميله في السجن.

عمر صلاح دياب العمارنة: أول انتحاري من حماس.

عامر أبو سرحان: طعن ثلاثة اسرائيليين حتى الموت.

أمنون: يهودي تحوّل الى المسيحية، وزميل مصعب في السجن.

أنس رصرص: قائد "المجد" في سجن مجدّو.

أرييل شارون: رئيس الوزراء الاسرائيلي (٢٠٠١–٢٠٠٦).

آفي ديختر: رئيس الشين بيت.

أيمن أبو طه: من مؤسسي حماس في العام ١٩٨٦.

عزيز كايد: قائد سري لحماس.

باروخ غولدشتاين: فيزيائي أميركي قتل تسعة وعشرين فلسطينياً في الخليل في شهر رمضان.

بلال البرغوتي: ابن عم صانع المتفجرات في حماس عبدالله البرغوتي.

بيل كلينتون: الرئيس الثاني والأربعون للولايات المتحدة.

كابتن شائي: ضابط في جيش الدفاع الاسرائيلي.

ضياء محمد حسين الطويل: انتحاري التلة الفرنسية.

ايهود باراك: رئيس الوزراء الاسرائيلي العاشر (١٩٩٩–٢٠٠١).

ايهود أولمرت: رئيس الوزراء الاسرائيلي الثاني عشر (٢٠٠٦–٢٠٠٩).

فتحي الشقاقي: مؤسس الجهاد الاسلامي الفلسطيني، ومحرض على التفجيرات الانتحارية.

فؤاد الشوبكي: المسؤول المالي للعمليات العسكرية في السلطة الفلسطينية.

جلعاد شاليط: جندي اسرائيلي اختطف من قبل مسلحين في غزة عام ٢٠٠٦.

حسن سلامة: صديق يحيى عياش، الذي علمه كيفية صنع قنابل لقتل اسرائيليين.

عماد عقل: قائد كتائب القسام، الجناح العسكري لحماس. قتل من قبل الاسرائيليين.

اسماعيل هنية: انتخب رئيساً للوزراء الفلسطينيين في العام ٢٠٠٦.

عز الدين سهيل المصري: انتحاري محل سبارو للبيتزا.

جمال الدرة: والد الطفل ذي الاثني عشر عاماً، الذي قتل من قبل جيش الدفاع الاسرائيلي بحسب رواية الفلسطينيين، خلال تظاهرة لقوات الأمن الفلسطينية في غزة.

جمال الطويل: قائد حماس في الضفة الغربية.

جمال سليم: قائد في حماس قتل خلال عملية اغتيال جمال منصور في نابلس.

جميل همامي: أحد مؤسسي حماس في العام ١٩٨٦.

جبريل الرجوب: قائد قوى الأمن في السلطة الفلسطينية.

جمعة: حفار قبور في المدافن القريبة من منزل مصعب عندما كان طفلاً.

الملك حسين: ملك الأردن (١٩٥٢–١٩٩٩).

كوفي أنان: الأمين العام السابع للأمم المتحدة.

ليونارد كوهين: مغني ومؤلف أغان كندي، كتب أغنية "أولاً، أخذنا مانهاتن".

محمود مصلح: من مؤسسي حماس في العام ١٩٨٦.

ماجدة تلحمي: زوجة الارهابي في حماس صالح تلحمي.

محمد دراغمة: صحفي فلسطيني.

محمد الدرة: صبي في الثانية عشرة من العمر، يشتبه بأن الجيش الاسرائيلي قتله خلال تظاهرة لفتح

في غزة.

محمد عرمان: عضو في خلية ارهابية تابعة لحماس.

مصعب تلحمي: ابن الارهابي صالح تلحمي.

محمد جمال النتشة: من مؤسسي حماس في العام ١٩٨٦، وقائد الجناح العسكري في الضفة الغربية.

مهند أبو حلاوة: عضو في كتائب شهداء الأقصى.

ناجح ماضي: قائد سري لحماس.

نسيم توليدانو: شرطي حدود اسرائيلي قتل من قبل حماس.

أوفير ديكيل: ضابط في الشين بيت.

أسامة بن لادن: قائد سعودي لمنظمة القاعدة الارهابية.

رحبعام زئيفي: وزير سياحة اسرائيلي اغتيل على يد مسلح تابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

صدام حسين: ديكتاتور عراقي أعدم بسبب جرائمه الانسانية.

صائب عريقات: وزير في الحكومة الفلسطينية.

سعيد الحوتري: انتحاري مركز الدولفين.

صلاح حسين: قائد سري لحماس.

سامي أبو زهري: المتحدث باسم حماس في غزة.

سارة: أميركية عمّدت مصعب في البحر الأبيض المتوسط.

شحادة: عامل فلسطيني قتل عن طريق الخطأ بواسطة رامي دبابة اسرائيلي.

شيمون بيريس: الرئيس الاسرائيلي التاسع. تسلم مهامه في العام ٢٠٠٧.

شلومو ساكال: بائع أواني بلاستيكية اسرائيلي، طعن حتى الموت في غزة.

تسيبوكتساكيس جرمانوس: راهب أرتوذوكسي يوناني قتل على يد اسماعيل ردايدة.

يحيى عياش: صانع متفجرات يعود له الفضل في تحديث تقنية العمليات الانتحارية خلال الصراع الاسرائيلي الفلسطيني.

اسرائيل زيف: ميجور جنرال في جيش الدفاع الاسرائيلي.

اسحق رابين: رئيس الوزراء الاسرائيلي الخامس (١٩٧٤–١٩٧٧، ١٩٩٢–١٩٩٥). اغتيل على يد المتطرف الاسرائيلي اليميني ييغال عمير في العام ١٩٩٥.

تاريخ الأحداث

١٩٢٣ .... نهاية الامبراطورية العثمانية.

١٩٢٨ .... حسن البنا يؤسس جماعة الإخوان المسلمين.

١٩٣٥ .... تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين.

١٩٤٨ .... الإخوان المسلمون يقومون بأعمال عنف ضد الحكومة المصرية. اسرائيل تعلن استقلالها. مصر، لبنان، سوريا، الأردن والعراق تهاجم اسرائيل.

١٩٤٩ .... اغتيال حسن البنا. انشاء مخيم العامري للاجئين في الضفة الغربية.

١٩٥٢ .... جمال عبد الناصر يُطيح بنظام الحكم الملكي في مصر.

١٩٦٤ .... تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية.

١٩٦٧ .... حرب الأيام الستة.

١٩٦٨ .... الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تختطف طائرة العال ٧٠٧ وتحولها الى الجزائر. لم يسقط قتلى.

١٩٧٠ .... أيلول الأسود، حيث قتل الجنود الأردنيون الآلاف من مسلحي منظمة التحرير الفلسطينية، التي تم طردها من البلاد.

١٩٧٢ .... أحد عشر رياضياً اسرائيلياً قُتِلوا في أيلول الأسود خلال الألعاب الأولمبية في ميونيخ.

١٩٧٣ .... حرب ٦ أكتوبر (حرب يوم الغفران).

١٩٧٧ .... حسن يوسف يتزوج صبحة أبو سالم.

١٩٧٨ .... ولادة مصعب حسن يوسف. مقتل ثمانية وثلاثين شخصاً في هجوم لمنظمة فتح على الطريق الاسرائيلي البحري السريع شمال تل أبيب.

١٩٧٩ .... تأسيس منظمة الجهاد الاسلامي الفلسطيني.

١٩٨٢ .... قتل حوالي عشرة آلاف اسلامي خلال محاولتهم الانقلاب على نظام الحكم في سوريا. اسرائيل تغزو لبنان وتخرج منظمة التحرير الفلسطينية منه.

١٩٨٥ .... حسن يوسف وعائلته ينتقلون الى مدينة البيرة.

١٩٨٦ .... تأسيس حماس في الخليل.

١٩٨٧ .... حسن يوسف يتخذ وظيفة ثانية، لتعليم الدين للمسلمين في المدرسة اللوثرية في رام الله. بداية الانتفاضة الأولى.

١٩٨٩ .... الاعتقال والسجن الأول لحسن يوسف. عضو حماس عامر أبو سرحان يقتل ثلاثة اسرائيليين.

١٩٩٢ .... عائلة مصعب تنتقل الى بيتونيا. اعتقال حسن يوسف. ارهابيو حماس يختطفون ويقتلون ضابط حدود اسرائيلي يدعى نسيم توليدانو. القادة الفلسطينيون يُبعَدون الى لبنان.

١٩٩٣ .... قتل الارهابي في حماس عماد عقل على حاجز اسرائيلي. اتفاقيات أوسلو.

١٩٩٤ .... باروخ غولدشتاين يقتل تسعة وعشرين فلسطينياً في الخليل. أول عملية انتحارية رسمية. عودة ياسر عرفات المظفرة الى غزة لتأسيس مركز قيادة السلطة الفلسطينية.

١٩٩٥ .... اغتيال رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين. اعتقال حسن يوسف من قبل السلطة الفلسطينية. مصعب يشتري أسلحة غير شرعية ولا تصلح للاستعمال.

١٩٩٦ .... اغتيال صانع المتفجرات في حماس يحيى عياش. اعتقال مصعب وسجنه للمرة الأولى.

١٩٩٧ .... اطلاق سراح مصعب من السجن. محاولة فاشلة للموساد لاغتيال خالد مشعل.

١٩٩٩ .... مصعب يحضر اجتماع مسيحي لدرس الكتاب المقدس.

٢٠٠٠ .... قمة كامب دايفد. بدء الانتفاضة الثانية (المعروفة أيضاً باسم انتفاضة الأقصى).

٢٠٠١ .... اسرائيل تغتال الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أبو علي مصطفى. مسلح من هذه الجبهة يغتال وزير السياحة الاسرائيلي رحبعام زئيفي. عمليات انتحارية في التلة الفرنسية، وفي محل سبارو للبيتزا، وفي مقهى الدولفين.

٢٠٠٢ .... مصعب ووالده يُعتقلان ويُسجنان. الجيش الاسرائيلي يعتقل أربعة انتحاريين، ويقتل واحداً. الهجوم على الجامعة العبرية ومقتل تسعة أشخاص.

٢٠٠٣ .... اسرائيل تقتل ثلاثة ارهابيين من حماس هم صالح تلحمي وحسنين رمانة وسيد

الشيخ قاسم. قوات التحالف الغربي تحرر العراق.

٢٠٠٤ .... موت ياسر عرفات. اطلاق حسن يوسف من السجن.

٢٠٠٥ .... مصعب يؤمن بيسوع المسيح كابن الله ويعتمد. اعتقال مصعب وسجنه للمرة الثالثة. انتهاء الهدنة بين حماس واسرائيل. اطلاق سراح مصعب من السجن.

٢٠٠٦ .... عناصر مسلحة من حماس تختطف الجندي الاسرائيلي جلعاد شاليط. انتخاب اسماعيل هنية رئيساً للحكومة الفلسطينية.

٢٠٠٧ .... مصعب يغادر الأراضي المحتلة الى الولايات المتحدة الأميركية.

هوامش

١. لم يحصل أحد على هذه المعلومات من قبل. في الحقيقة، فان سجل التاريخ مليء بالعديد من الأخطاء حول الزمان الذي ولدت فيه حماس كمنظمة. مثلاً، ويكيبيديا أعلنت بشكل غير دقيق أن «حماس أنشئت في العام ١٩٨٧، من قبل الشيخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي ومحمد طه، من الجناح الفلسطيني لمنظمة الإخوان المسلمين المصرية، في بداية الانتفاضة الأولى...».
هذا القيد دقيق لناحية اثنين فقط من مؤسسي حماس السبعة، وقد أخطأ بالسنة. أنظر:
http://en.wikipedia.org/wiki/Hamas (٢٠ تشرين الثاني ٢٠٠٩)

تقول شبكة الشرق الأوسط: «تأسست حماس حوالي شهر شباط ١٩٨٨، لافساح المجال أمام الإخوان المسلمين للمشاركة في الانتفاضة الأولى. القادة المؤسسين لحماس هم: أحمد ياسين، عبد الفتاح دقهان، محمد شما، ابراهيم اليعزوري، عيسى النجار، صلاح شحادة (من بيت حانون)، وعبد العزيز الرنتيسي.
الدكتور محمود الزهار أيضاً تم تسجيله كما جرت العادة على أنه واحد من القادة الأصليين لحماس. القادة الآخرون يتضمنون: الشيخ خليل كعواك، عيسى الأشعر، موسى أبو مرزوق، ابراهيم غوشة، خليل مشعل». هذا القيد أقل دقة حتى من قيد ويكيبيديا. أنظر:
http://www.mideastweb.org/hamashistory.htm (٢٠ تشرين الثاني ٢٠٠٩)

٢. أول عملية على مستوى عالٍ لخطف طائرات قامت بها منظمة التحرير الفلسطينية وقعت في ٢٣ تموز العام ١٩٦٨، عندما حوّل ناشطو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مسار طائرة العال من نوع بوينغ ٧٠٧ نحو الجزائر. وقد تم احتجاز حوالي اثني عشر مسافراً اسرائيلياً كرهائن، بالاضافة الى عشرة من طاقم الطائرة. ولم تسفر العملية عن وقوع قتلى.

ولكن أحد عشر رياضياً اسرائيلياً قتلوا بعد مرور أربع سنوات على هذه العملية، في هجوم ارهابي قامت به منظمة التحرير الفلسطينية خلال دورة الألعاب الأولمبية التي كانت تجري في ميونيخ.

وفي ١١ آذار ١٩٧٨، شطط مركب يضم مقاتلين من فتح شمال مدينة تل أبيب، حيث قاموا بخطف باص للركاب، وبدأوا بهجوم على طول الطريق السريع المحاذي للشاطىء، فقتلوا حوالي خمسة وثلاثين شخصاً، وجرحوا أكثر من سبعين آخرين.

كان لدى المنظمة متسع من الوقت لتجنيد عناصر من بين الفلسطينيين اللاجئين الذين كانوا يشكلون ثلثي عدد سكان الأردن. ومع تدفق الأموال من الدول العربية الأخرى لدعم القضية، أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية أقوى، ومسلحة بشكل أفضل حتى من الشرطة والجيش الأردنيين. ولم تكن هناك فترة طويلة تفصل زعيمها ياسر عرفات، عن الاستيلاء على البلاد وتأسيس دولة فلسطينية.

كان على ملك الأردن حسين ان يتصرف بسرعة وبشكل حاسم، أو أن يخسر بلده.

كم كانت دهشتي عظيمة، اذ علمت بعد سنوات على اقامتي علاقة لا يمكن التنبؤ بها مع قوى الأمن الاسرائيلية، ان العرش الأردني دخل في تحالف سري مع اسرائيل في ذلك الوقت، فيما كانت كل الدول العربية مصممة على تدميرها. بالطبع كان هذا هو العمل المنطقي الذي يجب القيام به، لأن الملك حسين لم يكن قادراً على حماية عرشه، فيما كانت اسرائيل عاجزة عن حراسة الحدود الطويلة بين الدولتين بشكل فعال. ولكن هذا التحالف كان يمكن ان يكون انتحاراً سياسياً وثقافياً للملك، في حال تسرب اي معلومات عنه.

ففي العام ١٩٧٠، وقبل أن تتمكن منظمة التحرير الفلسطينية من تحصيل مزيد من السيطرة، أمر الملك حسين قادتها ومقاتليها بمغادرة البلاد. وحين رفضوا الانصياع، أجبرهم على الخروج، بمساعدة أسلحة زودته بها اسرائيل، في حملة عسكرية صارت تعرف فيما بعد بين الفلسطينيين بأيلول الأسود.

اقتبست مجلة «تايم» كلاماً قاله عرفات للزعماء العرب المتعاطفين معه، «لقد تم ارتكاب مجزرة. آلاف الناس هم تحت الأنقاض. الجثث تعفنت. مئات الآلاف من الناس بلا مأوى. قتلانا متناثرون على الطرقات. الجوع والعطش يقتلان أطفالنا الباقين ونساءنا ورجالنا». ("انتهت المعركة، بدأت الحرب». «تايم»، ٥ تشرين الأول ١٩٧٠).

ترتب على الملك حسين ديناً كبيراً لاسرائيل، أعاده لها في العام ١٩٧٣، حين حذر القدس من تحالف عربي بقيادة مصر وسوريا، يستعد لمهاجمة اسرائيل. وللأسف، لم تأخذ اسرائيل هذا التحذير على محمل الجد. الهجوم حصل في يوم الغفران، وعانت اسرائيل غير المستعدة للحرب

من خسائر باهظة وغير ضرورية. هذا السر، أيضاً، عرفته من الاسرائيليين.
بعد أيلول الأسود، هرب الناجون من منظمة التحرير الفلسطينية الى جنوب لبنان، الذي كان لا يزال يترنح بسبب حرب أهلية مهلكة. واستهلت المنظمة هنا انتزاع سلطة جديدة، فبدأت تنمو وتزداد قوة، حتى أصبحت فعلياً دولة داخل دولة.
من قاعدة عملياتها الجديدة، شنت منظمة التحرير الفلسطينية حرب استنزاف ضد اسرائيل. وكانت بيروت واهنة جداً لكي تمنع القصف واطلاق الصواريخ اللانهائي على المجمعات الاسرائيلية الشمالية. وفي العام ١٩٨٢، غزت اسرائيل لبنان، وأخرجت منظمة التحرير منه، في حملة استمرت أربعة أشهر. فغادر عرفات وآلاف المقاتلين الناجين الى المنفى في تونس. وحتى من تلك المسافة، واصلت المنظمة اطلاق الهجمات على اسرائيل، وتجميع جيش من المقاتلين في الضفة الغربية وغزة.

٣. "عودة عرفات: الوحدة هي درع شعبنا». نيويورك تايمز، ٢ تموز ١٩٩٤.
http://www.nytimes.com/1994/07/02/world/arafat-in-gaza-arafat-s-return-unity-is-the-shield-of-our-people.html (٢٣ تشرين الثاني ٢٠٠٩)

٤. ليونارد كوهين، «أولاً أخذنا منهاتن»، حقوق النشر © ١٩٨٨ شركة ليونارد كوهين ستراينجر ميوزيك.

٥. وزارة الخارجية الاسرائيلية، «هجمات انتحارية وتفجيرية أخرى في اسرائيل منذ اعلان المبادىء (أيلول ١٩٩٣)». الجمعية العلمية الفلسطينية لدراسة الشؤون الدولية، القدس، «حقائق فلسطين – فلسطين كرونولوجي ٢٠٠٠.
http://www.passia.org/palestine_facts/chronology/2000.html
أنظر أيضاً:
http://www.mfa.gov.il/MFA/MFAArchive/2000_2009/2000/II/Palestinian%20Terrorism-%20Photos%20-%20November%202000

٦. تأكيد اضافي لهذه العلاقة سيأتي خلال السنة التالية، عندما غزت اسرائيل رام الله، وأغارت على مركز قيادة عرفات. من بين الوثائق الأخرى، سيتم اكتشاف فاتورة مؤرخة بتاريخ ١٦ أيلول

٢٠٠١، من كتائب شهداء الأقصى الى العميد فؤاد الشوبكي، المدير المالي للعمليات العسكرية في السلطة الفلسطينية. طالبت الوثيقة بالتعويض عن المتفجرات التي استخدمت لتفجير المدن الاسرائيلية، وطلبت المال لتصنيع المزيد من القنابل وتغطية كلفة اللوحات الاعلانية التي تروج للانتحاريين. يائيل شاهار، «كتائب شهداء الأقصى–أداة سياسية لها حد»، ٣ نيسان ٢٠٠٢، المعهد الدولي لمكافحة الارهاب. هرتزليا.

٧. ليونارد كول، ارهاب: كيف واجهته اسرائيل وماذا يمكن لأميركا ان تتعلم. (بلومنغتون، صحافة جامعة انديانا، ٢٠٠٧)، ٨.

٨. "نعي: رحبعام زئيفي»، بي بي سي نيوز، ١٧ تشرين الأول ٢٠٠١.
http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/1603857.stm (٢٤ تشرين الثاني ٢٠٠٩)

٩. «أنان ينتقد اسرائيل والفلسطينيين لاستهدافهم المدنيين». يو ان، برقية، ١٢ آذار ٢٠٠٢.
http://www.unwire.org/unwire/20020312/24582_story.asp (٢٣ تشرين الأول ٢٠٠٩)

١٠. الاتحاد الأوروبي، «اعلان برشلونة حول الشرق الأوسط»، ١٦ آذار ٢٠٠٢.
http://europa.eu/bulletin/en/200203/i1055.htm

١١. ملاحظة مثيرة للاهتمام حول اللواء جبريل الرجوب: هذا الرجل استغل منصبه كقائد جهاز الأمن في الضفة الغربية، لبناء مملكته الصغيرة الخاصة. وكان يجعل ضباطه ينحنون أمامه كأنه وارث عرش. رأيت مائدة فطورة تئن تحت ثقل خمسين طبق طعام من مختلف الأصناف، أعدت لتظهر للجميع كم انه شخصية مهمة. ورأيت أيضاً ان الرجوب كان لئيماً وغير مبال، ويتصرف كأنه رجل عصابات وليس قائداً. وعندما ألقى عرفات القبض على أكبر عدد ممكن من قادة حماس واعضائها في عام ١٩٩٥، أذاقهم الرجوب أصناف العذاب من دون رحمة. وقد هددت حماس مرات عدة باغتياله، ما حمله على شراء سيارة مضادة للرصاص والانفجارات. حتى عرفات نفسه لم يكن يملك مثيلاً لها.

١٢. أسوشييتد برس، «صانع قنابل فلسطيني ينال حكماً مؤبداً سبعة وستين مرة». ام اس ان بي سي،

٣٠ تشرين الثاني ٢٠٠٤.

http://www.msnbc.msn.com/id/6625081/

١٣. داني روبنشتاين، «قائد حماس: لا يمكنك التخلص منا»، هاآرتز.

http://www.haaretz.com/hasen/pages/ShArt.jhtml?itemtNo=565084&contrassID=2&subContrassID=4&sbSubContrassID=0

١٤. «اسرائيل تعد بسحق حماس بعد هجوم». فوكس نيوز، ٢٥ أيلول ٢٠٠٥.

http://www.foxnews.com/story/0,2933,170304,00.html (٥ تشرين الأول ٢٠٠٩)

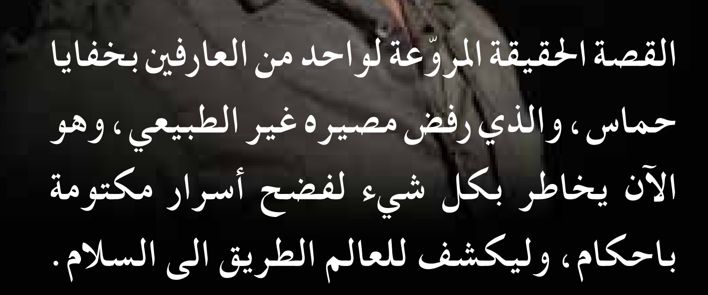


Visit: www.sonofhamas.com

للمزيد من المعلومات والأخبار عن مصعب حسن يوسف

للحصول على نسخة صوتية كاملة لقصة ابن حماس على ٧ أقراص مدمجة ، ISBN رقم :
978-1-4143-3309-0





منذ أن كان صبياً صغيراً، عاين مصعب حسن يوسف من الداخل، زمرة حماس الارهابية القاتلة. مصعب الصغير، الابن البكر ووليّ عهد الشيخ حسن يوسف، العضو المؤسس لحماس وأكثر قادتها شعبية، ساعد والده لسنوات في نشاطاته السياسية، فيما كان يعدّ نفسه للسير في اثر خطواته. ولكن كل شيء تغير، عندما اعتنق مصعب تعاليم قائد شرق أوسطي آخر ذائع الصيت. ما تعلمه غيّر مجرى حياته، ويمكن أن يغير مسار مستقبل بلاده، الى الأبد.

في "ابن حماس" كشف مصعب معلومات جديدة عن أخطر منظمة ارهابية في العالم، وأماط اللثام عن حقيقة الدور السري الذي قام به، وآلام الانفصال عن عائلته وأرض ميلاده، وخياراته الخطيرة، وايمانه بأن وصية "أحبّوا أعداءكم" هي الطريق الوحيد للسلام في الشرق الأوسط.

